
آراء فى السياسة والاقتصاد
تأليف : جون كنيث جلبريث
ترجمة : الدكتور حسين فوزي النجار

ساعة الحسم

آراء في السياسة والاقتصاد

تأليف
جون كنيث جلبريث

ترجمة
الدكتور حسين فوزي النجار

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

« أشار أدلاى ستيفنسون مرة إلى تلك اللحظة التى تسبق انتخابات الرئاسة مباشرة ، وهى اللحظة التى يتكيف فيها حتى أكثر الناس جموداً مع هذا العصر ، عصر الآلة ، وإن كان ذلك لفترة قصيرة ومن قبيل الكياسة والذوق ، فقال إن وقفة التريث هذه فى مثل هذا العمل العادى الثابت يمكن أن تسمى « ساعة التحرر » .

THE LIBERAL HOUR
by
John Kenneth Galbraith
Published by Houghlin Mifflin

اهداء

إلى السود

المؤلف

المطبعة العالمية ١٦ ، ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة

مقدمة المترجم

غالباً مايتناول المؤلف موضوعاً معيناً بالدراسة والتحليل لإبراز فكرة معينة تجول فى خاطره أو تصحيح مفهوم خاطىء قد توصل فى بحثه إلى جانب الصواب فيه بعد أن يلم بحقائق جديدة تكشف هذا الخطأ وتقومه على النهج المستقيم ، وهذا هوالجانب الفلسفى من العلم ، أياً كان هذا العلم. ففلسفة التاريخ غير حقائق التاريخ المجردة ، وفلسفة الرياضيات غير قواعد الرياضة وقوانينها الثابتة ، فالفلسفة تعتمد على العرض والتحليل والنفوذ إلى ماوراء الحقيقة ، وما تعنيه هذه الحقيقة فى مدلولها الأكبر ، وبينما لانرى فى حقائق التاريخ غير وقائع أو أحداث جرت فى زمن ما إذ بفلسفة التاريخ تكشف لنا بالمقارنة والتحليل عن العوامل التى تتحكم فى وقائع التاريخ وأحداثه ونسوقها إلى نتائج محتومة أو غير محتومة بقدر مايكمن وراءها من قوى دافعة أو عوامل تتحكم فى سيره ، وهكذا نرى أن فلسفة العلم وإن قامت على الحقائق المادية المجردة إلا أنها عن طريق هذه الحقائق المادية المجردة تبرز الفكرة العامة التى تكمن وراءها ، وهذا هو الجانب النافع للانسان ، إذ يهديه طريقه وينير سبيله ويضع الحضارة الإنسانية على القصد والغاية من مرماها .

وقد لايكون البحث كله — كبر أو صغر — إلا تحقيقاً لهذه الفكرة وابتغاءً لها ، وهى فكرة واحدة قد لايتعداها المؤلف إلى غيرها من بحثه هذا وإن دارت حولها أفكار عديدة أخرى إلا أنها تدور حول الفكرة

الأساسية التى يتبناها المؤلف ويرمى إلى مناقشتها وإثباتها .

وفى أحيان أخرى نرى المؤلف يحوم حول أفكار عديدة تدور هى الأخرى حول حقائق عديدة وإن كانت تتلون فى النهاية لتحدد نوع الفكرة العامة التى تجول فى ذهنه أو تشغل خاطره ، ومن هذه الأفكار العديدة يتكون موضوع الكتاب .

وفى مثل هذا النوع من المؤلفات تسيطر الذاتية على اتجاه المؤلف أكثر مما تحدده الموضوعية وإن كان يحاول عبثاً أن يبدو موضوعياً بما يسوقه من حقائق وأسانيد تؤيد وجهة نظره وتدعم آراءه إلا أن ذاتيته وأفكاره تبدو بارزة فى شتى فصول الكتاب .

ولا يضير التأليف أن يكون المؤلف ذاتياً فى تفكيره ، فالذاتية غالباً ماتكون نبعاً لاينضب للخلق والإبداع ، وهما قوام التجديد والتطور فى سير الحضارة وتقدمها مادام رائدها هو الخير والحقيقة والجمال فى مجتمع إنسانى متكامل تنشده البشرية ويبتغيه الإنسان .

وفى هذا الكتاب يبرز المؤلف باتجاهات جديدة أو وجهات نظر يرى فيها الخير لمجتمع يعيش فيه ويدين له بكل معانى الولاء والحب ، ولا نرى فى تلك الحدة والصراحة فى عرضه للحقائق التى يبنى عليها أفكاره إلا ابتغاء الخير للمجتمع الذى يعيش فيه خاصة والمجتمع الإنسانى فى هذا العالم عامة .

وهذه الاتجاهات التى تسيطر على المؤلف تبرز فى هذا الكتاب أكثر مما تبرز فى كتبه الأخرى . ففى كتابه «المجتمع الرخى» The Affluent Society

يستعرض المؤلف رخاء المجتمع الأمريكى وتأثيره على السياسة والاقتصاد استعراضاً موضوعياً يبرز فيه ذاتيته واضحة جلية هى الأخرى ، وفى كتابه « الرأسمالية الأمريكية » The American Capitalisn يعرض صورة موضوعية رائعة لتطور الرأسمالية الأمريكية ونموها هذا النمو الرائع الذى عدت به أمريكا دائنة للعالم ، وفى كتابه « الانهيار الكبير عام ١٩٢٩ » The Great Crash, 1929 يعالج فيه الأزمة الاقتصادية التى طحنت العالم فى تلك السنة والسنوات التى تلتها علاجاً نلمح فيه أصالة أستاذ الاقتصاد ووعيه وبعد نظره حين يتقصى العوامل التى لعبت دورها فى تلك الأزمة الطاحنة وما كان للبيوت المالية والبورصة فى أمريكا من دور بارز فى وقوع الانهيار . وهو فى هذا يرى أن الدور الذى لعبته البيوت المالية فى أمريكا هو السبب الرئيسى فى الإنهيار المالى الذى عصف بالبورصة وإن هذا الدور يمتد إلى سنوات سابقة جرت فيها تلك البيوت المالية على سياسة خاطئة كانت الأزمة الإقتصادية نتيجتها التى لامفر منها .

أما فى هذا الكتاب فإن « جون كينيث جلبريث » لايعالج موضوعاً بذاته قدر مايعرض لعدة موضوعات يحاول أن يربط بينها وإن كنا لانجد بينها هذا الرباط الذى ينشده إلا من حيث أنها تصور خطأ من الممكن تلافيه ، أو أن هذا الرباط لايبدو فى الحقيقة إلا فى أفكار المؤلف واتجاهاته الذاتية . فهوأولاً كاتب متحرر وناقد حاد تحدوه نزعة إنسانية رائعة تطبع كتاباته بذلك الطابع الشعرى الأخاذ الذى يبدو غريباً على أستاذ للاقتصاد والعلوم السياسية يعيش فى حدود الأرقام والإحصائيات وأحداث السياسة بحقائقها وخفاياها واتجاهاتها المرسومة .

فليس هذا الكتاب من المؤلفات المتكاملة التى تعرض لبحث معين أو موضوع معين بالذات ، بل يعرض كما قلنا لعدة موضوعات قد لا يربط بينها إلا ذاتية المؤلف نفسه ، فلم تكن غير محاضرات ألقيت فى مناسبات عديدة ، وبعضها قد نشر من قبل فى بعض الصحف التى تهتم بمثل هذه الموضوعات وقد أشار إليها المؤلف فى تعريفه للكتاب حين فكر فى طبعه . والمحاضرات كما يقول المؤلف « أشبه بعظات القسس لا يمكن أن تكون كتباً ، فمهما كان وقعها ومهما كان رنينها لدى المحاضر على الأقل حين إلقائها فإنها تغدو فاترة بعد الطبع » .

إلا أن هذه الموضوعات على اختلافها تصور جوانب كثيرة حية من جوانب المجتمع الأمريكى الذى توفر المؤلف على دراسته وألم بشتى نواحيه إلمام الباحث المتخصص فى العالم الذى يتخذ من معالم هذا المجتمع برهاناً على آرائه فى السياسة والاقتصاد ، بل إن هذه الصور المتلاحقة التى يسوقها المؤلف واحدة بعد الأخرى لتكسب تلك الآراء حيوية تجعلنا نحس سواء كنا نستمع إليها أو نقرأها بتلك النبضات التى تعوز المؤرخ أو الجغرافى أو رجل السياسة أو الاقتصاد أو الفلسفة لتضفى على بحوثه تلك الطلاوة والجدة والتشويق الذى يجذب القارىء إليه ويحمله على الإيمان بما فيها من آراء مهما كانت غرابتها بل والتحمس لها أحياناً ، فالحياة النابضة فى كل فصول هذا الكتاب هى أبرز ما يميزه عن تلك الكتب العلمية الجافة فى السياسة والاقتصاد أو تلك التعليقات التى يجهد كاتبها فى طبعها بالطابع الأكاديمى بما يحشره فيها من آراء ونظريات .

وقد دعا المؤلف كتابه هذا « ساعة التحرر » وهى اللحظة الحاسمة

التى عرفها أدلاى ستيفنسون « بقوله إنها اللحظة التى تسبق انتخابات رئيس الجمهورية مباشرة ، والتى يتكيف فيها حتى أكثر الناس جموداً مع ما نسميه بعصر الآلة .

ومع ما فى هذا التعريف من غموض إلا أنه يعنى تلك الساعة الحاسمة التى يدلى فيها الناس بأصواتهم فى جانب معين فى وعى تام وتقدير كامل لمقتضيات الظروف التى تكتنف الناس فى تلك الساعات لتحملهم على اتجاه معين يقتنعون به أشد الإقتناع .

وقسم المؤلف كتابه هذا إلى ثلاثة أجزاء يتناول كل جزء منها عدداً من الموضوعات المتقاربة . ففى الجزء الأول يعرض لطبيعة التنافس بين أمريكا وروسيا ليربط هذا التنافس بعدة مباحث أخرى ذات طابع أكاديمى كانهيار الآلة والاقتصاد والفن والتضخم ولكنه يربطها جميعاً بطبيعة هذا التنافس فى إطاره الواسع العريض ، وقد يبدو هذا الربط للوهلة الأولى مفتعلا إلا أنه بما يكشف عنه من مقارنات بين أسلوب الدولتين فى تلك المجالات يبرز نواحى النقص التى يراها فى المجتمع الأمريكى .

ويتناول الجزء الثانى ، الذى جعل عنوانه «كيف تعيد قراءة التاريخ» الأخطاء التى تردى فيها تاريخ الحرب الأهلية وتاريخ الكساد الكبير ويتخذ من تلك الأخطاء تقدمة لعرض الأسباب والدواعى التى أدت إلى الأزمة الإقتصادية ثم يدحض أسطورة التخلف الإقتصادى فى ولايات الجنوب وما تركته تلك الأسطورة من إحن فى نفوس الجنوبيين ، ويربط ذلك بما سماه التخطيط والبناء ودور رجل الحكم فى كليهما . ويتكلم عن

الحنين الإجتماعى وهو مصطلح جديد لاريب ، إلا أنه واضح تمام الوضوح ويعنى به حنين الناس إلى بساطة القديم .

ثم يربط هذا الحنين بالدوافع الاقتصادية ويقارن بين ما كانت عليه قديماً وما صارت إليه بعد أن تعقدت التجارة الدولية وخضع تبادل النقد للقيود والحدود التى ابتدعتها الدول للمحافظة على اقتصادياتهـا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

ويختتم هذا الجزء بالحديث عما سماه « أسطورة فورد » فيحمل عليه دون هوادة ويجرده من كل معنى للنبوغ أو العبقرية عرف عنه أو حمل الناس على عرفانه .

أما الجزء الثالث والأخير فتسيطر عليه تلك النزعة من الحنـين التى ابتدعها فى نهاية الجزء الثانى واختار شاهداً على ذلك شمال نيوإنجلند حيث يهرع الناس بعد كل نوبة من نوبات الإفلاس إلى استثمار مدخراتهم فى إدارة المنزل والفنادق الريفية ، ثم يحبذ فى إيمان الشاعر والفنان استثمار المال فى زراعة الضياع المهجورة أو البائرة ، ويختتم هذا الجزء بذكرياته عن نشأته الأولى فى كندا ومقت الكنديين للامبراطورية البريطانية ورابطة التاج التى تربطهم بها وتبلغ به السخرية مداها حين يصم الأسرة المالكة البريطانية بالسفه والتبذير وإدمان الخمر ويرى أن الوراثة ليست مبرراً كافياً لاعتلاء الزمن أو الاضطلاع بالحكم فى تلك الإمبراطورية الواسعة وإن مجال الاختيار الحر القائم على المنافسة أجدى وأفضل .

وتبدو هذه الموضوعات جميعاً وكأن الرباط بينها ، كما قلنا ، معدوم

إلا أن العرض الذى يسوقه المؤلف ويربط فيه بين الماضى والحاضر والمقارنات التى يجملها بين الأحداث فى أمريكا وفى غيرها وخاصة فى روسيا ، تربط موضوعات الكتاب بذلك الرباط القوى من التفكير المستقيم فى إصلاح أوضاع المجتمع الأمريكى الذى يتردى فى أخطاء الثروة والرخاء والإقتصاد الفنى المتكامل .

والكتاب فى مجموعه نقد واع لأوضار الاقتصاد الأمريكى حيث تتحكم الرأسمالية وتسوق المجتمع الأمريكى إلى تلك الكوارث من الإفلاس والأزمات المالية والبطالة والتى يقف هذا المجتمع دونها جامداً بحجة أنها تتعرض للحرية الشخصية ، ويقول فى ذلك « أن التغيير والحقائق الجديدة تجعل ما كنا نؤمن به غريباً بل وعقيما ، والمتسامح الواعى من يتقبل أخطاءه بصدر رحب دون ما غضاضة ، وهذا ما لا يطيقه الوقور الجامد ، فقد يسمع أن الحقيقة هى التى تحرره ولكنه يؤمن أيضاً أنها تصمه بالغباء » .

لذلك نرى أن الكل المتكامل فى هذا الكتاب والرباط الذى يربط بين موضوعاته العديدة هو فى استعراض تلك الأخطاء ويرى أن مصدرها « هو تلك الخرافات المهيبة التى تشدنا إليها » فإذا كان من العسير على المرء أن يكون على يقين تام من بعض الأشياء إلا أن تناولها بالعرض والتحليل لا يعد غير « تقدمة لمزيد من المناقشة الهادئة » فليس هناك من إنسان عاقل واع يستطيع « أن يجمد طوال حياته أمام مجموعة من النتائج والنهايات » .

وقد حببنى فى ترجمة هذا الكتاب عدة اعتبارات أقلها ذاتى وأكثرها موضوعى ، فأما الإعتبارات الذاتية فلأننى عرفت جون كنيث جلبرث أستاذاً للاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة هارفارد أعرق الجامعات الأمريكية وأكثرها وقاراً وجلالا ، تتلمذ على يديه الرئيس كنيدى فى أواخر الأربعينات كما تتلمذ عليه آلاف غيره من الأمريكيين بل وكثير غيرهم من العرب الذين كان لهم حظ طلب العلم فى جامعة هارفارد .

ويعرف تلاميذه عنه تلك الروح المتحررة والنقد الواعى والأصالة فى عرض موضوعاته ومناقشتها بتلك الطبيعة الصافية البعيدة عن الصلابة والجمود .

ويحتل جون كينيث جلبرث مكانة ممتازة كأستاذ للاقتصاد والعلوم السياسية فى الدوائر العلمية على اختلاف أنواعها تقبل على نشر بحوثه الدوريات والمجلات الأكاديمية العديدة وتفخر الأندية والجامعات والمؤسسات بمحاضراته التى تدعوه لإلقائها بين حين وآخر . وهو من أكبر أنصار الحزب الديمقراطى ويمثل الجناح المتحرر بين صفوفه وقد اختاره الرئيس كينيدى أخيراً سفيراً لبلاده فى الهند .

أما الجانب الموضوعى فى إقبالى على ترجمة هذا الكتاب فهو هذا الاتجاه الاشتراكى الواضح فى كتاباته وفى هذا الكتاب بالذات وحملته القاسية على أوضار الرأسمالية فى بلاده فى الوقت الذى تتجه فيه جمهوريتنا الفتية إلى بناء مجتمع إشتراكى تسوده العدالة والرخاء .

وليس أدل على نزعته الإنسانية من إهدائه هذا الكتاب « إلى السود ».

ولا أحب أن أستطرد فى عرض موضوعات هذا الكتاب حتى لا أفسد متعة القارىء به فلأخل بينه وبين صفحاته ؟

المترجم
دكتور حسين فوزى النجار

تعريف

بدأ هذا الكتاب كسلسلة محاضرات ألقيتها « بكلية جرينل » فى ولاية « أيوا » فى ربيع عام ١٩٥٨ ، تحت رعاية «مؤسسة ميريل لتقدم المعارف المالية » . وتنص لائحة المحاضرات على طبع مثل هذه المحاضرات بعد مراجعتها بوقت كاف ، وأتيح لى من الوقت ما يكفى لذلك ، غير أننى آثرت الفوضى ففاتت على فرصة مراجعة المادة ، فالمحاضرات عادة أشبه بعظات القسس لا يمكن أن تكون كتباً ، فمهما يكن وقعها ومهما يكن رنينها لدى المحاضر على الأقل حين إلقائها ، فإنها تغدو فاترة بعد الطبع .

ومن هذه المحاضرات التى ألقيتها فى جرينل ثلاث يتضمنها هذا الكتاب بشكل واضح معقول ، أما المحاضرات الباقية فقد أدمجت بعضها فى بعض .

وأرانى فى هذا مديناً بالوفاء لصديقى القديم الكريم « هوارد بوين » مدير الجامعة ، فقد أتاح لى تلك الفرصة لبلورة تلك الموضوعات الرئيسية ومناقشتها هناك كما ظهرت فى هذا الكتاب بعد مراجعتها ، ومنحنى تلك السعادة التى غمرتنى خلال ذلك الأسبوع .

أما الفصول الأخرى التى يتضمنها الكتاب فقد نشرت من قبل ، فمنها اثنان ظهرا فى « مجلة ريبورتر » وآخران فى صحيفة « النيويورك تيمس » وواحد فى صحيفة « ستردادى إيفننج بوست » وآخر فى « الأمريكان هيرتيج » وثالث فى « أتلانتيك منثلى » وكانتا قد نقلتا الموضوعين

ونشرتاهما فى وقت مبكر .

وإنى لشاكر لتلك الصحف موافقتها على إعادة النشر .

وفى كل تلك المراحل من البداية إلى النهاية كانت كاترين . أ . جلبريث خير معوان لى على ذلك ولا أستطيع أن أكون أكثر امتناناً لها لتدخلها الصارم فى تحرى الحقيقة وتدقيقها فى الأسلوب والقواعد اللغوية .

أما تسويد الأصول وتبييضها فقد كانا فى يد لويس فوستر الحاذقة . وأما المسائل الأخرى ، صغيرة أو كبيرة ، مملة أو أكثر مللا مما يتصل بطبع هذا الكتاب فقد اضطلع بها عن رغبة وحب صادقين « اندريا ويليمز » .

جون كنيث جلبريث

كمبردج . مساشوستس أبريل ١٩٦٠

مُقَدِّمَة

ســـاعة التحرر

قد يختلف المنصفون من النـــاس ، وصواباً مايختلفون ، فيما يهدد مأثوراتنا هذه فى زمننا هذا ، فهناك الشيوعية ، وهناك أيضاً أولئك الذين يرون أن أقوى ما يجتثها هو الإبادة الشاملة ، فالذين يصورون الأسرة الأمريكية فى صلاتها حول مائدة عيد الشكر وقد امتد الحديث بهـا إلى التأمين على الحياة والجعة والـكوكا كولا وعرضت فى دعة لهذا الموضوع ، لهم دعواهم ، كما لتلك الأعداد المتزايدة من الناس الذين يدافعون عن المنافع المالية الوضيعة على أساس من المبادىء الأخلاقية الرفيعة دعواهم كذلك ، ومنهم أرباب الصناعة الذين تدفعهم أنانيتهم لمقاومة زيادة الأجور خوفاً من التضخم ، وكبار منتجى الخضر والفاكهة من الزراع الذين يجادلون الحد الأدنى للأجور وساعات العمل لعمال التراحيل مما يعد تعرضـاً لتراثنـا التقليدى من الحرية الشخصية. ولم يكن إلى عهد بعيد ، كما يجب أن نلاحظ ، مايستوجب الشكوى الصادقة من أن الإصلاح يبهظ كاهل الفرد بالنفقات .

ومهما يكن فإن من المحتمل أن يكون الخطر الأكبر ، فى تلك الأيام الحافلة بالاستغراق الباطنى الهائل ، ناجماً عن وقارنا الممكن ، فهو النبع الخطر للجمود والصلابة . فالتغير والحقائق الجديدة تجعل ما كنا نؤمن به فى الماضى غريباً بل وعقيماً . والمتسامح الواعى من يتقبل أخطاءه

بصدر رحب دون ماغضاضة . وهذا مالا يطيقه الوقور الجامد ، فقد يسمع أن الحقيقة هي التي تحرره ولكنه يؤمن أيضاً بأنها تصمه بالغباء .

وإني لآمل أن يكون هذا الكتاب ، أو جله ، تقدمة لمزيد من المناقشة الهادئة ، فإنه يعرض لأشياء من العسير أن يكون المرء منها على يقين تام . والواقع أنه لا يوجد إنسان في تمام وعيه يجب أن يجمد طوال حياته أمام مجموعة من النتائج والنهايات . كأن يقول مثلا كيف ننافس روسيا ؟ ولذلك فإنه في الوقت الذي أتحدى فيه بعض تلك الخرافات المهيبة التي تشدنا إليها ، أراني متقبلا على الأقل من حيث المبدأ ، أي تحد مضاد ، وإن كنت لا أنشد الرحمة لأولئك الجامدين الذين ينشدون تلك الخرافات ويعملون على بقائها أينما كانوا .

ولن أفترض أن كل ما في الكتاب جدير بالمناقشة ، فإن بعض موضوعاته قد استرعت انتباهي لأنها بدت على جانب من الأهمية ، بينما بدأ بعضها الآخر شيقاً وقد قسمتها إلى ثلاثة أجزاء ، يتناول الجزء الأول منها مسائل يرى البعض أنها على جانب كبير من الأهمية العاجلة ، كوسائل منافستنا للاتحاد السوفيتي ، وإهمال الأداة التي نملكها في الحصول على الذخيرة العقلية ذات الأثر البالغ في أهميتها ، وخلو حياتنا الإقتصادية من عوامل الفن والجمال وما يترتب على ذلك من نتائج جسيمة ، ثم هذا الموضوع القديم المتواتر ، موضوع التضخم . وقد تناولت بعضها من قبل ، وعندئذ وجدت نفسي بفعل مؤثرات عميقه أقل انفعالا بما قلت ، مني بما لم أنجح في الإفصاح عنه وإن كان ذلك مما يثبط الهمة إلا أنه حافز غير منكور على التأليف .

ويتناول الجزء الثانى التاريخ الإقتصادى ، والتاريخ إذا زاوج الاقتصاد كان الفصيل هجيناً يتمثل فيه النقص فى كليهما ، فالتاريخ لرجل الاقتصاد فراش ممهد يستلقى عليه كل من لم يروضه مزاجه أو مرانه للنظرية الإقتصادية بمـا فيها من جداول وإحصائيات وما تضم من صور أخرى أكثر دقة فى الدراسات الإقتصادية . والمؤرخون يلجون عالم الاقتصاد بحذر ينتهى إلى التهيب ، وإنهم ليؤمنون بأن عليهم أن يرقبوا بعين ساهرة رجل الاقتصاد الذى يتأهب للفتك بهم فيتعجلون التهجم على مأثوراته القائمة ، وهى مأثورات ليس لها صفة الخلود فيكون ذلك مدعاة خلودها .

ولا أرانى فى هذا المجال أكثر اهتماماً بما نؤمن به من المظاهر التى تحملنا على معتقدات واهية . ومهما كانت أخطاء الشرح الذى أقدمه ، فإنه ليبدو لى مجدياً ، إنه ليتسق اتساقاً دائماً مع عصرنا . فبعد قرن من الزمان لم يتخلص الجنوب من فكرة أن تخلفه الإقتصادى إنمـا يرجع إلى الحرب الأهليـة وكوارثها ، وهى فكرة ليس لهـا مايؤيدها . وفى العشرينات من هذا القرن لم ندرك كيف كانت النظرة القاصرة للمسئولين فى واشنطون مضرة فى المدى القريب لأصحاب الأعمال فى بلادنا . وقد ظل خطأ إدراك طبيعة المجتمع الصناعى الحديث لدى كثير من مؤرخى «النظام الجديد » وخاصة فى نظرتهم للادارة الأهلية للانماش (نرا) فإنها تعرقل نمو سياسة استقرار الأسعار التى تناسب اقتصـاداً يقوم على الشركات الـكبرى والنقابات القوية . ونحن أقل اهتماماً بالتاريخ من الإنجليز مثلا وإن كان هذا لايعنى بالضرورة أننا أقل تأثراً به منهم .

وأما الجزء الأخير فيتناول مسائل عولجت عامة فى كثير من التؤدة

والأناة كالمشروعات التجـارية الصغيرة والإفلاس ، واستخدام وسوء استخدام الأراضى البور والانتفاع بعـائد الاستثمارات . ومهما يكن من أمرها فقد تناولتها فى هذا الـكتاب لأنها اشياء جديرة بالـكتابة حتى إن موضوعاً منها عندما نشر قبل ذلك . وكان عن « فلاحة مزرعة بائرة » أثار لدهشتى السارة من التعليقات مالم يبزه موضوع فى مثل حجمه كتبته من قبل ، فلعدة أسابيع غمرنى طوفان من المقترحات ، والانتقـادات وجاءتنى أيضاً دعوات ممن يديرون مثل هذه المزرعة ومن غيرهم ممن ليست لهم مزارع يديرونها من كل أنحاء شرق الولايات المتحدة .

وغمرنى ذلك بنوع من الإحساس بأن رعاية وإدارة الأراضى البور ستصبح مهنة كبرى للأمريكيين (وان كانت لاتحمل مدلول المهنة) . ويجب على وزارة الزراعة الأمريكية أن تنشىء مصلحة خاصة بها لهذه الأراضى ، وأرى أن تكون تذكاراً لجهود عزرا تافت بنسون[1] الذى سيدين له بالشكر كل أولئك الذين هجروا مزارعهم .

المؤلف

---

(١) NRA اختصار National Recovery Administration وسنشير اليها فيما بعد بكلمة (نرا)

(٢) عزرا تافت بنسون وزير الزراعة الأمريكية فى حكومة ايزنهاور وقد زار الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦٠ بدعوة من وزير الاصلاح الزراعى .

القسم الأول

مشاكل رحبة

— ١ —

استراتيجية المنافسة السلمية

من العبارات الجديدة التى تضمنتها لغة العلاقات الدولية أخيراً عبارة « المنافسة السلمية » وهى عبارة توحى إلى حد ما بالأمل . وإنا لنعلم أن علاقاتنا بالاتحاد السوفيتى سيحكمها باطراد مثل هذه المنافسة . وهى الحقيقة المموهة التى تقال لنا حين تعمى علينا الأمور فلا نعلم عنها شيئاً . ففى هذا العالم ما دمنا نستطيع أن نأخذ مطمئنين بأية اتجاهات مشجعة دون مغالاة فى التشجيع ، نستطيع أن نأمل فى أن ذلك قد يحدث حقاً .

وعلى أية حال فإن المنافسة السلمية هى النوع الوحيد من المنافسة الذى يمكن أن يستريح إليه أى إنسان ، وعلينا ألا نفقد الأمل ، فقد أصبح من الواضح أن هناك تقديراً متزايداً للدمار الشامل الذى تحدثه الأسلحة الحديثة مما غير فى مفهوم الحرب لدى الواعين من الناس بعد هيروشيما ونجازاكى اللتين تحتاج مأساتهما إلى وقت طويل قبل نسيانها . وإنا لنحمد حسن الطالع الذى أتاح لنا تلك السنوات التى استطعنا فيها أن ندرك هذا الجموح الذى يصون الذكاء البشرى حيث ينم شعور الإنسان على أن أكثر الناس ضراوة قد غدوا أكثر ضبطاً لأنفسهم فى هذه الأيام ، وحتى محترفى الحرب العالميين الذين خبروا من خلال تجربتهم فى الحرب العالمية الثانية نظريات الدمار الكلى وعركوا وسائلها ، قد فقدوا كما لابد أن نشعر ، حماسهم لعمليات الإبادة الشاملة .

ومن الخطأ أن نتصور أن هذا الحرص المتواضع والحكمة الضئيلة قاصران علينا وحدنا دون بلاد الستار الحديدى. فمهما كانت غرابة أطوار الروس أو تمسك الشيوعية بعقيدتها ، فليس هناك مدعاة للظن بأنها تتضمن استحسان الدمار ، وإذا كان الأمر كذلك فمن المحتمل أن كلا الجانبين سيضاعف من حرصه على السلام ويحد من حبه للحرب .

ولست أرمى إلى مناقشة هذا الاحتمال ، بل إلى التسليم به ، وأود أن أبلو السلوك الناجم عنه .

— ٢ —

ليس هناك أيسر من أن ندرك الغرض من التنافس العسكرى ، مهما كانت الملامح بينة على عجز رجال الحرب عجزاً مؤسياً منذ « دارا » إلى « هتلر » فى أن يخضعوا أى شىء لخطة ما ، فالغرض من الحرب إذا قامت هو إخضاع العدو بأقل خسارة ممكنة ، وقد غدت الحرب وسيلة غير عملية ما دام هذا الغرض البسيط لم يعد محققاً ، فالأسلحة الحديثة مهما بلغ تفوقها فى جانب عنه فى الآخر ، لا يمكن أن يقلل هذا التفوق من خسارتها بل إنها لتسبب تحت ظروف معينة خسارة لاتعوض للجانب الذى يملكها ولا يمكن أن تكون الخطة أكثر ذاتية فى يوم من الأيام كما هى اليوم ومهما توقى واضعها فسيبقى ليرى أنه كان على خطأ .

والبديل المحتوم للتنافس العسكرى هو التنافس الاقتصادى كما نفترض عادة . فاذا لم يعد الأول مجدياً فليس أمامنا غـير مرارة الآخر ، وهذا الآخر كما نراه ينتهى إلى معركة الإنتاج ، فاذا كان السوفييت يبغون أن يتفوقوا علينا فيه ، فان علينا أن نعمل على التفوق عليهم ، وإذا كانوا يحاولون سبقنا فإن علينا أن نسبق أنفسنا وفى هذا المضمار تتجلى الدولة التى تحقق أعظم زيادة سنوية فى حجم الإنتاج القومى وتبرز .

وقد ازداد حجم إنتاجنا القومى فى السنوات الأخيرة إلى ما يقرب من ٣ ٪ بينما كانت الزيادة لدى الروس أكثر من ٧ ٪ ، ويرى المتحمسون منا أن واجبنا العاجل هو رفع مستوى هذه الزيادة وبذلك نحتفظ بالمدى الواسع بيننا وبينهم . بينما يقول غيرهم ممن يودون تأكيد موقفنا إن أرقام الروس خاطئة ولايقولون إننا يجب ألا نسمح لهم باللحاق بنا . فهناك صناعة صغيرة ولـكنها رائجة تقول الإحصائيات المؤكدة إن زيادتها لدى الروس ليست دون الحقيقة كما يتوهم هؤلاء ، وصاحب هذا الوهم إقتصادى استرالى من أوكسفورد هو « كولن كلارك » فانه يرى أن الإنتاج الروسى يسير القهقرى .

ولم يـكن معـدل نمونا الاقتصادى مرضياً فى السنوات الأخيرة فقد كانت هناك بطالة كان من الممكن ألا تـكون ، وتضاءلت دخول بعض الجماعات الهامة ، ولا تستمد المالية العامة حصيلتها للأغراض العاجلة بتلك السهولة إلا على حساب زيادة الإيرادات ، فحسب . وليس هناك شك فى أن نمو الإنتاج يحسم مسائل أخرى كثيرة .

والواقع أن السوفييت يتحدوننا فى مضمار الإنتاج ، ويعلنون عن رغبتهم فى اللحاق بنا فى كل رحبة وفى كل مصنع . وجدير بنا أن نفترض أنهم جادون فى هذا . ومن الخطأ أن نتصور أن منافستنا للاتحاد السوفيتى تتضمن مواجهة تحديهم هذا ، فالنمو الاقتصادى للسوفييت لايعنى غير شيء واحد ولكنه مخالف لنا تماماً ، وفى استطاعتهم إلى حد ما أن ينجحوا بمتابعة هذا الهدف ، بينما نفشل حقاً إذا جرينا جريهم . فقد كان الاتحاد السوفيتى إلى عهد قريب بلداً زراعياً متخلفاً ذا مستوى معيشى منخفض ، وفى مثل هذا البلد تبدو الحاجة ماسة إلى تنمية صناعية سريعة وإنتاج زراعى متزايد . وهم يسمحون برفع مستوى المعيشة الحالى ويعبدون الطريق للتقدم فى المستقبل ويمكنون للاستثمارات المتزايدة للتقدم العلمى والفنى . ويقدمون الفائض لخدمة أهداف سياستهم الخارجية ومن الغفلة أن نتجاهل فى عالمنا هذا حساب العوامل العسكرية مهما بلغت درجة المسالمة فى التنافس السلمى ، فإلى حد ما ما زالت القدرة الصناعية المتزايدة ذات صلة بالقدرة العسكرية ، وهى صلة مهما كانت ما زال يحوطها كثير من الغموض وسأعود إليها حالاً .

وفى الاتحاد السوفيتى ما زالت الحاجة ماسة إلى زيادة الإنتاج فى عالم تتقدمها فيه الدول الأخرى صناعياً وتفوقها إلى حد كبير فى ارتفاع مستوى المعيشة مما يثير لديه نوعاً من مركب النقص — كما يقول رجال الاقتصاد — من كونه يأتى فى المرتبة الثانية . وهذا هو الأثر الذى يتركه ارتفاع مستوى المعيشة فى أمريكا فى كل مكان آخر من العالم . ويتضاعف هذا الأثر فى

بلد شيوعى حيث ينخفض مستوى المعيشة ويؤدى إلى مركب النقص الذى يعترى أسلوبها .

ولكن هذه الاعتبارات لاتنطبق علينا ، أوعلى وجه الدقة ، لاتنطبق علينا بنفس القوة التى تنطبق بها على الآخرين فالروس ينشدون الكثير لأننا نملك هذا الكثير . ومن الواجب أن نتساءل لماذا نريد الأكثر فلابد وأن يكون هناك سبب أكثر وجاهة من مجرد الاحتفاظ بمركز الصدارة. وأنه لعمل عقيم أن نضحى فى مضمار السبق الإحصائى المجرد بأحسن النتائج لصالح الخطوط البيانية فانها لن تحرك مشاعرنا نحو الأهداف القومية ولن يثير نوعاً من الحماس إلا بين الإخصائيين ولن يستطيع أى إنسان فيما عدا الاحصائى أن يتبين الكمة الراجحة فى المناجزة بين رجال الإحصاء .

فاذا ردنا ميدان الصناعة ورأينا أننا يجب أن نتوسع فيه بمقدار نمونا الاقتصادى المتزايد فقد يجبهنا حتماً ضآلة ما لدينا فى مثل تلك الجولة ، فهل ننشد التوسع فى إنتاج الأغذية ؟ والجواب حتما لا ، فان الفائض لدينا ضخم وإنا لنعانى التخمة أكثر مما نشكو من سوء التغذية ، وأكثر من هذا أننا نستوعب جل مواهبنا فى تعبئة المواد الغذائية ، أكثر مما نستوعبها فى إنتاجها (وحتى فى هذا تبدو نهاية الشوط واضحة ، فالتغليف الدقيق والغرض من صناعة الأوعية ماثل فى كل مكان . وليس بعد التغليف مزيد للاجادة) وليست هناك كذلك حاجة ماسة للكساء ، وما عدنا نصمم الملابس للوقاية إلا بقدر وإنما نصممها بغية الذوق أو مجاراة لموضة تأتينا

من الخارج ، وها هو إنتاجنا من السيارات الذى يبلغ ثمانية أو عشرة ملايين سيارة فى العام يواجهنا بمشكلات (الجراج والمواقف) والطرق الفسيحة لقيادتها ، والتى تستوجب شق شبكة دقيقة منها تشوه جمال الريف بمظهرها الشاحب . وقد نتساءل هل تسعفنا السرعة الكافية فى إزالة الفضلات والمخلفات البشعة التى تنساب من محطات خدمة السيارات فتكسو الأرض بتلك الطبقة المعدنية الكريهة .

وقد يرى البعض أن كثيراً من الأفراد والأسر تعانى من نقص التغذية ورثاثة الملابس ، ورداءة السكن أو تستذلها ألوان أخرى من الحرمان . وهذا صحيح . وحتى نستطيع أن نمد هؤلاء بحاجتهم دون غضاضة لا بد وأن نضاعف من إنتاجنا ، إلا أن هؤلاء الناس يعوزهم المال ، كما يعوزهم التعليم . والصحة والقدرات والمهارات التى تمكنهم من كسب المال اللازم لشراء الحاجيات أو الدخل الكفيل باتباع الإنتاج .

فاذا واتاهم هذا الدخل فان ما يقابله من الإنتاج جد وفير ، فالدخل والفرصة المواتية لزيادة الدخل هما نقطة البداية . ولا يؤكد مجرد الزيادة فى الإنتاج أن الفائدة ستعم أولئك الذين فى الحضيض والذين هم فى حاجة إلى البضائع أكثر من غيرهم .

— ٣ —

والمعروف عامة أن الاستثمارات الروسية تتجه نحو الإنتاج الصناعى ، كالقدرة على إنتاج الصلب ، والآلات والعدد والكيماويات لزيادة قدرتهم

العسكرية . وكلما زادت هـذه الاستثمارات زادت معها تلك القدرة العسكرية .

ولا يعرف إنسان على وجه التأكيد ما ينطوى عليه تفكيرهم ، فمن المحتمل أيضاً أنهم مثلنا ، لايقودهم تفكيرهم فى الشئون الاقتصادية أكثر مما يقودهم عدم ملاءمتها لهم . والراجح أنهم فى طريقهم إلى بلوغ الحد الذى لا تضيف بعده أية زيادة فى الانتاج أو القـدرة الصناعية سوى القليل إلى قوتهم العسكرية . ففى الحروب القديمة حيث تضارع الأسلحة المصنوعة من الصلب أسلحة أخرى من نوعها تتحدد كمية الإنتاج الصناعى الثقيل الذى يمكن أن يوجه ضد العدو . فقد كانت قدرة ألمانيا على إنتاج الصلب خلال الحرب العالمية الثانية أقل بكثير من قدرة السوفييت فى الوقت الحاضر ، إلا أنه كان يفوق كفايتها لتسليح قواتها العسكرية الضخمة وبأقل جهد كانت قدرتها المواتية تمكنها من إنتاج كميات كبيرة من الصلب تستخدم الـكثير منه فى أغراض ثانوية . ولـكن الأسلحة الحديثة كما نسميها تجاوزاً تستهلك من الصلب أو من طاقة الصناعات الأخرى الثقيلة أقل بـكثير مما كانت تستهـكه الأسلحة القديمة هذا فضلا عن أن الصلب لا يحقق أى نوع من أنواع الدفاع حيالها . وما لم يتوقع السوفييت يوماً ما أن يحركوا ويعدوا قوات ضخمة كتلك التى عملت فى الحرب العالمية الثانية على جبهة تمتد من البلطيق إلى البحر الأسود وما لم يؤمنوا أن الأداة التى تقوم بذلك تستطيع أن تقوم به دون عائق فان أية زيادة فى طاقتها الصناعية لا تستطيع أن تحقق غير القليل من اللياقة العسكرية . فان أداة

صناعية أقل مما لدينا بكثير لم تمنع السوفييت من أن يبذونا فى تحسين القذائف والصواريخ .

فاذا كان الروس على وشك بلوغ تلك النقطة التى يقل فيها اعتبارهم للقيمة العسكرية للتصنيع فاننا لابد وأن نكون قد اجتزناها . وبغض النظر عن تاثيرها على الإيراد العام فان كثافة إنتاجنا الصناعى البحت لا تضيف شيئاً هاماً إلى قوتنا العسكرية ، وفى أحسن الأحوال تضعف من قدرتنا العسكرية ، وهى تمدنا بالبضائع والآلات ، وسرعان ما نعتبرها ضرورية حتى نهجرها فى إصرار بالغ عند الضرورة ، وبعضها ، كالسيارات مثلاً ، يصيب أجسامنا بالترهل وحيويتنا بالضمور ومازلنا نذكر كيف كانت المشقة فى كوريا ليتعلم جنودنا كيف يواجهون عدواً لم يتعود ركوب « الجيب » ومن أنواع التقدم الأخرى ، كمواقد البوتاجاز ، والمواصلات الآلية ، والتخصص السكين فى إنتاج الأغذية ، مايجعلنا خاضعين إلى درجة مميتة لطرق تموين شديدة التعقيد كثيرة العيوب .

وأخيراً فقد قيل إن الانتاج يمدنا بفائض للتصدير يمكننا من مساعدة حلفائنا ودعم موقفنا فى البلاد المتخلفة حين نسهم بسخاء فى العمل على تقدمها . ولم يكن قصور الإنتاج هو ما يعوق مثل هذه الجهود فى الماضى بل إن إهمال استخدام الإنتاج لهذه الأغراض وإدراج الاعتمادات اللازمة لها هو ما كان يعوقنا . وتبرز مشكلة أخرى وهى مشكلة التكاليف المرتفعة لكثير من أنواع إنتاجنا الصناعى . هذه التكاليف المرتفعة التى تلعب فيها التكاليف الباهظة لإنتاج الصلب دوراً رئيسياً فإنها بالإضافة إلى سوء

التصميم تضاعف من صعوبة توزيع سلعنا فى الخارج ، وتجعل استيرادنا لها من الخارج أجدى وأكثر فائدة لنا . وبينما تساعد معونتنا الخارجية على تنمية الصادرات نجد أيضاً هذا الفرق بين الصادرات الهائلةوالاستيراد المتواضع الذى نلجأ إليه لمساعدة البلاد الأخرى . ولقد أصبحت أثمان منتجاتنا وبالذات أثمان الصناعات الثقيلةفى الوقت الحاضر أجدر بالاعتبار من كمياتها . فليس لقدرتنا على إنتاج فائض للتصدير أهمية إذا ما حالت أثمانها المرتفعة دون ابتياعها .

ولهذا فإننا حتى إذا كنا ننشد لدواع أخرى نمواً اقتصادياً أكثر كفاية وأوفى سرعة ، فان جولتنا الاقتصادية مع السوفيت لن تحقق غايتنا كثيراً ، فبدون عمل أبعد مدى لن تستطيع أن تمد الناس بالسلع التى تطـــرد حاجتهم إليها ولن تضيف شيئاً بذاته إلى قدرتنا العسكرية أو كفايتنا الاقتصادية كما أنها تستطيع أن تصرف انتباهنا عن أشياء أكثر أهمية .

— ٤ —

تمثل الأقمار الصناعية وارتياد الفضاء أجلى ما يتضح فى الصورة من أهداف التنافس مع السوفييت فاذا وعينا ذلك للحظة استطعنا أن نتبين الطابع الحقيقى لتلك المنافسة .

فقد رفع ذلك النجاح من مكانة الروس كثيراً بعد أن اقترن حقاً بالتهديد العسكرى الذى يعتمد عليه بلا محالة ، وشكل الاتجاه العالمى فى

أوسع مراميه ، هذ الاتجاه الذى يرتبط دون شك بالبلاد غير الشيوعية فى ادعاء أن مثل هذا النجاح أمر عادى بالنسبة للولايات المتحدة ، وبدد من ناحية أخرى أسطورة تفوق العلم الأمريكى ، فالتفوق العلمى كان دائماً مصدراً للهيبة القومية ، ففى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة كما كان ملحوظاً أيضاً فى روسيا القيصرية كانت المآثر العلمية الدعامة الكبرى للاعتزاز القومى . ويوم يرتبط العلم ارتباطاً وثيقاً لا بالحرب فحسب بل بالصحة ورفاهية الانسان ، والتقدم الاقتصادى أيضاً فإن من الطبيعى أن يصبح هذا التقدم العلمى موضع تقدير خاص . وقد يضيف البعض أن الروس ركزوا أيضاً على نوع من التحصيل العلمى له قدرته الفريدة فى الاعلان عن نفسه .

وقد أبرز كشف الفضاء تلك الحيوية والقدرة والثقافة المتطورة لجانب هام من جوانب المجتمع السوفيتى وهو ما أثار اهتمامنا واهتمام الآخرين فى العالم أجمع . وكان السوفييت من الحرص بمكان فى التخفيف من حدة التهديد العسكرى الذى يرتبط بكشوفهم فى عالم الفضاء ، وهو تهديد مثير أيضاً ولكنه يضفى على ذلك النجاح أصداء الحرب الداوية تتضاءل معه تلك الهالة الرائعة لمجتمع علمى جسور ، وأدرك السوفييت ذلك ليؤكدوا أن ليس هناك ما يفزعهم .

فاذا اهتدينا بنجاحهم فإن المنافسة تقف عند تلك الأشياء التى تبرز نوع وتأثير النظام الإجتماعى وبالتالى جاذبيته للناس وتترك صدى طيباً بين الجماهير فى شتى بقاع العالم . وهى ليست معركة علمية تماماً ، فإن أى

شيء يوضح طبيعة المجتمع يعد عاملاً هاماً فى المنافسة كما نعينها . والتخاذل عامل مدمر والمجتمع الذى يمتلك من أسباب الحيوية والقدرة أكثر مما يملك من أسباب الضعف يكون موضع التقدير والتأييد وتكون لديه كما نقول أحسن الفرص للبقاء ، وهذا كما نقول مرة أخرى هو الهدف من هذا السباق .

— ٥ —

وحتى نتبين مشاكلنا بجلاء وما نستطيع أن نقوم به فى هذا السباق فعلينا أن نوضح تلك المسائل ولمرة أخرى نرى كيف يبدو سباق الإنتاج وعر آعلى الأقل بالنسبة لنا ؛ فإن عليه أن يضاعف من رفاهيتنا ، وأن علينا أن ننال مزيداً من الكماليات أكثر من ذى قبل بالرغم من أن بقية العالم بما فيه روسيا يتطلع للحياة الطيبة التى نحياها عامة ولقد قمنا حقا بالكثير من أجل رفع مستوى الحياة الأمريكية كدليل على فضائلنا وكان الاستهلاك ظاهراً أو خفياً أو مواتياً إلى حد كبير لحاجة المستهلك .

وعلينا ألا نفترض أن التنافس وقف على عالم الفضاء كما يبدو من بعض تصرفاتنا وإن كان من الواجب أن تكون جهودنا فى هذا الميدان أفضل بكثير مما كانت ، وأن المراقب المحايد ليرى على الأقل أن جهدنا ينطوى على مزيج متكامل من الغباء والصراع البيروقراطى والرثاء الحقيقى لحالنا الماضى مما يجعلنا أشد تصميما على أن نكون أول من يبعث برجل الفضاء على أن نكل الإعلان عن هذا السبق إلى رجل الدعاية المتخصص . ولكن إذا قصرنا اهتمامنا على ارتياد الفضاء فانما نربط أنفسنا بجانب واحد من جوانب المنافسة وهو الجانب الذى تتخبط فيه ، ومعنى ذلك أننا نكون قد ربطنا

أنفسنا في حقيقة الأمر بجانب واحد من جوانب المنافسة مع السوفييت وبالذات بالجانب الذى يبذوننا فيه .

ويجب ألا نفترض فضلاً عن ذلك أن نظمنا تحول دون الاستجابة المرسومة للمبادرة السوفيتية لأن لديهم مجتمعاً منظماً ليس لدينا . فمن الخطر أن نتصور الثقة فى مجتمع حر وكأنها تعنى القيام بأى عمل نحتاجه دون جهد أو توجيه أو أن التعاويذ على الأكثر هى كل ما نحتاجه . وتأثير مثل هذا المعتقد . هذا المعتقد الذى ساد فى السنوات الأخيرة — هو أن نستبعد الاستجابة القوية للمنافسة الروسية بحجة المحافظة على المبادىء ، ويعنى هذا فشلنا المحتوم لأن النجاح يتطلب التضحية بمأثوراتنا فالواقع أن ما تحتاجه منافسة قوية هو قيادة حكومية مؤثرة وليس هناك بديل لذلك .

— ٦ —

وتتضح ضرورة تلك القيادة المؤثرة القوية إذا ماوضعنا فى اعتبارنا المناطق المحدودة ، للتنافس . ويتضمن ذلك كما رأينا تصحيح العيوب البارزة فى نظامنا الاجتماعى على أن نكون حريصين فى ذلك حتى نحمى جوانب القوة فيه . فاذا استبعدنا مشكلة التفرقة العنصرية التى تشغل اهتمامنا جميعاً فإن أمامنا ثلاثة عوامل للضعف تعتور مجتمعنا وتدمر هيبتنا وسمعتنا فى العالم جميعاً تدميراً خطيراً وتلقى ظلالها القائمة عليه .

وأول هذه العوامل هو الشكل المهوش العارى لمجتمعنا الحضرى وسفه المراهقة والجريمة وهى بعض أحدوثتنا فى العالم لا لشىء إلا لأننا نلحظها بأنفسنا ونتحدث عنها كثيراً ومن ثم يحسب علينا حديثنا عنها ، ومن ثم

كانت هذه الصورة الكريهة للعنف والعار التى تلتصق بنا فى نظر العالم . وليس هنا مجال الإفاضة فى التشخيص أو الإسهاب فى طريقة العلاج إلا أن شيئاً واحداً هو ما يجب أن نتناوله بوضوح ألا وهو مشكلة المدن الأمريكية كما هى فى حقيقتها وليست مشكلة المدن السويدية أو الهولندية أو الألمانية أو الانجليزية لا لأن الأمريكيين يؤثر عنهم أنهم أكثر سواء من السويدين أو الهولنديين أو الألمان أو الانجليز بل لأننا لم نعن العناية الواجبة بترقية وتحسين الحياة الحضرية كما عنيت بها البلدان الأوربية ، فادارة المدينة الأوربية عمل له مسئولياته الثقافية والفنية وله مقابله من التقدير ، بينما هى فى المدينة الأمريكية وظيفة قانونية تقوم بما لا يستطيع الفرد أن يقوم به لنفسه وحتى فى هذا لا تضطلع بغير القليل ، فإذا اعتبرنا إدارة المدينة شراً لا بد منه فعلينا ألا نعجب إذا ما كانت هى نفسها شراً .

والبطالة هى العامل الثانى الذى يظهر ضعف الكفاية ، وهى من الأهمية بمكان لأنها تمد الماركسية بحجة قوية فى جدلها حول عجز الرأسمالية عن حل هذه المشكلة مع ما تملكه من احتياطى ضخم فى الصناعة . ويجد السائح فى البلاد الشيوعية وفى غيرها أن أى تفسير يقدمه لمشكلة البطالة فى الولايات المتحدة يقابل بالأسف وهذه هى الحقيقة على أية حال . ولقد أكثرنا من السفسطة فى الأعوام الماضية دفاعاً عن أنفسنا بأن البطالة لا تشمل غير أعداد متواضعة ، وكأن هذه السفسطة صيحة فى بئر ترتد إلى أذن السامع مجلجلة داوية ، ولكن صداها لدى الآخرين ضعيف فاذا كانت البطالة لا تمزع غير عدد ضئيل فإنها مازالت بالنسبة لهذا العدد الضئيل مصدراً خطيراً للتعاسة . وهذا من المواقف التى لا تجدى فيها السفسطة حيال الاتجاه

المفزع للناس فى عنادهم حين لا يجدون رداً شافياً . وفى هذه الحالة نقول ، لم لا يكون هناك عمل لمن يريدون العمل ؟

وحتى نوائم بين هذه البادرة السانحة والاطراد المعقول فى ثبات الأسعار فاننا نحتاج بالتالى إلى قيادة حكومية — وسنعرض لهذه الحاجة فيما بعد .

والعامل الثالث من عوامل الضعف . سواء كان حقيقة أو ادعاء هو هذا الدور الذى تضطلع به نفقات التسليح فى حياتنا الاقتصادية فهناك إحساس عميق بالذنب ولربما كان ذلك أقل عمقاً فى الولايات المتحدة منه فى الخارج — من أن نظامنا الاقتصادى ترهقه نفقات البنتاجون[١] الهائلة ، فاذا تخلصنا منها كانت النتيجة انهياراً مروعاً ، فان البورصة تتعرض لهزات عنيفة كلما تناولنا خفض التسليح ، أو العكس إذا ما توتر الموقف الدولى . وبينما ينفق السوفييت بسخاء على التسليح . فقد عملوا على تجنب ما يشير إلى أن لذلك تأثيراً جدياً على مستوى المعيشة — وقد يكون ذلك لأنه ليست لديهم سوق للبورصة — والذين يؤمنون أن الاقتصاد الحر يمكن أن يواجه تلك المؤثرات العارضة ويتحكم فيها إنما يؤيدون تلك النزعة بترديدهم لهذا القول بانتظام مما يؤكد لنا — وللروس أيضاً — أن خفض نفقات التسليح العنيف لا يمكن أن يثير أية مشكلة ، وقد أثارت زيارة خروشوف لأمريكا فى خريف عام ١٩٥٩ الكثير من هذه التقولات الفعالة ، ولكنها لم تأت بجديد فان التسامح لسوء الحظ إذا ما غلفته العنجهية لا يعد بديلا طيباً للصراحة .

(١) البنتاجون مبنى وزارة الحرب الأمريكية وهو من أضخم المبانى الحكومية فى واشنطون العاصمة . المترجم .

ولذلك فإن الفكرة السائدة عن اقتصادنا هى أنه لاينمو إلا بإنتاج أسلحة الدمار ومثل هذا الاقتصاد لاينال تقديراً كبيراً من العالم وهو قمين بإبعاد الناس عنه أكثر مما هو قمين بأن يجذبهم إليه ومع ذلك فهذا هو موقفنا .

ولا أعتقد من جانبى أننا نعتمد فى اقتصادنا على إنتاج السلاح — وقد تصبح سياسة إنتاج الأسلحة أكثر تعقيداً وأجل خطراً — فإذا ما تحقق السلام هذا العام أو العام الذى يليه وغدا فى قدرتنا أن نخفض خدماتنا العسكرية وفقاً لما تقتضيه الاستعراضات فحسب — وحتى هذه القوات الاستعراضية برية أو بحرية أصبحت تكلف الآن نفقات مرتفعة — ففى استطاعتنا فى الحال أن نجد ما يستوعب هذه الدخول الضائعة وما يحل محل هذا النشاط الاقتصادى المضيع ، فهناك تخفيض الضرائب على شرائح الدخول البسيطة مما يعوض جزءاً من الخسارة ، فقد غدت مقومات الاحتياجات العامة هائلة مما يتناسب أحياناً مع تراكم الاحتياجات الشخصية بعد الحرب العالمية الثانية . وهناك أيضاً تخفيض ساعات العمل الأسبوعى والزيادة فى ساعات الراحة مما يتطلب زيادة فى العمالة حتى يمكن تغطية الإنتاج المقرر ، وقد تتفاقم المشكلة بالنسبة لأنواع معينة من الصناعات ولبعض المناطق كصناعة الأسلحة الدفاعية فى لوس انجلوس مثلا ، ومن الواجب أن يخصص جزء من وفورات نفقات التسليح لتعويض المتعطلين من العمال ورفع مرتبات الفصل التعسفى للفنيين والمهندسين والإداريين فى هذه الصناعات ، ويمكن أن يعود الجزء الأكبر من هذه الوفورات فى شكل هبات للمدن التى تأثرت من ذلك بنوع خاص . إلا إننا لا نقدر أن نقوم بهذا التحويل دون تخطيط محكم . فبالتخطيط

بالاضافة إلى تراكم الحاجة لدى المستهلك خلال سنى الحرب ، استطعنا أن نقوم بنوع من التحويل الهائل فيما بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٤٧ فقد هبطت نفقات التسليح من ٨٥٫٥ بليون دولار إلى ١٤٫٧ بليون دولار . وكانت الأسعار نصف الأسعار الحالية وبذلك كان الخفض الحقيقى يعادل ثلاثة أضعاف تكاليف الدفاع التى تبلغ فى الوقت الحاضر حوالى ٤٦ بليون دولار .

وعلينا إذن أن نضع تخطيطاً دقيقاً مفصلا لما يجب أن يتبع فى حالة خفض نفقات التسليح ، فان وجود بديل واضح محدد لنفقات التسليح يثبت أن هذه الصناعة المدمرة لا تشدنا إليها بأى شكل ويضاعف بصورة ملحوظة من المكانة والاحترام الجديرين بنظامنا الاقتصادى فى الداخل وفى الخارج كما يحول دون الهزات العنيفة التى تعتور البورصة عند ما ترد الأخبار حافلة ببعض النوايا الطيبة عما ينتويه الإنسان .

— ٧ —

وهذه الأمور التى ذكرتها من الجريمة إلى الفوضى والبطالة ، والاعتماد الواضح على صناعة السلاح تسىء إلينا فى نظر شعبنا وفى نظر شعوب العالم أجمع . وتجتث من ذلك الوقع الطيب للسجايا التى يبديها مجتمعنا .

ولكن من الخطأ الجسيم أن نفكر فى المنافسة بذلك الأسلوب السلبى من حيث علاج الأخطاء فحسب مهما كانت أهمية ذلك ، فمهما كانت فضيلة الرجوع إلى الحق فإن هؤلاء الأبرار الذين يتجاوزون عن السيئات لابد أن يكونوا من ذوى الفضائل العليا .

وما من شك فى أن أجدى وسيلة لإبراز تلك الفضائل العليا ، هى فى

أن يكون لدينا برنامج إيجابي قوى لمعونة البلاد المنكودة على أن لا يكون ذلك نتيجة آلية لاقتصاد قومي نام متوسع فاننا نستطيع أن نستهلك تماماً كل إنتاجنا إذا ماغاب عنا أن نستخدم بعضه لمساعدة الآخرين ، فنى خلال العقدين الماضيين قررنا أن نستوعب بعض هذه الموارد بأنفسنا وجنينا من وراء ذلك ثماراً طيبة . وقد يتصور الناقدون لسياسة المعونة الخارجية ما كان يمكن أن يكون عليه مركزنا فى العالم لو أننا فضلنا منذ الحرب العالمية الثانية أن نوجه استثماراتنا لتحقيق راحتنا ورفاهيتنا وحدنا ، وتركنا بقية العالم كل لشأنه . فقد غدت مساعدة البلاد الغنية للبلاد الفقيرة التزاماً حكيما نما وتأصل فى المجتمع الدولى أخيراً ، وسيذكر التاريخ لنا هذا الفضل.

أما إذا تعسر علينا ان نجعل من المعونة الخارجية عنواناً على فضائل مجتمعنا بما فيه من أريحية وحب وتقدير فقد دمرنا كل سجاياه الطيبة تدميراً عنيفاً ، فقد كان بعض الناس من الجهل وقصر النظر حين أصروا على أن تكون المعونة الخارجية منة تمليها الأنانية . ولدى مثل على ذلك من تجربتى فى إدارة التعاون الدولى (ايكا)[١] حين قال مديرها « جون ب. هوللستر » وكان قد ترك إدارتها منذ زمن وجيز ، « إن الحكم على أى مشروع معين يجب أن يتحدد أولا وقبل أى شىء آخر بهذا الغرض وهو « هل يؤدى المال الذى ينفق فى هذا الغرض إلى زيادة تأمين الولايات المتحدة ؟ فان شاغلى الأوحد كان وما زال هو مصلحة هذا الوطن فحسب » .

---

(١) هى مؤسسة "International Co-operative Administration" وتدعى اختصاراً ICA وقد تغير إسمها أخيراً إلى وكالة التنمية الدولية « . Agency for International Development.

وهذا هراء لا ريب فيه ، فقد قدمنا المعونة الخارجية لأننا فى الغالب كنا نشعر أنها أريحية وحق ولربما أردنا أن نتجنب قليلاً وخز الضمير من أن نكون على هذه البلهنية من العيش والآخرون يعانون الإملاق . ومثل هذا القول يعنى أننا نقول لهؤلاء القوم الذين يقبلون مساعدتنا أنهم يجب أن يكونوا رهائن مرامينا ، ولا يحب أى إنسان أن يكون رهينة . والنتيجة الحتمية لذلك أننا نقلل من جدوى المعونة تقليلا مؤسياً فى ميدان تطّرد فيه المنافسة كما نرى .

فإذا نظرنا إلى المعونة كمظهر لطبيعة مجتمعنا فإننا نرى أيضاً أنها لا تبدى بشكل لائق أو محدد أهداف مجتمع كريم ، ويحدث هذا حين نمد بها الطغاة الفاسدين والأقليات الرجعية الحاكمة التى تعد خطراً على شعوبها ويجد ذلك أيضاً تبريراً متصلا من ذوى العقول الجامدة والتافهين من الناس بأن الأمن الاستراتيجى يقتضيه ، ولقد رأينا ذلك أخيراً فى فنزويلا وكوبا وسنراه يوماً فى جمهورية «سان دومنجو»[1] فما أعمق الشك وما أشد تفاقم الصعوبة من وراء هذا المسلك . فحيثما نساعد الطغاة والأشرار فإنما نساعد

---

(١) حدث ما توقعه المؤلف مما أشارت إليه الصحف فى حينه من اغتيال تروجللو دكتاتور سان دومنجو ومازلت أذكر سخرية صحف كاليفورنيا خاصة حيث كنت أقيم حينذاك والصحف الأمريكية عامة من دكتاتور سان دومنجو حين نصب إبنه الذى فشل فى الكلية الحربية الأمريكية قائداً عاماً للجيش وقد اتخذت هذه الصحف من مطاردات هذا الإبن لممثلات السينما مادة للفكاهة والهزء . هذا فى الوقت الذى كانت معونة أمريكا تنثال على أبيه الديكتاتور . (المترجم)

على تفاقم الشعور فى كل مكان بأننا لا نتلاءم مع الحرية أو الـكياسة أو العدالة الاجتماعية وهو مما لا يليق بنا ولا يصح لنا أن نقترفه ، فالوسائل الصحيحة والطرق العملية يجب أن تتطابق وتتفق .

— ٨ —

إذا مضى السوفيت قدماً بقصد التفوق علينا فى بعض الميادين الهامة كالطب والعلوم والزراعة ، أو حتى فى إنتاج السيارات الذى نتفوق فيه . فسيـكون ذلك مدعاة لـكثير من الاستقراء العقلى الذى تعودنا عليه . وذلك لأننا لا نتبين مزايانا وما تنطوى عليه من حسن الأمثولة ما لم تتعرض تلك المزايا للتهديد ، فحيث لا يوجد تحد مفاجىء ، فليس هناك ما يحملنا على افتراض المنافسة .

ويبدو أن الدرس واضح تماماً ، ففى ميدان العلم يجب أن نبذل من الاهتمام بالميادين التى نتخلف فيها عن غيرنا مثلما نبذل فى الميادين التى نبذهم فيها . ولربما نـكون فى حاجة إلى أداة علمية منظمة ترينا بجلاء فى أى ميدان يبدو أننا نتقهقر فيه حتى ولو كنا متقدمين فيه على غيرنا . وكما تبدو الأشياء الآن أو هذا هو ما يتراءى لنا ، هو أننا لا نفزع لقصور التقدم مالم يضعنا فى المرتبة الثانية .

إلا أن مشـكلة الحفاظ على مزايانا وبالتالى استخدامها لا تكمن فى العلم وحده وقد لا يـكون غريباً ألا ترتبط به أيضاً . فالفضيلة العلمية لمجتمع ليست غير جانب واحد من صفاته . فالصور الفكرية والفنية الأخرى هى

بدورها مهمة وأنها لتحرز أهمية أعظم لأن المفكر والفنان هما اللذان يضعان الخطوط الأولى والأخيرة فى شكل الثقافة .

وعلينا ألا نعلى كثيراً من شأن الثقافة السوفيتية الحديثة . فالحياة الثقافية للمدن السوفيتية الكبرى تتسم بالقوة ولها طابع الاحتراف كما تثير الاهتمام ، فهناك الموسيقى الكلاسيكية ورقص الباليه والمسرح التقليدى وكلها رائعة وتتلقى معونة سخية ، وإذا كانت بعض روائع القصص قد حيل بينها وبين النشر فقد نشر منها الآن بعض ما يتسم بالجودة ، والجامعات رحبة متسعة يقبل عليها الطلاب إقبالا طيباً وقد أعدت لهم أكمل إعداد ، ولرجل الفكر مكانته المرموقة ، ولكن فى هذا الجانب من الحياة ، وخاصة فى التصوير وكفاية المسرحيات الحديثة والعمارة فإننا نبذهم على الإطلاق ، ولا نستمد تميزنا عليهم من ارتفاع كفايتنا بل من توافقنا الاجتماعى الرفيع . فالفن المبدع الخلاق لا يزدهر حيث يعوقه مذهب رسمى .

وليست نيويورك عاصمة الدنيا ولم يضف عليها العالم أردية المجد والشرف بسبب جنودها أو علمائها أو حكامها ولكن بسبب ممثليها وكتابها المسرحيين وما تضم من الفنانين والموسيقيين والمعماريين (وتفاهة التصوير والعمارة الروسية أسوأ عنوان على المجتمع السوفيتى) والجامعات الروسية رغم اتساعها أقل تنوعاً من جامعاتنا وليس فيها من المتاع والمنفعة ما فى جامعاتنا ، ففى جامعاتنا الكبرى كما فى اكسفورد وكمبردج وجامعة باريس يتمثل الفكر الإنسانى العالمى ، وليست تلك بفائدة ضئيلة .

وهى فائدة لم نلق إليها بالاً فحين زار خروشوف الولايات المتحدة لم ير غير كثير من الساسة العظام ومنهم من لم يكن محبوباً من الشعب الأمريكى ومنهم من أتخمه الثراء ، كما رأى بعض البارزين من رجال الأعمال إلا أن القليل منهم من كان جذاباً ، ورأى شجيرات الزينة فى « بلتسفيل » وبيادر الذرة فى « أيوا » ، ورأى أيضاً حانوت « بيرل ميستاس » للآلات . وكل ما رآه إذا ما نحينا الساسة جانباً ، قد يكون أكثر روعة من كل ما رآه فى روسيا وإن كان التباين من حيث المستوى فحسب .

وبالتالى لم يقابل أحداً من الكتاب أو الفنانين « كتنسى ويليامز » « وآرثر ميللر » و « رودجرز » و « همرشتين » ولم ير متحف الفن الحديث ، ولا متحف هويتنى ، أو حتى متحف جوجنهايم الجديد . ولم يلمح من عمائرنا الحديثة إلا ما رآه عرضاً ، ولم يزر إحدى دور الكتب الكبرى . وشاهد القليل من جامعاتنا ولكنه لم يعرف عن عدد طلابها شيئاً ، ومن المحتمل أنه لم يبد ميلاً إلى ذلك مما لا يمكن معه عمل أى شىء آخر ولكن تجاهلها فى مثل هـذه الحالات يأتى من ناحيتنا مع أننا نكسب عن طريقها تقدير العالم واعتباره بما فيهم عدد كبير من الروس أكثر مما نكسبه باستعراض قدرتنا الصناعية .

— ٩ —

ولا أحب أن أبدى اقتراحاً بأن تكون مناقشتنا للسوفيت طفيفة أو ناعمة فقد يكون من اعتبارات سوء التقدير للنواحى الثقافية أن نقول بالضرورة إنه لاتوجد منافسة فى هذا الميدان . ولكن إذا سخرنا مواهبنا لمصلحتنا الذاتية سواء من جانب المتنورين أو غيرهم فإن ذلك يحملنا على

أن نتحفظ قبل تلك المشروعات التى يضعها مقدماً باسم المنافسة أولئك الذين يجدونها ملائمة .

ففى زيارة خروشوف قامت وكالات الإعلان بحجز مساحات ضافية فى صحف نيويورك لتثبت أن الإعلان الجيد الوفير هو سلاحنا السرى . وفى الشهور والسنوات القادمة سنجد بالتأكيد من يقول لنا إن تفوقنا يعود إلى إنتاج مرشحات سجائر أفضل مما كانت ، أو صيانة شبكة الطرقات العامة . أو طلاء التلفزيون أو استهلاك الخمر المعتق . وعلينا أن نواجه تلك البلاهة بما تستحقه من زراية وازدراء .

ولكن المنافسة التى تتمثل طبيعة مجتمعنا وتعليها هى المنافسة التى لا تعتمد على ذوى العقول الجامدة المهيبة فانهم سيقولون لنا إن الوقت ليس مناسباً للاصلاح وأن هناك — كما يقولون دائماً — ماهو أدعى للاهتمام ، ويمنحون بذلك الروس شرف الادعاء بأن الميدان الوحيد للمنافسة الذهنية هو فى ارتياد الفضاء حيث يتفوقون علينا فيه . وسيفشلون فى تبين أن أعمالنا العظيمة إنما تتمثل فى قدرتنا على التجريب والتغير الاجتماعى والاقتصادى كما تتمثل فى حريتنا الثقافية وتنوعها . وأخيراً سيأملون أن نقوم بالعمل الذى يمكن أن نتجنبه . وعلينا ألا ندع مجالا للخطأ فإن أكثر الأشياء التى يجب أن نقوم بها تبريراً لطبيعة مجتمعنا هى على حساب الأموال العامة ، والاستعداد للتشريع ثم الإنجاز الذى يبين مدى جدية الإنسان . فإذا لم نتعلم بعد كيف نتجاهل حقاً أو نشك فى ذلك الإنسان الذى يتكلم عن الأهداف القومية العليا دون أن يذكر الثمن الذى يقابلها ، أو يحتمل أن يقيد المصروفات العامة تقييداً شديداً كمبدإ أساسى لديه فإن أمورنا يمكن أن تسوء كثيراً .

الفصل الثانى

انهيار الآلة

إن أولئك الذين يرودون متاعبنا ومشاكلنا الكبرى ، كثيراً مايسألوننا أن نمعن النظر فى تخلف الإنسان عن منافسة الآلة ، فهذه الآلة التى توجه وتدار إلكترونياً قد أخذت تحل محله على خطوط التجميع الصناعية فإذا كان الإنتاج المحقق هو ما يهم المستهلك فانها قد صممت لتقلل كلاً من الجهد والذكاء اللذين تتطلبهما هذه الآلة لإدارتها وحتى هذا السؤال الذى يمكن أن يرد إلى الذهن عن مدى حاجة الناس إليها قد تركت الإجابة عليه لحكمهم على الإطلاق وقد أثبت ذلك الإلمام بحاجة السوق وأكده الإعلان ولربما سبرنا أغوارها معاً بمساعدة العداد الإلكترونى الذى ندعوه من باب التعالى بالعقل الإلكترونى .

ومن المسلم به أن يفوق الاستغناء عن الإنسان وذكائه كل ما تدعو إليه حاجة المستهلك ، فالصاروخ الآلى قد أخذ مكانه ليحل محل قاذفة القنابل القديمة التى يقودها الطيار . وفى المستقبل القريب ، جرياً على مايراه المتفائلون سيلحق الصاروخ الآلى ليمنع صاروخاً آلياً آخر وهذا يحول بدوره دون منع صاروخ جديد . وستدير هذه العملية آلة العمل الدولية (IBM) [1] فاذا كانت الكرة الأرضية أكبر ، أو المتفجرات أصغر فان الصورة ستكون مثيرة وسيستسلم الناس جميعاً إلى سيطرة الآلة ، ولم

(١) آلة العمل الدولية International Business Machine .

تـكن الحرب رائعة إلا لهؤلاء الذين يقودونها من بعيد . ولن تنتهى تلك الرؤى لانتصار الآلة . وإن كنا نأبى أن نأخذ ذلك مأخذ الجد فلأننا نأبى أن نصدق أن الآلة تحتل مكاننا حقاً ، وفطرتنا لا تخطىء فإذا كان هنالك ثمة تنافس بين الآلة والإنسان فان الرابح هو الإنسان لأنه ظل على الأقل طوال قرنين من الزمان يملك زمام الآلات التى يعمل عليها .

وللحقيقة التى تقول إن هذا هو عصر سيادة الإنسان وليس عصر انتصار الآلة مبرراتها العملية ، فاذا كانت الآلات هى الشىء الحاسم ، فان التنظيم الاجتماعي الذى ينمى غرسنا الطبيعى ويزيد من معداتنا سيحتل المكان الأول من اهتمامنا ، ولـكن ما دام الإنسان هو الشىء القمين بالاعتبار ، فمن الواجب أن تـكون التنظيمات التى تحفظ مواهبنا الشخصية وتنميها هى أول ما يشغل اهتمامنا ، تلك المواهب التى يستند إليها التقدم ، وسيكون من دواعى هذا الاهتمام فضلاً عن ذلك أن يجد مجتمعنا بسبب تصميمات قديمة بالية أنه يحسن صنعاً إذا ما زود نفسه بالآلات ويسىء صنعاً إذا ما أعد نفسه بالقوى البشرية النامية المدربة ، وهذا هو موقفنا تماماً ، والسبب الذى يدعو إلى هذا الاهتمام .

ولـكن علينا أن نتساءل أولاً وقبل كل شىء عن الظاهرة التى تدعو إلى الاعتقاد بأن الإنسان سيد الآلة وأن المهارة والذكاء قد أصبحا أكثر أهمية لما نسميه التقدم الاقتصادى منهما للمصنع ومعداته .

— ٢ —

وأعظم ما ينعكس هذا التغيير بوضوح على الموقف المتغير للملكية وتمويل رأس المال البشرى . فلمدة نصف قرن كانت مكانتهما وأهميتهما

تهبطان باستمرار ، فقد كان من المسلم به فى وقت ما أن ملكية مشروع صناعى — سواء كانت ملكية فى أصل رأس المال أو إسهاماً مادياً فيه — تجعل للمالك أو المساهم صوتاً حاسماً فى إدارته . وهذا ما كان بالنسبة لفورد وكارنيجى وروكفلر الكبير والكومدور فندربلت وجون جاكوب أستور . فاذا كان ممولاً لرأس المال كما كان الحال بالنسبة لمورجان الكبير فقد هيأ له ذلك نصيباً مماثلاً من السيطرة على المشروع ، كما هيأ له مكانة ملحوظة بين الناس . وقد عُرف هذا النظام بالنظام الرأسمالى لأن ملكية رأس المال تهيىء لمثل تلك السلطة .

ولم تعد ملكية رأس المال أو القدرة على التمويل تتضمن مثل تلك السلطة ، ولم يعد هناك غير القليل من هؤلاء الذين يديرون المؤسسات التى يملكونها . وأصبح أمثال « آل ديبون » قلة ، وآل ديبون أسرة موهوبة ظلت لعدة أجيال وهى صاحبة الكلمة العليا فى الأعمال التى تملكها .

ومثل هذه السلطة هى للمديرين المحترفين وهؤلاء يحملون كل توقير لأصحاب الحصص . ولكن الذى يحدث أن هؤلاء المديرين يختارون مجلس الإدارة ويقوم أصحاب الحصص حينئذ بحكم واجبهم بانتخاب أعضائه وبنفس المراسم الجادة يختار مجلس الادارة المديرين الذين اختاروه . وفى بعض الحالات كما فى شركة ستاندارد أويل أف نيوجرسى التى كان يسيطر عليها روكفلر الأول نرى أن المجلس يتكون إطلاقاً من المديرين وهم الذين اختارهم المديرون الذين اختارهم المجلس .

وهناك عدة أسباب لظهور المدير المحترف ولكن أهمها جميعاً أن ملكية رأس المال لم يعد لها من القيمة ما أصبح للقدرة والمعرفة العقلية ،

فالرجل من ذوى القدرة يستطيع أن يحصل على رأس المال بينما أن صاحب رأس المال المجرد من المواهب الأخرى لا تحمد عاقبته أبداً — فإذا تخلى عن إدارة أمواله فإنه يصبح فى حاجة إلى خدمات المحترف — والذى يضطلع بذلك أينما كان هو هذا المتمرن الذكى ذو العزم والحذق السياسى من المديرين وإن كانوا لا يملكون مالاً ، ولم يحدث أن استطاع الممول أن يزحزح أمثال هؤلاء عن مكانهم فى الإدارة إلا فى القليل النادر .

ولن يضير ذلك الشركات التى نحن بصددها شيئاً ، فان المؤسسات التى حالفها سوء الطالع أخيراً كانت هى المؤسسات التى حاول أصحابها بنفوذهم إقصاء هؤلاء المحترفين . فنى الثلاثينات وأوائل الأربعينات استغل هنرى فورد الكبير سلطانه بصفته المالك الوحيد لشركة فورد للسيارات ليحتفظ بإدارته وقد أعلن الآن صراحة أن الشركة عانت الكثير من جراء ذلك وما أن آلت إدارتها إلى المحترفين بعد وفاته حتى تحسنت كثيراً . ولدينا مثل آخر لإدارة «سويل أفرى» لمتجر «مونتجمرى وارد» الكبير. فقد غدت إدارة الممول لشركة كبرى وتوجيهه لها عملاً محفوفاً بالخطر لأنه سيحاول عبثاً أن يقوم وحده بما يقوم به جماعة من المحترفين المؤهلين ممن تعددت مواهبهم وتنوع تخصصهم .

— ٣ —

وبالرغم من وضوح ذلك تماماً فان التبدل فى الأهمية القياسية للرجل ولرأس المال محسوس فى كل المشروعات الصناعية الحديثة. فالخطوات التى يستطيع بها مشروع كبير ناجح أن يرفع تمويله لتنمية أعماله وتجديد معداته قد أصبحت واضحة ومحددة ، فإذا كانت تخضع للظروف فهناك

مجال واسع للاختيار ، فالمكاسب يمكن أن تضبط وضمانات البنوك يمكن أن تؤدى والتأمينات يمكن الحصول عليها . ويصاحب تلك العملية كثير من مظاهر المنجهية ، ولكن بالنسبة للعمل الكبير الناجح فان ذلك لا يبرز الشك ولا الصعوبة بقدر ما يبرز تقديرنا العجم للمال وإنا لنأمل أن يكون تناول تلك الأموال الضخمة محفوفاً باللباقة والوداعة.

وليس هناك مثل هذا اليقين فى الخطوات التى يمكن بها حتى لأنجح الأعمال أن تزود نفسها بالكفاءات اللازمة ، وعليها أن تبعث برسلها كل عام للاشتراك فى تصيد تلك الكفاءات . فاذا غدا أصحاب الجلال إلى أسواق المال فان ذوى الحصافة يُغذون السير إلى الجامعات ، والصيد لا يسفر أبداً عن شىء محقق وإن أسفر غالباً عن بعض ما لايفى الغرض . وإذا انتوت إحدى المؤسسات الناجحة توسعاً ضخماً فى أعمالها فان أول ما يعنيها هو البحث عن الأكفاء قبل أن يعنيها البحث عن التمويل .

وينعكس هذا التبدل فى الخوف والفزع الذى يسود الناس عامة ، فهل ياترى نستثمر رأس المال البشرى كما يجب أن يكون الاستثمار ، فاننا نسمع أن السوفيت وهم الذين أخفتوا صوت الضمير كحافز على الواجب ، قد بذونا فى ميدان الاستثمار البشرى .

والذى يعنينا يوماً بعد الآخر هو حالة مدارسنا وكلياتنا وهل تقوم بعملها على خير وجه نحو أبنائنا وكيف نعثر على الموارد التى تمكنها من القيام بذلك على وجه أحسن ؟ وسيزداد عندئذ إعجابنا بكفاية ما لدينا من المتعلمين المؤهلين تأهيلاً عالياً .

وإن هذا ليبدو واضحاً فى كل مجال عملى فكل أسرة تعلم أن صناعة

السيارات قد هيئت لتمدها بسيارة جديدة عند أول بادرة ، وهذه هي الصورة الرائعة لنمائنا الطبيعي ولكنها لا تستطيع أن تكون على ثقة من أنها ستجد مكاناً لأبنائها في كلية نافعة ، حتى هذا الذي يدير صناعة السيارات قد يضنيه البحث عن المكان الذي يتعلم فيه ولده . وهذه هي حالة التباين الواضحة بالنسبة للتيسيرات التي تقدمها للرقي الإنساني .

— ٤ —

وهذه القوى التي تقف وراء التغيير في الموقف النسبي للإنسان بمقارنته برأس المال ليست جديدة فبعضها هي التي تبدو لأول وهلة وكأنها تتحدى فكرة سيادة الآلة .

فالثالوث التقليدي لعناصر الإنتاج هو الطبيعة أو الأرض بما فيها من موارد طبيعية ثم العمل ، ويتضمن الجهد البدني والعقلي للعامل ، وأخيراً رأس المال . وكل إنتاج ليس إلا حصيلة هذه العناصر الثلاثة في صورة أو أخرى أو بنوع من التوافق أو آخر ، ومن رجال الاقتصاد من يتساءل عما إذا كان هناك فرق كبير بين الطبيعة ورأس المال فكلاهما يزود مجهود الإنسان بالقدرة على إنتاج الحاجيات ، ومنهم من يرى إضافة عنصر رابع ألا وهو مباشرة أعمال الإنتاج أو بمعنى آخر الجهد الإنساني الذي يختص بتنظيم وإدارة العناصر الثلاثة الأخرى .

وما من إنتاج إلا ويحتاج هذه العناصر الثلاثة أو الأربعة مجتمعة : وفي هذا نجد أن كل عنصر منها لا يقل عن الآخر أهمية إلا أن أهميتها قد تباينت كثيراً خلال السنوات المائة والخمسين الأخيرة . ففي بداية القرن الماضي حيث تبلور الاقتصاد الحديث كان عنصر الطبيعة هو الذي يستحوذ على

المكانة الأولى من الأهمية ، فالسكان يتزايدون وتكتظ بهم أوربا وآسيا ولا تلقى السهول الخصبة الفسيحة فى الأمريكتين واستراليا وأفريقية كثيراً من الاعتبار ومن الطبيعى أن يكون تأثير التقدم الفنى الحديث للزراعة على غلة الفدان الواحد دون ما نتصور ، وقد انتهى كل من ريكاردو ومالتوس وهما من الأعلام الشامخة فى تاريخ الاقتصاد إلى حقيقة هى أن مصير الانسان يتقرر نتيجة للضغط القاسى للسكان على رقعة محدودة من الأرض . أما العمل فقد كان من الكثرة بحيث بدا أقل أهمية من الأرض . وأما رأس المال فإنه مع أهميته كان يفتقر إلى ماتجود به الأرض وما هى عليه من خصوبة و موات . وبذلك كانت الطبيعة هى العنصر الذى يتمتع بأوفى نصيب من الأهمية .

وما أن أوفى القرن التاسع عشر على نهايته حتى قفز رأس المال ليحتل المكانة السامية فى هذا الثالوث فقد ضاعف العالم الحديث من إنتاج الأرض. وكان السؤال الحاسم هو تصريف هذا الإنتاج ومن ثم كانت حاجتنا إلى الموانىء والبواخر والطرق والسكك الحديدية والآلات والمنشآت الزراعية. والأرض قائمة كما هى والعامل حاضر على الدوام . أما رأس المال فانه كلما كان نامياً كان التقدم أوسع .

وقد أكد التقدم الصناعى خلال القرن الماضى الاعتبار النامى لرأس المال . ولا يتمثل هذا التقدم الصناعى فى اختراع ذلك العدد الوافر من الآلات ولـكن فى انتشار هذا العدد القليل الملحوظ منها بين الناس . فقد غدا النسيج صناعة ولم يعد إنتاجاً يدوياً . وغدا البخار القوة المحركة لوسائل المواصلات وفى أعمال التعدين وحل محل الانسان والحيوان

ومساقط المياه وقوة الريح وأصبح الحديد والصلب موفوراً قليل الثمن وتيسر استخدامه فى كثير من الأشياء الجديدة .

وكانت هذه المخترعات كما نعرف جميعاً نتيجة ارتباط عوامل كثيرة من المصادفة والالهام والعبقرية ، فان الناس من أمثال جيمس وات وبنجامين فرانكلين وايلى هوتنى لا يمكن تنشئتهم وحين أتيح لهم تحت ظروف معينة نوع من الحماية المستمدة من الترخيص الحكومى كان ذلك هو كل ما أمكن عمله لحماية التقدم الصناعى .

ولكن إذا كان ما يعمل لتنشيط المخترعات قليلاً فان ما يعمل للافادة منها كثير. فالتوفير يمكن تنشيطه بالحض على الاقتصاد أو حتى بأكثر من ذلك بالاستناد إلى الأخلاق والدين بتأكيد المثابرة والزهد وإنكار الذات فى الدنيا والخلاص فى الآخرة . أما الاستثمار فلا محيص فيه من تشجيع الحكومة المستقرة التى تضمن الربح للمستثمر والنظرة الحصيفة للشىء الذى يمكن أن يكون أساساً لسياسة حكيمة ، هى أن يقيس رجال الاقتصاد التقدم بنسبة الدخل القومى الذى يمكن أن يتوفر ويستثمر كل عام ،

— ٥ —

وما زال استثمار رأس المال البشرى المقياس الأول للتقدم ، إلا أنه مقياس مازال خافياً على الناس ، فقد أصبح التقدم المطرد فى استخدام جهاز رأس المال يعتمد على النوع أكثر منه على الكم كما يستند إلى ذكاء ومهارة الذين يستخدمونه .

ولدينا من الأرقام الصحيحة المعقولة ما يصح الرجوع إليها . فني الفترة بين السبعينات من القرن الماضي والحلقة ما بين ١٩٤٤ — ١٩٥٣ زاد الدخل القومي وفقاً للتقدير الذى أعلنه المكتب القومي للبحوث الاقتصادية حوالى ٣ر٥٪ ، وأقل من نصف هذه الزيادة كان نتيجة للزيادة فى رأس المال والعمل بينما كان الباقي بسبب التحسينات التى أدخلت على جهاز رأس المال من حيث التقدم الفنى وارتفاع مستوى اليد العاملة بما فيها الرؤساء طبعاً . وكان للتحسينات وارتفاع مستوى المهارة والقدرة العمالية والفنية والإدارية نصيبها فى هذه الزيادة . ويجب ألا يغرب عن بالنا أن الآلة لا تطور نفسها فما زال هذا من عمل الإنسان القادر المتمكن ولم يعد التقدم التكنولوجى نتيجة المصادفة أو الإلهام أو العبقرية بل أصبح ثمرة جهد رفع له هدفه المحدد . ولم نعد ننتظر ، كما كنا فى وقت ما أن يجيئنا عرضاً أمثال أديسون والأخوة رايت ، فبالتعليم ، والجهد المنظم فى العمل أو ورش الاختبار يستطيع أناس عاديون فى الوقت الحاضر أن يصلوا إلى شيء يقودنا إلى نفس النتائج .

وهكذا نرى أننا لا نحصل على النصيب الأكبر من نمونا الصناعى من استثمار رأس المال فحسب ولكن من التحسينات التى تطرأ على الإنسان والتحسينات التى يقوم بها هذا الإنسان المتفوق وأصبح من اليسير أن نتوقع هذا التقدم التكنولوجى وأن نحصل من هذا الإنسان على أكثر مما أنفقنا عليه . والنتيجة لذلك أصبح العمل والعمل الدقيق المتميز هو الذى يحتل مركز الصدارة فى ثالوث الاقتصاد ، وغدا استثمار المواهب الشخصية لا تقل فى الفائدة والدلالة على التقدم عما لاستثمار رأس المال البشرى ، ومن الممكن أن يكون أكثر فائدة . وهذا هو نوع التغيير الذى يقاومه أولئك المتزمتون الذين يؤمنون

بسداد رأيهم ، ويبقى الدفاع عن تلك الآراء السائدة المألوفة في كثير من التحمس الأخلاقي حتى ذلك الوقت الذي تصبح فيه هذه الآراء نوعاً من الحمق . ولكن ما هي استعداداتنا العملية المواتية لتلك الضرورة الطارئة من استثمار المواهب الشخصية ؟

— ٦ —

ولأول وهلة يبدو موقفنا حسناً ،فقد جنينا الكثير من وراء تأهيل هؤلاء الأذكياء المتمرنين لتحمل أعباء حياتنا الاقتصادية وهي ثمرة من ثمار التجارب العالمية الأولى للتعليم العام ، ومن المؤكد أن تتوالى تلك الثمار .

إلا أننا لا نستطيع أن نكون على هذه الدرجة من التفاؤل ، فحتى القرن الماضي كان التعليم أو حتى الإلمام بالقراءة والكتابة — وكانا من نصيب القلة المحظوظة — علامة التميز ، وتبعاً لذلك أصبح التعليم صنواً للمساواة فلم يغفل عنه آباؤنا وتمسكوا به ليكون قاعدة للمساواة التامة لا يقبل المناقشة ، ولهذا كانت المدارس الإبتدائية المجانية والمدارس الثانوية ، وكان نظام وقف الأراضي على الجامعات وهذا العدد الهائل المتنوع من مؤسسات التعليم العالي والمتوسط الأخرى .

وكان نظاماً متكاملا إن لم يكن رائعاً للتعليم طالما كان نوعاً من الخدمة الاجتماعية هيء تماماً ليؤكد إلى جانب الأغراض الأخرى التي يقوم بها مبدأ تكافؤ الفرص ، ولم يعد هذا النظام التعليمي كافياً منذ أن أصبح التعليم لوناً من ألوان الاستثمار .

والمحك لما تنفقه أية جماعة على الخدمات العامة هو في مقدار ما تستطيع

أن تمدها به من أموال أو ماتؤمن بأنها تستطيع توفيره من أنواع الإنفاق الأخرى لهذا الغرض ، أما محك الاستثمار فهو على العكس يتمثل فى مقدار العائد منه ، ومن الطبيعي أن نطبق تلك القاعدة على الاستثمار البشري حتى وإن كان هذا المصطلح الشائع يعكس مختلف الاتجاهات فحيثما نستثمر رأس المال البشرى نرى الإنفاق على التعليم ميداناً لهذا الاستثمار .

ومحك الاستثمار أبعد مدى فى الكرم من الاثنين ، أو بمعنى آخر يقتضى الكثير من النفقات الطائلة فإنه يتلمس تلمساً عنيفاً كل الوسائل الممكنة لمعرفة مدى ما يغله رأس المال من فوائد ، فالعثور على استثمارات مربحة معناه دعم الثقة بهذا الاستثمار ، فمن بديهيات الإقتصاد أن الاستثمار البشرى يتحقق طالما يتخطى العائد الحدى التكلفة الحدية بمعنى أن يكون العائد بالنسبة للاستثمار الإضافى كافياً لتغطية التكاليف الإضافية بما فيها الفائدة وبعض مايكفى لمواجهة الخسارة .

أما المحك لما يمكن تقديمه فإنه على العكس يستثير كثيراً من دواعى الوفر فمن الغريب أن يكون الصرف حتى ولو على التعليم امتناناً ذاتياً . فإذا كنا نريده وإذا كنا نحب لأبنائنا المكانة والرضى والفرص التى يحققها التعليم فعلينا أن نضع تكاليفه فوق أى اعتبار آخر لامحيص عنه ، والفضيلة لا تكمن فى البحث عن الوسائل لاستثمار أوسع وإنما فى البحث عن وسائل الإنفاق الأقل حيث تضفى الجماعة آيات التمجيد على من يتميز بالاقتصاد والوفر ، وتبقى هذه الاتجاهات سائدة حتى ولو قيدت المصروفات كما رأينا لصالح عائد أكبر كالصرف على رأس المال البشرى .

وقد تعثر أيضاً استثمار التنمية الشخصية بسبب الافتقار إلى الصلة

الوثيقة بين الصرف والفائدة التى تنجم عنه ، فالشركة الكيماوية تستثمر مادة جديدة لأنها تعلم أنها ستحقق ربحاً أوفر ، بينما لا تجد من يؤكد لها أن ما تنفقه على تعليم كيمائى ناشىء سيعود عليها بربح ما . فمن المحتمل أن يسلك هذا الناشىء ميداناً آخر كأن يصبح فناناً أو مزارعاً أو لا يعوقه الوفاء عن العمل مع شركة منافسة .

ويمكن للمرء أن يرى بصورة بسيطة ما يمكن أن تؤديه الصلة الوطيدة بين التكلفة والربح الذى يعود به رأس المال البشرى فى استثمار التنمية الشخصية إذا ما وجدت . ولنتصور تنظيماً يربط الناشىء المرموق وهو فى منتصف دراسته العالية طوال حياته بشركة ما ، فالشركة تصبح حينئذ مسئولة عن تعليمه بعد ذلك بشرط أن تضمن خدماته لها مدى حياته .

ويبدو واضحاً أن أعمال الشركات فى المستقبل ستقوم على أكتاف هذا النوع من الطلاب الذين يدرسون الإدارة والعلوم وفروع التخصص الأخرى ممن تختارهم وتشرف على تدريبهم اليوم وستغدو مواهب تلك النخبة من الطلاب شغلها الشاغل فتعمل على أن يكونوا تحت رعاية مربين من الطراز الأول تنفق عليهم بسخاء ، وسيبعث المديرون برسلهم لاستيفاء المعلومات عنهم فإذا رأت شركة من شركات البترول الكبرى مثلاً أن المدارس والكليات تنقصها الكفاية لإعداد طلابها من الجيولوجيين والمهندسين فإنها تتقدم حينئذ لعلاج الموقف ولربما يكون هذا العلاج بإنشاء المدارس والكليات التى تتبعها مباشرة وإلا فإن غيرها من الشركات التى تتميز بمواهب رجالها وكفاءتهم ستبذها فى بضع سنين . ومن العسير أن نتصور الشركات المتأخرة وقد خطت خطواتها الفنية القومية للتقدم

وستكون النتيجة وفرة وغناءً لا حد لها فى حصيلة التنمية الشخصية التى يعززها الربح المنتظر، وسيكون هذا كله نتيجة لأن الشركة تدين خدمات الفرد أو عائد الأموال التى تنفقها عليه بدين ثابت الوفاء ، ولها مثل هذا الدين على الآلة ففى نطاق الاستثمار نرى هذا المثل للتميز ينطبق على الآلة كما هو على الإنسان .

والسبب الأخير للتفكير فى نقص استعدادنا لاستثمار التنمية الشخصية هو أن السوفييت — من حيث التعبير الفنى — يتفوقون علينا فى ذلك ، فإنهم يضعون الموارد جميعاً تحت الإشراف العام ومن ثم لا يواجهون أية مشكلة فى تحويل هؤلاء الأفراد المهيئين للتنمية الشخصية من القطاع الخاص إلى القطاع العام . وفى ميزانيتهم الضخمة بنود معينة للصرف على تهيئة رأس المال البشرى والتنمية الشخصية ، كما يستطيعون تقدير العائد من استثمار أى نوع منها إلى غيره من الأنواع الأخرى . وليس لديهم من سبب يستلزم أن تكون الأفضلية لرأس المال البشرى كما هو لدينا . ولكن الحادث فعلا أن الاتحاد السوفييتى ، وهو بلد ما زال بالقياس إلينا فقيراً يضفى من السخاء على المدارس ومعاهد البحث والتدريب والجامعات وتعليم الكبار وإعداد العمال ما يذهل كل من يزوره من الغربيين ، وليس هناك داع لتكرار أن هذا الصرف وليس هذا التوسع التقليدى القديم فى رأس المال البشرى ، كان العامل الحاسم فى إطلاق الأقمار الصناعية والنزول بعدها على القمر[1] .

---

(١) كان ذلك قبل رحلة جاجارين وتيتوف وجلين حول الأرض .
(المترجم) .

— ٧ —

ولن نستطيع حل مشكلة استثمار الأشخاص بربط أولادنا فى سن غضة بالشركات والمؤسسات، وليس لنا أن ننتظر أن تتقدم هذه الشركات راضية لعلاج الموقف بتقديم منح شخصية عن طيب خاطر للتعليم ، فقد ضاع الوقت عبثاً فى هذا التفكير والمشكلة أخطر من أن تترك لضمائر هؤلاء الذين يصرون بنوع خاص على صرف استحقاقات المساهمين .

والأفضل أن نحسم المشكلة بأن نقيم نظاماً أكمل وأحسن لاستخدام الوسائل المألوفة للتمويل العام. فمن الواجب ألا ننظر إلى التنمية الشخصية كنوع من القيمة ولكن من حيث أنها فرصة وأن نضع على كاهلنا عبء استغلال هذه الفرصة بكفاية تامة وأن يكون دور الحكومة الفيدرالية أساسياً فإن لديها بطبيعتها فائضاً من الموارد يفوق بكثير ما لدى الولايات والمقاطعات ، وحيث أن التعليم قدغدا نوعاً من الاستثمار أكثر منه خدمة عامة فقد أصبحت هذه الموارد ضرورية ، فهى همزةالوصل بين الحكومة ومسئولياتها عن التنمية والإنعاش القومى . فهناك على الأقل ما يرجح أن يكون استثمار التنمية ضماناً أكمل لقوة الوطن من بعض ما تنفقه على التسليح .

كما أننا فى حاجة أيضاً لأن نراجع موقفنا من الولايات ومن الضرائب المحلية ففى البلاد الفقيرة نجد من الأسباب العميقة ما يبرر الإحجام عن فرض ضرائب على حاجيات الاستهلاك اليومى كنوع من أنواع الخدمات العامة والعمل على راحة الناس . أما نحن فلسنا فقراء ولم تعد التنمية

الشخصية خدمة بل استثماراً ، ولهذا فإن من الواجب على الولايات والمقاطعات ألا تتردد فى ستخدام ضرائب المبيعات والمنتجات — وذلك بالإضافة إلى غيرها وليس كبديل لغيرها — لسد نفقات المدارس والجامعات وعلى المتحررين بنوع خاص ألا يكونوا حانقين حيث يتم ذلك .

وثمة طريق آخر يجب أن يكون موضع الاعتبار لوضع شروط للتنمية الشخصية تجعلها على قدم المساواة مع تنمية رأس المال ، فإننا نفترض أن الشركة تضطلع بمسئولية تنمية أو توسيع دائرة أعمالها إما باحتجاز بعض الأرباح أو بالالتجاء إلى الأسواق المالية ، وحمل الشركات على التبرع الاختيارى لأغراض التعليم سيعكس دون شك نوعاً من الشعور بأنها تتحمل نصيباً من المسئولية عن التنمية الشخصية ، فالشركات هى أكبر مستخدم للمواهب المدربة وإنها لتجزى خير الجزاء باستخدامها لهم ، فلماذا لا تتحمل نصيبها من تكاليف هؤلاء الموهوبين ؟

ولربما كان هذا هو ما يجب أن تقوم به .

إلا أن التبرعات الاختيارية هى دائماً عمل جائر كما هو ناقص ومن الممكن أن يكون فى التبرعات الصغيرة إرضاء للضمير وستقع الضريبة على من تربطهم فكرة اجتماعية بالشركة دون غيرهم ، ولكن تخصيص ضريبة للتعليم والتدريب لن تثير مثل هذا الاعتراض . فاذا مافرضت على أساس نسبة مئوية من المرتبات العامة للاداريين والعلماء والعمال المهرة وغير المهرة فإنها تتسق بذلك على وجه التقريب مع الكم والنوع بالنسبة لكل الموظفين وتصل بهذا بين أعمالها واستثمارها السابق للتنمية الشخصية ،

وتكون الشركة قد استعاضت بذلك حصتها التقريبية من تكاليف إحلال ذوى المواهب النامية من العمال المهرة والفنيين والإداريين والعلماء فى وظائفها ، وفى البداية سيظن أن الضريبة قد فرضت على المستهلك فى شكل أسعار أعلى ، ولكن الموهبة الأفضل ستأتى بطريقة أفضل وكفاية أجدى وبالتالى أسعار أرخص . وستصفى الضريبة نفسها بنفسها لأنها تخدم استثماراً مجزياً .

وتشكو الشركات شكاية مرة من أن أسعارها يجب أن تضمن جانباً من المكاسب يكفى للتوسع فى استخدام هؤلاء الموهوبين وتنمية رأس المال البشرى ، وهذا الذى تؤكده باستمرار لعملائها يعنى أن الإنتاج سيطرد وسيكون أكثر كفاية فى المستقبل . وتثبت الأرقام التى يعلنها المكتب القومى أننا ننتظر أرباحاً أوفر من وراء التحسين النوعى للناس وعلى ذلك فإن فرض ضريبة لهذا الغرض سيكون صفقة مجزية .

وقد تكون هناك وسائل أجدى لاطراد الموارد التى تخصص للتنمية الشخصية ففى مجتمع متغير لا نجرؤ على ادعاء أننا جئنا بالفكرة المثلى فى هذا الموضوع لأن الإنسان لم يتقهقر بعد أمام الآلة مثلما أصبحت الآلة تعتمد اعتماداً يائساً على براعة الإنسان ، ومع ذلك فإن اقتصادنا ما زال قائماً على إنتاج الآلات أكثر منه انصباباً على تنمية مواهب الإنسان .

الفصل الثالث

الاقتصاد والفن

« يبدأ هذا الفصل بمحاضرة دعانى إليها فى صيف عام ١٩٥٩ متحف الفن الحديث بنيويورك ومع أنى أهوى التصوير وأحب العمارة والتصميمات المعمارية إلا أنى لا أستطيع أبداً أن أميز على وجه الدقة بين العمل الفنى الكامل والأقل كمالا ، كما يستطيع أكثر أصدقائى، مما جعلنى موضعاً للرثاء الرقيق من نفسى ومن الآخرين ، ولكننى موقن تماماً بأن تحسن الأحوال الإقتصادية يحتاج إلى مزيد من الصلة الوثيقة بين الفنان والحياة الإقتصادية وإن كان ما يتقاضاه هذا التحول سيكون مؤسفاً إن لم يكن عبثاً ضائعاً فى مجتمعنا ومع ذلك فقد تجاسرت على تناول هذا الموضوع غير المألوف بما يقتضيه الشك العلمى المناسب ووجدت كثيراً من العون والتشجيع من زملائى فى قسم الفنون الجميلة بجامعة هارفارد ومدرسة الإنشاء والتصميم ومن هيئة المتحف وإن كان من الحق أن أحمل وحدى نتائج هذا البحث ».

* * *

لبضع سنوات خلت جدت هذه المشكلة بسبب أستاذ مساعد للاقتصاد فى إحدى الجامعات البارزة فى شرق الولايات المتحدة وكان طرازا قادراً

ولامعاً من الدرسين كتب عدداً من البحوث الجيدة منها واحد أو اثنان تميزا بالابتكار والأصالة الفنية والغموض مما يضعها فى أعلى اعتبار من التقدير العلمى ، إلا أنه واجه عوائق مريرة بسبب ولعه بالرسم والموسيقى وقصوره الوبيل فى شرح الرخاء المادى وكان يقطن راضياً مرتاحاً منزلاً صغيراً لا يدفئه غير موقد للفحم ، وقيل أكيداً بعد جدل دار حول ذلك — أن ليس له مستقبل كرجل من رجال الاقتصاد ولذلك لم يظفر بالترقية .

وتصور تلك الحادثة العلاقة التقليدية بين الفن والاقتصاد وهى علاقة غير موجودة فليس للفن مجال فى عالم الاقتصاد الجاد ، وقيم الفنان وإصراره العظيم أو التأكد على سيادة الأهداف الجمالية مما يدمر الاتجاهات المادية الواضحة المستقيمة لرجل الاقتصاد ، ويشعره بالغباء والمادية والجمود وأنه إنسان جاف لا يلقى تقديراً طبياً لاهتمامه بالشئون الدنيوية من معيشة الإنسان بما فيها إعاشة الفنان نفسه ، وليس هذا لأنهما — الفنان ورجل الاقتصاد — فى عالمين لا يلتقيان ، ولكن لأن الأسى فى نفس كل منهما ضد الآخر لا يمكن الإغضاء عنه .

وابتعاد كل منهما عن الآخر وإن كان مما لا يؤسف عليه إلا أنه مؤس فلربما استطاع رجل الاقتصاد أن يقول للفنان شيئاً نافعاً عن محيطه وعما يلهب خياله الفنى ، كما يعوز الفنان مزيد من الصلة القوية بالاقتصاد وبطريق غير مباشر بالسياسة أكثر مما نرى حتى الآن . وسأختم هذا الفصل بمناقشة أن ابتعاد الفنان عن حياتنا الاقتصادية كان إلى حد ما سبباً فى إحدى المشاكل الهامة التى نعانيها فى الوقت الحاضر وهى إضعاف الميزان

الأمريكى للمدفوعات الدولية وما ينجم عنها من العقد التى تعتور مشا كلنا الداخلية والخارجية ، ولكن لابد من كلمة أو كلمتين للايضاح .

فحيث يقتحم الهاوى عالم الفن لا يلبث أن يشعر بوعورة الطريق ، فالفن وليد الجمال ولغته المعبرة . ولكن الفن والطريقة التى نعامل بها روسيا يشتركان فى هذا عادة وهو أن الحقيقة والشعور هما وليدا الذاتية . ومن الواضح أن ما لدى إنسان من الجمال هو ما فقده إنسان آخر فإذا تعرض لذلك ناقد بالنقد فإنه يستحق التوبة والاستغفار بسبب التعرض لفطرة الخالق . ولن أجرؤ على التعرض لتعريف الجمال فلأغراض هذا الفصل لحسن الحظ لن أجدنى فى حاجة إلى من يتفق معى فى أن هذا قد يحدث ولا أجدنى فى حاجة أيضاً إلى حسم هذا الموضوع سواء كان يتصل بفنان معين أو بعمل يتعلق به .

ولا أرانى فى حاجة إلى العودة إلى الفنان فحسب وإنما دائماً إلى هؤلاء الذين يجد تعبيره صدى فى نفوسهم أو بمعنى آخر الجماعة التى تشارك الفنان خياله وتتجاذب معه فإن العمق والرحابة والاستجابة الواعية لخيال الفنان هى أعظم ما يعنينا فى الموضوع وسأتناولها فى بساطة كنوع من الاستجابة الجمالية .

— ٢ —

والخرافة الاقتصادية التى تعلق بالفنان وهى أنه إنسان تجرد من الماديات ولا يبالى بالأجر أو الجزاء المالى خرافة لا تتفق بأية حال مع

الحقيقة. فقد كان المصور أو النحات عند الأغريق والرومان يعفر يديه بالجهد ولا يجنى غير العناء وبالتالى كان الشاعر من ناحية أخرى فى مرتبة العامل والعبد ويتقاضى أجر الصانع وتضاءلت هذه النظرة قليلا بالنسبة للفنان فى بواكير عصر النهضة. ويرى « ارنولد هاوسر » مؤلف « التاريخ الاجتماعى للفن » أنه كان من الناحية الاقتصادية فى مرتبة التاجر الصغير، ومهما يكن فقد حقق المصورون العظام كيانهم المادى فى أواخر القرن الخامس عشر فقد عاش « رافائيل » « وتيتان » حياة رغدة يكفلها دخل وافر وكان ميشيل أنجلو رجلا ثرياً فلم يتقاض أجراً باهظاً عن الصور التى رسمها لكنيسة القديس بطرس فقلت نفقاتها كثيراً كما كان ليونارد دافنشى يتناول مرتباً طيباً.

ومن العسير أن نتخذ قاعدة لذلك فى الأزمنة التالية فالفنانون الهولنديون العظام مروا بأوقات قاسية من جراء إفراطهم فى الإنتاج لسد نفقاتهم، وكان كل من رمبراندت وهالس وفيرمير يعانون كثيراً من العسر المالى، ولتأمين مطالب الحياة اشتغل « فان جوين » ببيع زهور التيوليب، كما اشتغل « هوبما » صرافاً وكان « جان ستين » صاحب حانة وفضل « فان جوخ » و« جوجان » و« تولوز لوتريك » فى الأزمنة الحديثة حياة التشرد استنكاراً منهم لأساليب التمدين البورجوازى. ولكن تاريخ التصوير الغربى من أيام « روبنز » حتى « بيكاسو » ينطوى على الكثيرين ممن جمعوا ثروات طائلة ومثل ذلك كان بالنسبة للأمريكيين، فقد كان « كوبلى » من الثراء حتى إنه كان يشتغل فى المضاربة العقارية كما كان يمتلك معظم منطقة « بيكون هل »، وعاش « ونسلوهومر » حياة رغدة ولقى الفنانون التجريديون من التقدير والجزاء أكثر مما

كانوا يأملون . فليس هناك ما يوحى إذن بأن الثروة كانت أو أنها عصية على الفنان .

أما الذى لاشك فيه فهو أن الحياة الآمنة المطمئنة تذكى الهواية الفنية ، فمنذ أثينا وخلال عصر النهضة بأمرائه وأثريائه وبابواته (جمع بابا) وهيلمان البورجوازية الهولندية فى القرن السابع عشر والرعاية الملكية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر حتى هواة جمع الصور ونقادها أخيراً ، كان الثراء صنو الفن الذى لا يحيد ولربما لم تكن دائماً مثار اهتمامه إلا أنها إن لم تكن دعامة قوية فإنها كانت بلامراء معواناً له . ولقد يقهر الفنانَ الجوعُ والحرمان . ولقد يشحذ الألم مشاعره ويستثيرها ولكن روادهليسوا كذلك فانهم لا يأبهون للفن إلا بعد أن تمتلىء بطونهم ، ولقد يبدو هذا الإصرار على توكيد الجانب المادى موضع شك ، فمن العسير — باستثناء حالات فردية — مناقشة أن الاستجابة الفنية لدى الفقراء والمعدمين تعدل فى قوتها الاستجابة لفنيةلدى الأثرياء وميسورى الحال . وأزهرعصورالفن ما كانت فى حالات الجدة والرخاء المادى فى ظل حكم مستقر وقلما يكون الخلق والإبداع لدى إنسان مثقل بالأعباء أو طبقة كادحة بينما تلهب الجدة والفراغ وحتى ذلك الفراغ المضيع خيال الفنان وإبداعه .

— ٣ —

ومن اليسير إخضاع تلك المسائل للفروض البسيطة ، فالمعروف أن للمال أو الرغبة فى الدخل المالى سحرها الملموس على اتجاهات الفرد وأهوائه ، فإذا ماخف أثر ذلك فإن فرصة الإبداع الفنى والاهتمامات الثقافية الفكرية لا ترتبط حينئذ ارتباطاً حاسماً بالدخل فإن العمل — كما يرى « الفريد

مارشال » — الذى يقيم به الإنسان أوده ليشغل تفكيره إلى أقصى حد من تلك الساعات التى يكون فيها عقله فى أحسن حالاته « فإن كان يعيش هو وأسرته تحت تهديد الجوع أو البرد أو التشرد فإن مشاعله حينذاك تحتل كل تفكيره ، فاذا ماتخلصنا من الحرمان البدنى وبما يماثله من أنواع الحرمان فان ذلك مما يضعف من الدور الذى يلعبه الحافز المالى ويدع للتأثيرات الأخرى سبيلا إلى البروز فى طراز الحياة .

والخوف من الحرمان كالحرمان ذاته يلعب نفس الدور ، إلا أن الخوف لا يرتبط بحاجيات البدن فحسب فعلى حسب مستويات الناس نرى أن أى تهديد خطير لمستوى معيشتهم الكريم يسبب لهم ازعاجا حاداً وأنهم ليذودون بحمية وصرامة عما ألفوه من رخاء وبالتالى إذا هيىء للناس أنهم يعيشون تحت تهديد انخفاض مستوى الدخل أو أنهم يترددون فى أغوار لجة داكنة من هذا الظن فأن حوافزهم المالية تقوى وتشتد . فإن الآلهة لقذف بالمتهور إلى هلاكه ولن ترضى بغير الحذر الدائم ، وبالعكس يمكن لمن قرعيناً أن يجوب بأفكاره آفاقاً أخرى . وما زالت الصورة الفضلى لمجتمع غير اشتراكى حتى الوقت الحاضر قلقة حائرة ، فالعديد من الباعة هم الذين أقاموا السوق المشتركة للانتاج وفي هذا السوق تتحرك الأسعار بحرية تبعاً لذوق المستهلك أو حاجته أو وفقاً للتغير فى تكاليف الإنتاج . والدخول سواء كانت فى شكل أرباح أو مرتبات أو أجور غير مأمونة بطبيعتها على الأقل . فالأرباح المجزية مثلاً تجذب إليها شركاء جدداً وهذا متاح لكل عمل سهل رخيص النفقات . والزيادة الناتجة فى العرض هى خفض الأسعار وبالتالى تقليل الأرباح ، ومن اليسير أن تحول الاستجابه غير المنسقة للأعداد الجديدة من المشتركين دون الربح . ويحول دون الربح أيضاً

التحول غير المتوقع والغامض فى أذواق المستهلك أو التغيرات الفنية المفاجئة التى تقلل من تكاليف الإنتاج تقليلا واضحاً لدى منتج آخر . وتأثر الأجور والمرتبات بتقلب الدخل الذى تتزود منه .

وعلينا أن ندرك أن غموض هذا الطراز ليس جوهرياً فى ذاته بقدر ما هو فاعلى أو مؤثر فانه هو الذى دهم الـكسالى وصان المنتجين ، أو كما تقول تماما إن الطريقة قد وضعت لتجعل الحافز المالى سائداً قدر المستطاع وجردته من الذوق الفنى لأنها وضعت كل همها فى الحصول على المال وساقت المشتركين إلى الفشل الذريع المتوقع .

والزراعة أقرب طريق إلى هذا النموذج من التنافس فى الاقتصاد الأمريكى حيث نرى عدداً كبيراً من صغار المنتجين نسبياً يعدون السوق المشتركة تحت ظروف قد تميزت فى الماضى على الاقل بهذا القلق الواضح . ففى هذه الصناعة اختفت الأرباح فجأة وبشكل مدمر بالنسبة لـكثير من المشتركين ودون أن نتمهل لنبحث السبب ، توقعنا أن يكون الفلاح المصرى الخبير متخلفاً عن الاستجابة للنواحى الجمالية فنحن لا يدهشنا أن يكون للمحامى الناجح اهتمام بالتصوير ولـكن يدهشنا أن يكون مثل هذا الاهتمام للفلاح الذى يقوم بتربية الماشية مثلا فهو إنسان لا يستثيره سوى نتيجة الحائط وصحيفة السبت المسائية ، وكلما تضاعف دخله فلربما تجلى اهتمامه فى اقتناء سيارة أفخم أو حتى طائرة . وأعظم ما يتجلى اهتمامه بإعداد البضائع للمستهلك ولا ننتظر منه أن يبدى اهتماماً جدياً بالتصوير أو النحت أو حتى عمارة بيته . فللفلاح ما يشغله من المهام الـكثيرة ولـكنه لا يمكن أن يكون

طائشاً أو شاذاً وهو ليس ناعم البال كالمحامى فإن مشاغله المالية تشغل حياته حقاً .

وهى لرجل الأعمال البسيط ، كالعميل والبائع والمقاول والتاجر الصغير ، كما هى للفلاح ، فإن دخله بالقياس إلى الماضى يعد طيباً ولكنه ما زال ذلك الإنسان العجول وتبعاً لذلك فليس الفن مما خلق له « فجورج بابت » ظل يحلم بشىء أكثر سحراً ولكنه أدرك أخيراً أنه يجب أن يركز اهتمامه فى كسب عيشه بادارة الأعمال العقارية . فالاقتصاد الذى يقوم على التنافس مازال يشترط تلك الحاجة ، وما دام اقتصادنا يقوم على أكتاف المنتج الصغير المضطرب فان ذلك يحملنا على مزيد من الشرح لتحول الفن عن الحياة الإقتصادية ، فإذا ما تملك الاضطراب مثل هذا المجتمع فان الاستجابة الفنية تكون قوية فحسب حين تجد نوعاً من الحماية حيال سيطرة الحافز الإقتصادى . إلا أن المجتمع الاقتصادى الحديث لا يمتثل لهذا النموذج من الاقتصاد القائم على التنافس فإن مركز الرأسمالية الحديثة هو الشركة الكبرى وهى مؤسسة أعدت لتمد أعداداً كبيرة من الناس وتهىء لهم دخولا كبيرة ثابتة ، فمن خلال التحكم فى أسعارها ومواردها وعن طريق تنويع الإنتاج والبحث الذى يؤكد أن الابتكار الفنى مما يقيها الغفلة ويضبط أذواق المستهلكين تستطيع الشركة الحديثة أن تحدد مصادر الاضطراب الذى يلم بالمؤسسة المتنافسة أو تقضى عليها تماماً ، ومن ثم كانت المكاسب مواتية إلى حد كبير . ولم تفشل أية مؤسسة من المؤسسات الصناعية المائة الكبرى بالولايات المتحدة فى أن تحقق أرباحاً خلال عام ١٩٥٧ مع أنه عام شهد نوعاً من الكساد الخفيف .

ولذلك فإن الإداريين فى الشركات الحديثة يتمتعون بدخل ثابت واستقرار إقتصادى بالقياس إلى أساتذة الجامعة ، فالفشل الذى يلاقيه الفرد فى مهنة من المهن وليس النجاح هو المحك لما تضفيه مهنة من المهن على صاحبها من أمن واستقرار . فالوظيفة الحكومية عمل آمن محمود العاقبة يحتجب فيها النقص وراء الأبهة وضآلة العمل وما تقتضيه من المظاهر اللائقة ، ومن هذا القبيل وظائف السفارة فى بلاد خالية من المشاكل ، وأعمال السكرتارية فى إدارات الشئون العامة وعضوية لجنة المواصلات فى الحكومة الفيدرالية مثلاً وكلها وظائف متاحة للجميع . وفى الكليات والجامعات لا يستثير إعداد مشروعات البحوث لتقدم العلم السلوكى أو العلاقات الدولية ، أو تعيين العرفاء لتنظيم العلاقات بالآباء أو الزوجات أو الكنائس الإقليمية أو لعضوية لجان المناهج وما إلى ذلك من الأعمال الأخرى غير العطف والإشفاق . أما الشركات الحديثة فإنها غنية إلى حد يثير الغرابة بالتنظيمات التى تقيل من عثرة الإنسان إذا ما كبا فى منتصف الطريق فليس هناك هذا التنوع العريض فى المناصب فحسب كمناصب العلاقات العامة، والعلاقات الداخلية ، والاتصال بالجماعات الخيرية والإشراف على الحفلات ، وكلها مناصب فخمة فى متناول الجميع ، ولكن هناك أيضاً هذا الوعى الذى لا يوجد فى الجامعات بينما يوجد فى أغلب المؤسسات حيث يرفض الجميع بضراوة أن يكون العمل نوعاً من الرفاهية أو الراحة .

وبالتالى فإن الحياة الكريمة المجزية التى تتيحها الشركات الحديثة لموظفيها بالقياس إلى غيرهم يجب أن تكون حفية بالفن ، ولخير الاقتصاد

يجب أن تكون كذلك . ومهما يكن فإن خرافة القلق والاضطراب والجمود التى تنسب للأعمال المتنافسة قد تجاوزت الحقيقة . فمازال العمل فى حاجة إلى تركيز كامل للطاقة البشرية ، وأى شىء دون ذلك يعتبر خارجاً على ماهو مألوف . ومازال الناس يعاملون وفقاً لالتزاماتهم أو تظاهرهم بالتزام ما نحو أداة قيادية قاسية مطلوبة لا هراء فيها ولا جدل فيما لا يُغنى ، وافتراض أن حاجة مثل هذا العمل إلى الاهتمامات الفنية والثقافية مازالت ثانوية أو شيئاً إضافياً أو أن السبل لرعايتها هى استثناء . وهناك فعلاً استثناءات بارزة إلا أنها بعيدة عن التعميم ، ففى بداية القرن اتخذ « تشارلس لانج فريير » من عمله فى صناعة عربات السكك الحديدية مطية لشغفه بالعزف والفن الشرقى وكان أصدقاؤه من رجال الصناعة يشكون من أنه يفضل الحديث فى أسعار الصور عن الحديث فى أسعار الصلب ومثل هذا الحديث يمكن أن يبقى محوراً للسؤال عن قدرته كرجل من رجال الأعمال .

وإننا لنحس حقاً بهذا التخلف المقصود ، فمنذ جيلين مضيا وبمساعدة دوفين Duveen واهتمامه العظيم برهن أمراء اليابان العظام بما كان لديهم من مجموعات فنية رائعة على أنهم لم يكونوا من الباحثين عن المال فحسب ، وهذه الملايين القليلة من الدولارات التى استثمرت فى مجموعات « بوتشيلى » « وفرا انجيلكو » « ورمبراندت » « وفيرمير » قد أظهرت كما لم يظهر أى شىء آخر أن المستثمر قد تميز بما تميزت به الأرستقراطية المرفهة الفارغة منذ عصر النهضة فصاعداً ، أما الآن فإن رجل الأعمال قد ينشد البرهان

على عكس ذلك فإنه فى تعصبه لعمله يبدو متميزاً بشكل ما فيه بانكبابه المرير عليه .

أما فن التصوير عند السوفييت فإنه يؤكد فى واقعه الشيوعى أن الفن فى خدمة الاقتصاد بما يصور من عذارى قويات يشرفن على حقول القمح المتداعى تحت أشعة الشمس . فإن هدفه أن يساعد بالتغيير الفنى على إعداد البلاد لأعظم الإنتاج والحصول على أعظم قدر ثابت من المحصول ، ومن الغريب أن هؤلاء الذين يتمسكون بالأولوية التامة للحافز الاقتصادى فى حياتنا الاقتصادية يقتربون كثيراً من هذه النقطة فمن المحتمل أنهم يتمسكون أيضاً بهذه الحقيقة البارزة . ويدافعون عنها فى شىء من السخط بأنها إرادة الجماهير . وقد يكونون أيضاً فى شك مما يرهق الخيال بالسخف ، فالتصوير المتقن الذى يصوره النقاد الشيوعيون الرسميون بأنه انحطاط بورجوازى ويمرغونه فى الوحل يلعنه الأمريكى المحافظ لأنه من وحى الشيوعيين . وكلاهما كما يحتمل أن نظن يجد من الصعوبة أن يوائم مثل هذا الفن مع الحوافز المالية السائدة . ومع أن الحاجة إلى الدفاع عنه لم تعد قائمة إلا أن العادة مازالت ثابتة .

— ٥ —

وبقدر ما تتمسك المؤسسة التجارية بأولوية وقداسة الأهداف الفنية فإنها تحرج الفنان وتبعده وتقلل من شأن الاستجابة الجمالية المألوفة فى مجتمع يتمتع بحياة كريمة آمنة ، وهناك ثلاثة جوانب يبدو فيها هذا الطراز من طرز المجتمع المتنافس كما لو كان متناقضاً مع الفنان ، وأولها له أهميته

الخاصة للمهندس المعمارى حين يحرمه اتجاهه من السيطرة على الجانب الجمالى لبيئته ، ففى هذا الطراز المتنافس يكون دور الحكومة ضئيلاً بمعنى أنه مجتمع اقتصادى يدير نفسه بنفسه حيث لا يكون لأحسن نوع من أنواع الحكومات فى شئونه الاقتصادية غير القليل ، ووجد هذا الاقتصاد الحديث القائم على المساهمة أن من الأوفق له أن يجرى على نفس القاعدة حيث تكون محمودة العاقبة لأنها تبعد السلطة العامة عن التدخل لممارسة سلطة خاصة لا يرحب بها أحد . ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية كان هناك رد فعل قوى للقيود التى فرضت خلال الحرب . ولمن قاموا بتنفيذها ضد أى اتجاه يبدو منه تحبيذ للتوجيه المركزى للنشاط الاقتصادى حتى غدت كلمة التخطيط كلمة لعينة ولم تعد الكفاية وحدها مبرراً لانطلاق النشاط الاقتصادى فحسب لأن هذا الانطلاق قد غدا فضيلة يبررها الخلق القديم .

ففى كمبردج [١] بولاية ماساشوستس وعلى مقربة نهر شارل توجد بنايتان هما قاعة الاجتماعات والكنيسة وهما من أجمل المبانى . إلا ن أحداً لا يستطيع أن يدرك ذلك فعلى جانب منهما يوجد بيت من طابق واحد على الطراز النورمندى القديم وعلى الجانب الآخر بيت من اللبن المتآكل القديم من أربعة أدوار وأمامهما موقف تملأه تشكيلة من العربات القذرة المتباينة الألوان ومن ورائهما مصنع للحلوى ومستودع للأوراق الحرارية

---

(١) كمبردج مدينة جامعية صغيرة قائمة على نهر شارل قريباً من بوسطن عاصمة ولاية ماساشوستس وبها جامعة هارفارد أعرق جامعات أمريكا وقد أنشأها الرواد الأوائل على غرار جامعة كمبردج الإنجليزية . (المترجم) .

ولوحة كبيرة للاعلان تحمل إعلانات لخمسة وسبعين معلناً ، وينفرج الطريق أمامهما عن وكالات بيع الأغذية المجففة ومحطات البنزين ، فإذا تصورنا ميدان سان مارك[١] وقد أحاطت به محطات البنزين المتعددة وحوانيت اللب التسالى وفى نهايته متجر كتب فإن هذا كفيل بأن يدمر روعة كنيسة سان مارك نفسها على مافيها من بهاء وجمال . وتجد هذه الأنماط المضحكة دفاعاً حاراً فى مذهبية التنافس لهذا النتاج فهو النتاج الطبيعى المقدر للمنافسة التجارية ولا يأمن من يتعرض لهذا النتاج الاتهام بأنه فنان نظرى لم يدرك تماماً المبادىء التى بلغت بهذه الطريقة ما بلغتها من نجاح .

أما الجانب الثانى فهى الإعلان وليس الإعلان ككل ولكن بعض جوانبه الهامة . فحيث نرى الناس لا تدفعهم الحاجة نجد من يتخذ من إثارة الرغبة سبيلاً إلى ذلك . وجوهر الإثارة هو « جذب الانتباه » وهذا مايضطلع به الإعلان فى صورة واحدة من صور النجاح حين يدع للصورة الجميلة أن تجذب إليها أبصارنا وأسماعنا ليبرز بعد ذلك هذا التباين الذى ندعوه عملياً بالتضارب أو التضاد . ولهذا فإن الإعلان لا يستطيع أن يتسق مع محيطه . وأحسن إعلان هو ما لا يرى وأنجح تجارة هى ما لا يصحبها طبل أو زمر . والإعلان الذى يثير جدلاً لا يكون مؤثراً إلا أننا لا نستطيع مناقشة أن الاختيار المتضارب فضلة الجمال . وفى الحديث عن الاتجاهات السائدة للحافز المالى فإننى أتحدث عن القوة التى تحول بين الصناعة والفنان ، فالإعلان وهو أقرب ما يكون إلى التعبير الجمالى له نفس المفعول ولكن

---

(١) ميدان القديس مرقس فى مدينة البندقية حيث تقوم كنيسة القديس مرقس . (المترجم)

بصورة عكسية فانه يحول بين الفنان والصناعة ، وقد يكون أعظم العوامل أثراً فى حسم سلبية الفنان نحو الحياة الإقتصادية .

وأما الجانب الثالث فهو هذا الصراع الذى تجد فيه المؤسسة الصناعية الحديثة نفسها تحت أحسن الظروف تائهة بين متابعة المبيعات ومتابعة الإجادة ، ومن الناس من يرى أن أرفع الأذواق هو الذوق الشعبى فإنه إنعكاس للاستجابة الجمالية على أوسع نطاق ، ومن الواضح أن المؤسسة الإقتصادية العادية يجب أن تنتج وفقاً لحاجة الأسواق الشعبية ، ومن المحتمل بالنسبة لمستويات الفنان أن يكون هناك تفضيل مطلق للتصميمات العادية التافهة المألوفة وإن كنا لا نستطيع لأول وهلة أن نلوم رجل الأعمال على ذلك ، فحينما ادخر البلاط الفرنسى وبعض المثقفين من الفرنسيين الصناع المهرة للسوق الخاصة كان مستوى الإجادة الفنية رفيعاً وكان من الممكن أن يهبط هذا المستوى فيما لو كانت فرنسا دولة ديمقراطية يعمها الرخاء .

ومهما يكن فإنه ليبدو من المحتمل أن التصميم الصناعى الحديث قد أعد نفسه للحصول على أسوإ صورة للمساومة الرديئة ، فالذوق ليس شيئاً جامداً والتغيير لا يبدأ إلا من جانب هؤلاء الذى تربطهم بالفنان صلة وثيقة ممن يتميزون بالإحساس الفنى المرهف ، فالصناعة وقد أغضت عن الفنان بينما ركزت كل اهتمامها على الأذواق الشعبية وفقاً لما انتهت إليه أبحاثها عن حاجة السوق قد فشلت تباعاً فى تبين ذلك الارتقاء فى الأذواق فشلاً جعل تصميماتها على هذا المستوى من الإسفاف والتفاهة ، وبدلاً من أن تمضى قدماً تتخلف دوماً .

وقد تعثر السير نحو تصميمات أحسن من جراء الإهمال المتعمد . وحتى نعوض الإفراط المستمر فى الإنتاج وماله من تأثير رادع على الحاجة ، فإن الكثير منها مما يتحتم إعادة تصميمه بانتظام ، وهذه التغييرات المتتالية لا يمكن إلا أن تكون ذات أثر سيء على المنابع الفنية للصناعة ، ففى الماضى عاشت التصميمات الجيدة طويلاً وهذا كما نعتقد كان لسبب واحد وهو أنها جيدة .

— ٦ —

وفى مجتمع متباين القسمات كمجتمعنا لا تستطيع النظم الاقتصادية أن تلم بكل مناحى الحياة ، فمازال المجال واسعاً للتنمية فى شتى الجوانب وتبعاً لذلك فإن غلبة الحافز الاقتصادى وماينجم عنه من مشاكل المنافسة ليست شديدة الخطورة على الفنان أو على الاستجابة للفن وهى دون شك أقل خطورة منها فى البلاد الشيوعية .

وقد رأينا بالإضافة إلى ذلك اللون من العداء الذى يتمثل فى اهتمام الشركة الكبرى الحديثة اهتماماً كاملاً أكيداً بالمسائل المالية الوضيعة لايقوم على الحاجة قدر مايقوم على تواتر الأسطورة التى ليست فوق مستوى التجريح والتى تؤدى إلى الضعف دون جدال . ومن بين الفنانين نجد أن المهندس المعمارى هو أكثرهم تأثراً بالاستجابة الفنية فإن تجاهل هذه الاستجابة الفنية فى ميدان العمارة يؤدى إلى وجود هذا العدد الضخم من المبانى الكئيبة التى تشدنا إليها بلا منازع لآماد طويلة ، وإنها لمأساة كبرى أن يشوه الزجاج المعشق والإطارات المعدنية القديمة التى يستعرضها مهندسونا

الأجلاء فى عمائرهم منذ عهد طويل جمال مانهاتن [1] ، إلا أن هناك بعض الاستثناءات الرائعة بالرغم من أن أغلبها جاء عرضاً أو لأن الحافز المالى لم يكن غالباً . فعمائر روكفلر قد بنتها أسرة ثرية معروفة تميزت بالمشاعر الفنية البارزة وجعلت منها تحفة فنية رائعة ، وفى مبنى الأمم المتحدة لم يكن للاعتبارات التجارية أثر ما ، وكان المهندسون أحراراً فى أن يبدعوا فى إقامته ما شاء لهم الإبداع وقامت ببناء عمارة الإخوة ليفر شركة برأسها مهندس لم يكن يلتزم دائماً الاعتبارات التجارية ، كما تمثل عمارة سيجرام الطابع المتميز الذى نحتاجه فى إنشاء معمل للتقطير قبل أن يتمثل الحاجة إلى الربح العاجل . ويعود الفضل فى ذلك إلى أحساس إبنة غنية بالمواهب الفنية كان لها دور كبير فى العمل هى «مايس فان در روه» . وهناك أمثلة أخرى كثيرة كمبنى إدارة شركة جنرال موتورز ومبنى إدارة كونيكتكت جنرال الجديد حيث تركت الشركات فى إطار عملها التجارى المجال حراً للابداع الفنى .

وليس الفنان من يعانى من تحول الفن عن الاقتصاد ولكن العكس هو الصحيح . فإن هذا التحول خطير على الاقتصاد بل هو أكثر خطورة مما نظن . ففى السنوات الأخيرة كان هناك هبوط حاد فى معدل الصادرات الأمريكية يقابله زيادة مفجعة فى استيراد البضائع الأوربية ، والنتيجة الأولى لذلك هى أن ميزان المدفوعات الأمريكى قد غدا ضعيفاً لأول مرة فى تاريخنا الحديث باستثناء الفترة مابين عامى ١٩٣٢ —

---

(١) مانهاتن أنخم أحياء نيويورك .

١٩٣٣ والمشكلة فى إطارها الكبير هى مشكلة التكلفة لعدد هائل من بضائعنا نثمنها لأنفسنا دون اعتبار للأسواق العالمية بما فيها أسواقنا نفسها ، ولكنها فى الوقت نفسه وإلى حد غير قليل مشكلة التصميم ، فقد فشلت بضائعنا فى اللحاق بالمستويات الأوربية كما فشلت فى تحقيق أذواقنا الخاصة . وقد لاحظ « إدوارد دارل ستون » منذ وقت ليس ببعيد أن الشعب الأمريكى يستطيع إنتاج أى شىء إلا الجمال والذوق ، ولكنه فى الواقع يجدُّ وراءهما بشىء من المثابرة والتصميم وعثر عليهما فى المنتجات الإيطالية والفرنسية والألمانية والسويدية أكثر مما عثر عليهما فى منتجاته . والسيارات أعم مثل وأبرزه على ذلك ، وإن كنا فى عدد كبير من المنتجات الأخرى كالأثاث والزجاج والخزف والجلود والصناعات المعدنية نرى أن الأمريكيين قد تحولوا إلى الأذواق الأجنبية كلما تحول الأجانب عن الإنتاج الإمريكى ، وكما أشار ستون أيضاً نجد أن الأمريكيين فى تطلعهم إلى الذوق والجمال قد أخذوا يتحولون عن الدندشة المهوشة والزخرف الفاقع . ويرجع الفضل فى ذلك إلى عدد من السياح الذين يفدون سنوياً كما يعود إليهم أيضاً بعض الفضل فى موازنة المدفوعات .

إلا أن فشلنا لم يكن ذريعاً فهناك الكثير من التصميمات الأمريكية الجيدة . وغدت الصناعة فى كثير من الميادين على صلة بالفنان وأبدت قدرتها على الاستجابة الفنية القوية ولكن من الواضح أن الوضع بالنسبة لعدد هائل من الحالات ليس كذلك حيث يسود الاعتقاد بأن الصناعة شىء بعيد عن الفن أو على أحسن الفروض يجب أن يظل الإبداع الفنى ثانوياً بالنسبة للذوق الشعبى . وهنا نجد أن الزبون يستجيب إلى الصلة الوثيقة بين

الفنان والصناعة الأوربية أو بين الصناعة الأوربية والفنان وما ينجم عن ذلك من إنتاج رفيع . فقد أصبح بديهياً أن التصميم هو الدعامة الأولى للنوع وهي دعامة تطرد أهميتها ويجب أن تظل فى اطراد . فقد يكتفى المجتمع الفقير بالمتانة ولكن المجتمع الفنى يجب أن يجمع إلى المتانة الذوق والجمال ، ففى المراحل الأولى للتصنيع يكون الصانع فى غاية الأهمية وما أن تتقدم الصناعة حتى يدع الصانع مكانه للفنان . والإنسان العملى الذى يعتقد أن هذا لا يعدو أن يكون هراءً جميلاً سيدرك كما أدرك منتجو السيارات تلك الحقيقة ولكن بعد أن دفعوا الثمن غالياً .

ولقد نرى حقاً أن التعليم يقتضى كثيراً من الألم كما نحس بلون من الغضب وفقدان الصبر لرفض العديد من منتجاتنا والإقبال على المنتجات الأوربية التى تقوم مقامها. وإنه لشيء يقع وزره على المتغطرسين والأدعياء من المثقفين فاذا ترك الأمريكى الأمين لحاله فانه سيبقى أميناً على ما يحب فنحن ممن يتشيع للأشياء الجميلة ، تجذبنا القضب النحاسية الصفراء اللامعة كما تجذبنا مرآة العربة ونحتفى بالدورق الجميل وذلك لروحنا السمح وخلقنا الرضى . والسمة التى يتميز بها الأمريكى هى أنه يرتفع وخاصة فى تقديره للشيء فوق أى اعتبار مهما علا من الجمال ، وليس هناك مستقبل كبير لمثل هذا التحفظ الثقافى وإن كان النقد الذاتى سيجعلنا حتماً فى حال أحسن .

— ٧ —

وبالاختصار فإن الحافز النقدى فى مجتمع بسيط يكون من القوة

بشكل يفوق التصور ، ومن المحتمل بل ومن الواجب أن يتجه لإقامة الأود حين يعز ذلك ، بل إنه ليغدو صاحب السلطان الأول فى هـذا المجتمع ولـكن حيث تتوفر السعادة والأمن والمعيشة الطيبة فان الإنسان ليجد من الوقت والفـكر والعاطفة ما يصرفه إلى أشياء أخرى ، وعلى النظم الاقتصادية أن تستجيب بالتالى لمثل هذا الأمر ، فإن نظمنا الاقتصادية ما زالت بتأثير الخرافة القديمة أقل استجابة مما يجب أن تـكون لذلك ومازلنا محجمين زيادة على ذلك عن قبول التنظيمات الاجتماعية والسياسية وبالذات التخطيط الذى يؤدى إلى التوافق بين الفنان والبيئة . فنحن نقاوم كل ما يمس الجانب الجمالى إذا ما أدى ذلك إلى زيادة المبيعات ويمـكن لهؤلاء الذين يسيئون إلى مشاعرنا أو يشوهون جمال بلادنا لأغراض تجارية أن ينتحلوا باستمرار أنهم يخدمون الهدف الرئيسى لمجتمعنا .

والإبداع الفنى لا يدخل إلى حياتنا الاقتصادية وإنما يتسلل إليها ، وما زال خبير الأسواق هو الذى يعرض ، دون الفنان الصدق الفنى . ومثل هذا الخبير فى جماعة رفيعة الذوق لن يقودها إلا إلى كل بائد مهجور .

وضروب العلاج ليست بسيطة والاتجاهات النقدية لا لبس فيها ، وليس الاعتراف بها أو متابعتها شيئاً معقداً وليس إبداع الجمال إلا مسألة بسيطة . إلا أن الأهداف مازالت غامضة ومن المتوقع أن تشارك مشاركة دائبة فى معركة حاميـة حول طبيعة الجمال ، وعلينا أن ندرك الآن أن المجتمع إذا ما اضطلع بحماية المستويات الفنية لبيئته فان ذلك سيثير جدلاً حاداً يمتد كذلك إلى الرغبة فى جعل مسائل البيع والشراء ثانوية بالنسبة

للأهداف الجمالية وعلى رجل الأعمال الأمريكي الذي واءم نفسه مع العلم من خلال مواءمة نفسه بظروف القرن العشرين أن يوائم نفسه أيضاً مع الفنان فقد أصبح الوعي الفني من الضرورة القصوى بمكان كالمهارة الهندسية بالنسبة للمنتج الحالي للبضائع الاستهلاكية بل إنه أكثر حاجة إليها الآن من أي وقت مضى . أما كيف يضطلع بهذا الوعي الفني فلهذا قصة أخرى ولكن علينا في البداية أن ننضوَ عنا أثواب تلك الخرافة السائدة فلم يعد لها مكان بعد .

الفصل الرابع

التضخم وماذا يحمل

في خلال السنتين أو الثلاث سنوات الأخيرة كان هناك اتفاق عام ظل يتزايد باستمرار حول الأسباب التي تؤدي إلى التضخم . ولهذا السبب كان الأمل عظيماً في أن يقوم العلاج على أساس منطقي ، وأصبح من الممكن عملياً تجنب الهراء السخيف . ولكن العقدة المضنية في المشكلة تبقى قائمة .

ومن العسير شرح هذه العقدة المضنية العسيرة . وحيث يعسر على الكلمات إزالة الغموض فإن الإيجاز حينئذ أعظم وأجل في عرض الحقيقة. وموضوع هذا الفصل هو عرض أهم جوانب المشكلة وطرق علاجها في أبعد مدى من الإيجاز .

— ٢ —

إن أول شرط اقتصادي وسياسي يتحكم في كل المناقشات الجدية الخاصة باستقرار الأسعار ، هي الأهمية البالغة للعمالة الكاملة . فالفرصة السانحة للعمل وما يترتب عليه من دخل هو ما يسود تفكيرنا عن السياسة الاقتصادية . وهذا واضح تماماً ، فمن النادر أن تعد البطالة ظاهرة مطلوبة أو سليمة إلا لأولئك الذين لم يعانوها . وما زالت بالنسبة لنا تعاسة كبرى يعانيها في مجتمعنا عدد كبير، وسيأتي اليوم الذي نزيل فيه

تلك السَّوْءَات الاقتصادية وتتخلص من الشوائب الإجتماعية الناجمة عن البطالة الإجبارية . وهذا ما يجعل الاقتصاد أيسر تنظيما إلا أننا لم نقم بذلك حتى الآن .

وما زالت العمالة الكاملة على أعظم جانب من الأهمية للنمو الاقتصادى . كما أن الإنتاج الكبير والقدرة على التداول مما يشجع على الاستثمار ، والإنتاج الصغير وقلة التداول يقضيان على الرغبة فى الاستثمار والاستثمار هو الذى يغذى النمو .

ونستخلص من هذا أن أية سياسة مرسومة لتحقيق ثبات الأسعار لن تكون لديها فرصة النجاح الدائم إذا ما اعتمدت بطريق مباشر أو غير مباشر على البطالة المستمرة الحادة ، وكثيراً ما ينال هؤلاء الذين يحبذون تلك السياسة بعض الاستحسان لتأصل نظرتهم التقليدية القديمة وللشجاعة التى يبدونها فى فرض التعاسة على الآخرين . وهذا ما لا يصح أن يختلط فى الأذهان بالحقيقة الناصعة .

ومرة أخرى يجب أن نكون واضحين فى إثبات أن الأسعار عند العمالة الكاملة فى الاقتصاد الأمريكى أو على الأخص فى قطاع معين منه ليست ثابتة . ولا يوجد الخطأ إلا فى وضع الأساليب الاقتصادية كما تتمثل فى الآلات أو فى طبيعة وشخصية الحاكم . وهناك مثل هذا الخطأ فى أسلوبنا الاقتصادى ولم نعمل على التخلص من هذا الخطأ سواء بادعاء أنه خطأ غير قائم أو التنكر البالغ لهؤلاء الذين يثيرونه .

ففى هذا القطاع من الاقتصاد حيث تكون المؤسسة ضخمة وتكون سيطرة رجالها على الأسعار مجزية ، تسنح الفرصة للارتفاع الاختيارى الكبير فى الأسعار حيث يكون الطلب مواتياً . والطلب الذى يواتى

العمالة الكاملة يواتى أيضاً هذا الارتفاع فى الأسعار ، وهذا فضلاً عن وجود حافز قوى لاستغلال التسعيرة الاختيارية عندما ترتفع الأجور، وحينئذ يمكن للتكاليف التى يقتضيها استقرار الأجور أن تشمل الجماهير حيث يغطى ارتفاع الأسعار فى العادة ارتفاع الأجور ، فطالما كان الطلب مساوياً أو قريباً من مستويات العمالة الكاملة ، فعلينا أن نتوقع أن الأسعار والأجور فى الصناعات التى تديرها مؤسسات أو نقابات قوية ، يؤثر كل منها فى الآخر تأثيراً إيجابياً مطرداً ويمكن أن يستمر هذا الاطراد فى بعض الصناعات حتى فى أقصى حالات التداول المنخفض . وكان ارتفاع أسعار الصلب ومنتجاته والآلات الميكانيكية والسيارات والورق والمطاط والطباق والخمور هو أعظم ارتفاع وأهمه فى أسعار التجارة خلال السنوات الأخيرة ، وهى صناعات تديرها بوجه عام مؤسسات قليلة العدد هى التى تدعوها بالصناعات المركزة . بينما لم تؤثر صناعة المنسوجات وما يقابلها وبالأخص إنتاج الأغذية إلا تأثيراً طفيفاً لا يذكر على تضخم الأسعار ، فإذا كانت الأسعار قد ثبتت فى السنوات الأخيرة فان ذلك لا يعود إلى الثبات فى الصناعات المركزة بقدر ما يعود إلى استبعاد عوامل الهبوط فى الصناعات المتنافسة أو غير المركزة . ويلعب الصلب دوراً هاماً فى تضخم الأسعار الحديث، فان أسعاره إذا كانت قد سارت فى نفس المجرى الذى سارت فيه أسعار الصناعات الأخرى فان الإجمالى العام للسعر لم يكن ليزيد عن ٤٠ ٪ عنه فى الحلقة السابقة وأقل من ٥٢ ٪ منذ عام ١٩٥٣ بينما لم يكن ارتفاع البضائع الجاهزة يتجاوز عن ٢٣ ٪ إلى ٣٨ ٪ باطراد .

— ٣ —

وعلاج التضخم كما شرحناه يتسم بشيء من العناد في التشخيص . والطرق الرئيسية للعمل سواء في العلاج أو في غيره هي كما يأتي :

١ — لاتعمل شيئاً .
٢ — اعتمد على ما يسمى بالمقاييس النقدية أو المالية أو عليهما معاً .
٣ — إقض على الشركات والنقابات الكبرى .
٣ — إمنع الأجور والأسعار في الصناعات المركزة كصناعة الصلب من أن تكون سبباً في التضخم .

— ٤ —

وألا تعمل شيئاً معناه بالطبع أن نقبل التضخم . وهناك قلة تؤيد هذا الموقف تأييداً صريحاً ، تقابلها كثرة تؤيده تأييداً لاشعورى أو تأييداً غير مباشر وذلك بمعارضة كل الطرق الممكنة للعمل أو الاكتفاء بالدعاء والتحذير وتلاوة التعاويذ .

وألا تعمل شيئاً لا يعد اختياراً مناسباً . والأجدى أن نوضح هذا النوع من التضخم الذى نتناوله وهو التضخم الذى تؤدى إليه الأسعار التى تفرضها أقوى المؤسسات وأكبرها كما تحدده الأجور التى تفرضها أقوى النقابات وأكبرها . أما تلك التى تخب وتمرج نسبياً أو إطلاقاً فهى أضعف المؤسسات والنقابات . ويجرى جريها أولئك الذين لا يحميهم سند قوى كالخدم والمدرسين والعمال غير المنتظمين فى اتحاد أو نقابة والمتقاعدين والمسنين ممن ليس لهم سند على الإطلاق . وهؤلاء الذين يؤيدون التضخم فى شكله الحاضر إنما يؤيدون سياسة إعطاء الكل للأكبر والأقوى

والتفضل بالقليل على الأصغر والأضعف . وليس هذا كل مالدينا من اعتراض على هذا التضخم فانه أيضاً يزعزع ثقة الناس فى الإدخار كما أنه مضر غاية الضرر بالخدمات العامة ولا يجزى الموهوبين من الناس قدر ما ما يجزى الموهوبين فى جمع المال واستثماره ، كما أنه يفقر صادراتنا فى الوقت الذى يؤدى فيه إلى تنشيط الواردات تنشيطاً ملحوظاً وإن كان غير طبيعى مما يؤدى إلى تلك النتائج الخطيرة من الخلل المفزع الذى يمكن أن ينتاب ميزان المدفوعات . إلا أن هناك نقطة واحدة تعلو على كل هذا وعلينا أن نتبصرها بجلاء وهى أن التضخم الحديث لا يتسم بالحياد فإن ارتباطه الوثيق بالقدرة الاقتصادية تجعله متحيزاً رجعياً .

— ٥ —

والسياسة النقدية هى ما يقوم به البنك المركزى من إجراء للتأثير على مستوى الأسعار . أما فى حالتنا فإن هذه السياسة يختطها نظام الاحتياطى الفيدرالى . أما السياسة المالية فهى ما تقوم به الميزانية من جهد فى هذا الصدد وذلك بما يتبقى لديها أحياناً من الإيرادات العامة بعد المصروفات التى تهبط بالطلب الكلى فى الاقتصاد ، أو بما يزيد فى أحيان أخرى من النفقات على الإيرادات التى تضاعف من هذا الطلب . ولا تستطيع السياسة النقدية أو المالية أن تكون على صلة قوية أو عملية بالصورة الحالية للتضخم فالمؤسسات فى القطاع المركز من الاقتصاد يمكن أن ترفع أسعارها ، وهى تقوم بذلك حين يصل التداول إلى غايته والعمالة إلى كمالها وحتى حين تقترب منهما ، ويتوقف هذا الحد من العمالة أو التداول فى الصناعة على

مستوى الطلب للسلع عامة وإلى منتجات هذه الصناعة كجزء من الطلب العام ، وتستطيع السياسة النقدية والمالية أن تكون على صلة بمشكلة التضخم بإضعاف المستوى العام للطلب . وحتى يكون للسياسة النقدية والمالية تأثيرهما المطلوب فإن عليهما أن تهبطا بالمطالب إلى الحد الذى يؤدى إلى هبوط التداول وقيام البطالة . فتضخم الأسعار لا يحدث إلا عند غياب هذين العاملين بشكل بارز . إلا أن السياسة التى تؤدى إلى البطالة وهبوط التداول لا تستطيع أن تلائم الهدف الأسمى للعمالة الكاملة والتداول الكبير . وكما أكدت من قبل فإننا بذلك نسمح بوجود فائض كبير أكثر مما يمكن أن يكون فى حالة ثبوت الأسعار .

وزيادة على ذلك فإن السياسة النقدية تحت أى ظرف من الظروف لا يمكن إلا أن تكون أداة ثانوية للسياسة العامة ، فليس هناك أصح من أن نكتشف بالتدريج أو بعبارة أدق إعادة الكشف تدريجياً عن أنه فى السنوات القليلة الماضية لم يكن هناك ذلك الساحر الداهية الذى يجعل من الاحتياطى الفيدرالى خير معوان للاقتصاد ، فكلما قل اعتمادنا على السياسة النقدية كنا أحسن حالاً . إلا أن الوضع يختلف بالنسبة للسياسة المالية ، فبالرغم مما نعنيه من أن استخدام الضرائب والمصروفات فى التأثير على مستوى النشاط الاقتصادى لا يؤدى فى ذاته إلى ثبات الأسعار فى حالة العمالة الكاملة فإن السياسة المالية لا يمكن أن تكون لهذا السبب غير مجدية حيث توجد البطالة والتداول البطىء فإن زيادة المصروفات الحكومية على المتحصل هو إلى أبعد مدى أضمن وسيلة لاتساع النشاط الاقتصادى . وعلينا فى مثل هذه الظروف أن نواجه عجز الميزانية ، بينما تتوازن حيث يزيد الإنتاج وتتوفر العمالة ، ومع ذلك فإن

هذا التوازن لا يستطيع أن يؤمن الثبات عند العمالة الكاملة ولكنها إحدى الحالات الضرورية للثبات عند ذاك . وعلينا أن نقول فضلاً عن ذلك إن الموازنة لا تعنى بالضرورة ضغط المصروفات فإن الخدمات العامة إذا ما تطلبت زيادة الإيرادات وعجز النظام الضرائبي عن ذلك فى حالة العمالة الكاملة فإن الطريق اللائم عندئذ هو رفع الضرائب .

— ٦ —

والموقف فى أجلى صورة هو هذا :

تعانى الصناعات المركزة من التضخم فى حالة العمالة الكاملة أو قريباً منها ، ولا تستطيع السياسة المالية أو النقدية علاج هذا التضخم إلا بخفض الطلب والإنتاج والعمالة . وهو علاج غير مقبول لأنه شر من المرض .

والاحتمال الثالث هو تفتيت الشركات الكبرى ولربما يستوجب الأمر تفتيت النقابات الكبرى أيضاً ، ولقد نودى بالالتجاء إلى قوانين الرقابة بكل ما فيها من قوة وإخضاع النقابات لها .

وفى هذا تقوم قوانين الرقابة بعمل عظيم فإنها تحمل ضمير الجماعة على التصدى لمشكلة القوى الاقتصادية ، وتحول (أو على الأقل تسعى للحيلولة) بين المؤسسة القوية والإساءة إلى عملائها الصغار ومموليها ومنافسيها . ولهذا فإن هذه القوانين تحمل دائماً نوعاً من الالتزام حيال الإحساس الخلقى للميول الإنسانية ، ومن الممكن حقاً أن تكون أكثر قوة وإلزاماً مما هى عليه .

ولكن إذا افترضنا أن قوانين الرقابة التى تقوم بهذا النوع من الثورة الضرورية للتوفيق بين العمالة الكاملة وثبات الأسعار بعيدة عن موضوعنا فإن هذا يعنى مراجعة مبيعات الجملة فى البناء الاقتصادى وما يتضمن من القضاء على تجارة الجملة فى وحدات العمل الموجودة . وحتى إذا كان هذا مطلوباً فليس هناك أدنى دليل من واقع التاريخ يدل على أن قوانين الرقابة بحدودها القانونية المقيدة يمكن أن تكون أداة فعالة لمثل تلك الثورة .

ومن الممكن أيضاً أن تكون هذه السياسة مؤسية من الناحية السياسية فإنها ستجعل من النقابات ميداناً لأولئك الذين يظنون أن مهاجمة التضخم ذريعة كبرى للهجوم بهذا الشكل على المنظمات العمالية وقد تستمر الأساليب المتبعة لإشباع الجماهير التى يمكن أن يجذبها إغراء الشركات أكثر مما يجذبها ثبات أسعارها .

ولن تكون هناك بادرة من الأمل فى علاج التضخم عن طريق قوانين الرقابة قديمة كانت أو جديدة ومن المحتمل أن يدعم الجدل فى هذا الموضوع الشك فى جدوى تلك القوانين لأغراض أخرى هامة .

فهناك ثمة مشروعات أخرى مشابهة لعلاج هذا النوع من التضخم بخفض جميع أنواع التسعيرة وتعريض تلك الصناعات التى ترفع من أسعارها لعواصف المنافسة الدولية الحادة فى الأسعار . وهذا الاقتراح بدوره قليل الجدوى فمن المحتمل ألا تخلو المنافسة الأجنبية من التأثير النافع على بعض الصناعات بما فيها صناعة الصلب فلا يصح أن تكون الوقاية سبيلا لتوقى التضخم فإن المنافسة الدولية لاتستطيع أن تؤثر تأثيراً فعالا على كثير من المنتجات بما فيها تلك المنتجات التى يصعب شحنها أو يقتضى شحنها نفقات

باهظة أو يتعسر نقلها إجمالاً وليست التسعيرة غير وسيلة بالية قديمة وأداة سياسية جامدة . إلا أن هناك فرصة عملية ضئيلة يمكن الأخذ بها فى سهولة ويسر لخفض الأسعار . أما هؤلاء الذين يقدمون تلك المشروعات المثيرة فإنهم يخلطون أحياناً بين المشاعر الكبرى التى يثيرونها والنتائج العملية الضئيلة التى تترتب عليها .

— ٧ —

ويتبقى بعد ذلك سبيل واحد للعمل ، ألا وهو هذا النوع من التدخل الحكومى فى الجانب الاقتصادى الذى تؤدى فيه العمالة الكاملة أو الاقتراب من حالة العمالة الكاملة إلى تضخم الأسعار وزيادة الأجور . وهذا التدخل حين يتم لن يكون نتيجة عمل فردى بل إنه ليتم لأنه ليس هناك أحسن منه .

ويتقبل عدد هائل من رجال الاقتصاد ضرورة هذا التدخل ، ودلت الأبحاث التى قام بها هؤلاء الذين يعملون منهم تحت إشراف اللجنة الاقتصادية المشتركة للكونجرس عام ١٩٥٨ على أن من ٤٠ ٪ إلى ٥٠ ٪ ممن استجابوا لها قد يقبلون فكرة ضبط الأجور والأسعار على الأقل كسلاح واق من التضخم ، ومما يثير الدهشة أن تتضمن تصريحات المكتب الاقتصادى للرئيس أيزنهاور ، الحاجة إلى مثل هذا التدخل عندما أخذت تحذيراته تتوالى بضرورة التحكم فى الأجور والأسعار . وجاء فى التقرير الذى أصدره الرئيس عام ١٩٥٩ ما يأتى بلغة صريحة : « إن زيادة النقد المترتب على الأجور والتعويضات الأخرى التى لا يقابلها قدرة إنتاجية يؤدى حتماً إلى

التضخم » ثم أضاف قائلاً « إن التنظيم والتحكم الذاتيين من الضرورة بمكان لضبط الأسعار ضبطاً حكيماً وهما ما يجب تحقيقه داخل إطار من النظمات الحرة المتنافسة » . وقد تقبل المكتب ما جئت به من آراء فى هذا الفصل بغض النظر عن اتجاهه لأن تخطى الأجور بنوع من الاهتمام الخاص ، والخلاف الوحيد بيننا هو فى إيمانه بأن شيئاً ما قد ينشأ عن هذه التحذيرات . وهذا بالطبع هراء تام فقد أشار « بن و. لويس » الأستاذ بجامعة أوبرلن إلى تلك التحذيرات ودعاها بسياسة اللوم البطىء . وأثبت تماماً أن هذه السياسة لم تصنع من قبل شيئاً ما . وقلما نتصور أن يؤمن رجال المكتب الاقتصادى للرئيس أنفسهم بان لهذه التحذيرات ثمة جدوى.

فهل تراهم يقامرون حقاً بمكانتهم وسمعتهم على نجاح تلك السياسة الهزيلة ؟ والحقيقة أن هذا اللوم يعكس اتجاهنا العصرى الذى يحل فيه الكلام محل العمل الجدى . ولكن إذا كنا نبتغى نوعاً من العمل الجدى بدلاً من الكلام فإن الفلسفة الاقتصادية لمكتب الرئيس أيزنهاور ستضعنا قهراً وبدون استعداد أمام مشكلة التدخل فى وضع الأسعار والأجور .

فلنقترح الآن المبادىء التى يمكن أن تتحكم حالاً فى هذا التدخل .

— ٨ —

وأول مبدأ هو أن التدخل يجب أن يكون محدوداً فليست هناك حاجة لإجراء رسمى حيث لايوجد خطأ ما ، فإذا وضعنا المنتجات الزراعية وأمثالها من الصناعات والحاجيات الأخرى الكثيرة فى أسواق عديدة لباعة عديدين بحيث لا تخضع للتحكم فإن أسعارها لن تكون بأى حال سبباً

فى التضخم الذى نعنيه ، ولذلك لا نرى ما يحملنا على التعرض لها . فحيث يكثر عدد الباعة ، وحيث لا ينتظم العمل ، وحين تثبت الأسعار أو تنخفض فليست هناك حاجة للتدخل على وجه العموم . ومن قبيل ذلك أيضاً الصناعات التى نعدها ، دون إغراق فى التصور ، هامة فقيمة السلعة فى أهميتها . وعلينا أن نحذر من يقولون بأن التحكم فى شىء ما هو التحكم فى كل شىء — أو أن تمارس كل شىء معناه ألا تمارس أى شىء وهو ما يمكن أن يكون هدف بعض من يحملون علم التحذير .

والمبدأ الثانى أن تكون أداة التدخل بسيطة وأن تهدف إلى الضبط وليس إلى تجميد السعر أو تحديد الأجر ، فنحن لا ننشد غير منع التضخم الناجم عن الارتفاع الكبير فى الأسعار الماثل الآن فى صناعات الصلب والمعادن الأخرى والآلات وغيرها من إنتاج الصناعات المركزة ، كما أننا لا ننشد غير منع زيادة الأجور عن الحد الذى لا تستطيع أن تمتصه حاجتنا إلى هذه الزيادة وإلا فسنجد أنفسنا ملومين عن ذلك . كما نستطيع أن ننقص من كمال هذا الجهد مع بقاء التحسن المطرد فى الزيادة المطلقة للأسعار الحالية وهى الزيادة الممكنة فى حالة العمالة الكاملة . ولنذكر دائماً أن الموقف الحاضر يسمح فى حالة العمالة الكاملة بتلك الزيادة المجزية فى الأسعار دون ضابط من أى نوع .

أما إذا تقيدنا بالثبات المطلق للأسعار فسننتهى بألا نعمل شيئاً .

والمبدأ الثالث هو أن الجهد الذى يبذل لتحقيق الاستقرار ، إذا ما أمكن ذلك ، يجب أن يتسم بروح التسامح فمشكلتنا هى فى أن الأسعار فى جانب من الجوانب الاقتصادية لا يمكن أن تكون ثابتة فى حالة العمالة

الكاملة وواجبنا أن نصحح هذا الخطأ بدلاً من أن نلقى اللوم على وجوده وفى هذه الحالة تكون مراقبة الإدارة الشخصية أجدى من التحكم .

والمعروف غالباً أن أية خطوة مثمرة تحتاج إلى جهاز رسمى يتابع كل عام زيادة الأجور التى يمكن أن تتفق عامة مع ثبات الأسعار (فإذا لم يكن لسياسة التحذير خطأ غير هذا فإن العجز الكلى عن تعريف ماهو معتدل وماهو مفرط كاف لاعتبارها غير ذات قيمة) وعلينا أن نتوصل إلى هذا الجهاز بعد روية ومناقشة كاملتين ، وحينئذ يجب أن تكون هناك لجان ثلاثية فى الصناعات المناسبة لضبط الأسعار تمثل العمل والادارة والجمهور تعمل على تطبيق المستويات الخاصة بتلك الصناعة بشكل لامركزى . فإذا لم تتطلب المساومة الجماعية الجديدة زيادة فى السعر ولم يحدث شىء من هذا فلن يكن هناك داع لأى شىء آخر . أما إذا رأت أن زيادة الأجور تتطلب ارتفاع الأسعار فستقوم اللجنة باستقراء ذلك ومعرفة حقيقة الحاجة إليه . ومن الواجب فى البداية أن تكون العقوبة التى توقع على الممتنع حقيقية وأن يكون توقيعها مستنداً إلى أبعد مدى على اتجاهات الرأى العام . ومهما يكن فعلينا أن نتذكر أن الرضى عن الامتناع إضعاف لموقف المتعاون . وليست هذه الأداة مثالية إلا أنها أفضل من التحكم المباشر للشركة أو التحكم الثنائى للشركة والنقابة .

وعلينا أن نتذكر مرة أخرى أن المطاردة الدائمة للأجور عن طريق الأسعار والأسعار عن طريق الأجور كما هو موقفنا حالياً ، هى عملية مقصودة للاحتفاظ بحالة القلق التى تسود المفاوضات بين العمال وإدارة الشركة

والغرض هو الحد من تضخم الأسعار فإذا أبعدنا هذا العامل عن العلاقات الصناعية فإنه بالتالى يبسط وييسر كثيراً مما اقترحناه من إجراءات .

— ٩ —

وسيتهيأ هؤلاء الذين يقيمون من أنفسهم أوصياء على تقاليدنا للقول بأن أمثال هذه المقترحات كفيلة بالقضاء على نظام حرية الأسعار ، ولذلك فهم لا يتجاوبون من حيث المبدأ مع نظام السوق الحرة حيث تعمل الأفكار الأخرى عملها مع أن هذه المقترحات لا تتدخل فيها . وإلا فإنهم سيحملون المصلحة العامة على البقاء على ما هى عليه الآن أو بعبارة أقسى سيعملون على تثبيت السعر الخاص ، فإذا كان هناك ما يؤخذ على سلطة الإدارة الأهلية للانعاش (نرا) على التسعيرة فليس هناك ما يؤخذ على تمثيل الجمهور فى تلك الهيئة ذات السلطة القائمة .

وواضح أنه مالم تتحقق حرية الحركة الخاصة بالنسبة للأسعار فلن ترتفع الأسعار تبعاً لزيادة الأجور أو أية عوامل أخرى وما قامت المشكلة التى نحن بصددها الآن ، فحيث لا توجد مثل هذه القوة الخاصة للأسعار كما فى حالة الإنتاج الزراعى فإن المشكلة لن تقوم فى الواقع .

والأمر الثانى أن هذه المقترحات لا تعنى غير حكومة تقدمية تتفحص بعناية وعمق ما يدعوها إلى تثبيت السعر . فالتضخم أمر مكروه لأنه نكسة اقتصادية ولكنه لا يعدم نوعاً من التأييد الرصين ، فعلى الذين يجادلون فيه أو يستحسنونه فى شكله الحالى أن يكونوا من القوة

والصلابة ورباطة الجاش فى موقفهم هذا وإن كان هـذا يعنى أن هناك كثيرين يرونه مقبولاً .

فإذا لم تكن هناك طريقة مواتية لضبط السعر والأجر فإن السبيل للعلاج النقدى والمالى يبدو أكيداً . فالسياسة النقدية تحظى هى الأخرى بنوع من التأييد الرصين البارز فهى أثيرة لدى المرابين ومؤسسات القروض الكبرى التى لا تتأثر كثيراً من جراء سياسة نقدية شديدة تتحكم فى المصروفات والقروض التى تعقدها الولايات والمقاطعات ويراها الكثيرون مجزية .

وشبيه بها تلك السياسة المالية التى يمكن أن تكون موضوعاً قيماً لأحاديث المحافظين . وهو ما تقوم به فعلاً الآن ، فإن ما يقتضيه التعليم والصحة والدفاع والمعونة الأجنبية من مصروفات طائلة تدعو كما يقال إلى التضخم ، ولذلك فإن من يعترض على التوسع فى هذه الخدمات لا يدافع إلا عن الدولار فحسب ، والنتيجة الحتمية أن يحل غول التضخم محل غول الشيوعية كوسيلة للتوسع فى الخدمات العامة وتحسينها . ومنذ أن أصبح التضخم خطراً قائماً ملموساً — جربه وعاناه كثير من الناس بخلاف الشيوعية فإنها ستغدو غولاً صعباً شديد المراس .

ومن اليسير ترويض هـذا الغول إذا كان لدينا وسيلة فعالة لعلاج التضخم فى حالة العمالة الكاملة ، وحينئذ تستطيع الحكومة أن تمارس واجباتها الجديدة بها حيث يتعثر تشغيل الإنسان والإفادة من الموارد فعندما نستخدم الموارد استخداماً كاملاً لا يبقى أمام الحكومة إلا عبء موازنة ميزانيتها وهذا ما يحدث وفقاً لسياسة إقتصادية رشيدة .

والإنسان المتحرر الذى يبتغى استخدام الموارد ويتطلع إلى اطراد النمو والذى يعترض على التضخم ليس هو الإنسان المرفه الذى يأسى على أمثال تلك المقترحات التى تقدم بها ، ومن المحتمل أن يقترح بعض التحسينات أو أشباهها وهو كل ما يسمح به الموقف من حكمة فمازلنا ملتزمين بالاختيار الذى تحول دونه الوقاية الصارمة أو يستطيع أقدر الناس أن يتوقاه .

القسم الثاني

كيف نعيد قراءة التاريخ

الفصل الخامس

الأيدى الخفيــة تتحرك

إن أبرز ما يسم أحداث التاريخ الـكبرى هو أنها تغير الناس أو بعبارة أدق ، الطريقة التى يفـكرون بها وبذلك لن يتسنى لهم أن يكونوا ما كانوا مرة ثانية . ولأنهم يسمعون كثيراً عن الحدث التاريخى ثم يقرأون عنه ويقرأ عنه أبناؤهم وأبناء أبنائهم وأحفادهم لا يـكون بينهم هم أيضاً شبه ما . وحتى يثمر الحدث التاريخى ذلك الأثر فلابد له أن يمس تجارب الناس جميعاً أو العدد الأكبر منهم وأن تمس تلك التجربة موطن الألم أو الخوف أو الأسى العميق ، والناس بفطرتهم لا يحز فى نفوسهم ويترك أعمق الأثر فيهم غير التعنت الظالم والأسى العميق ، وأصدق ما قيل من أمثال إن الناس لا يعرفون ذلك ما داموا فى رغد من العيش .

وهاك برهان الحقيقة . فى بريطانيا ما زالت الدماء التى سالت خلال الحرب العالمية الأولى تضفى على كلمة الحرب معناها البغيض فما من شىء فى بريطانيا منذ ذلك الحين ، ومن المؤكد منذ الحرب العالمية الثانية ، استطاع أن يحمل هذا الشعور بالأسى والهول إلى الـكثيرين كما حملته القطارات المحملة بالجنود . وقد حملت الحشود إلى جبهة القتال فى فرنسا لتلقى حتفها المحقق البغيض . وقد كانت حرباً كما نذكر لم يـكن لأحد خاض غمارها على الجبهة الغربية أن يتوقع البقاء حياً فقد كان متوسط عمر الملازم الأول من البريطانيين فى القتال يتراوح ما بين يومين وأسبوعين .

إلا أن التجربة التى خاضتها الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الأولى وكذلك فى الحرب العالمية الثانية كانت جد مختلفة ، ففى كلا الحربين كان عدد الضحايا قليلاً بالقياس إلى عدد السكان وكان الذين يتوقعون الموت المؤكد لذلك قلة ضئيلة . وعلى العكس وجد الناس فيها وخاصة فى الحرب العالمية الثانية نوعاً من المتعة فى مهام لم يكن أحد منهم يتوقعها ، أو فى مسئوليات لم يكن من المقدر لأحدهم أن يضطلع بها ، أو فى النثر حال إلى بلاد لم يكن يزورها غير الأغنياء أو فى الهروب من ملل الزوجات وإن كن طيبات . لذلك لم تكن هذان الحربان بالنسبة لنا من الأحداث التى تترتب عليها آثار تاريخية عميقة . ومن المحتمل أننا كنا ننظر إلى حديث الانحدار نحو الهاوية بشىء غير قليل من الاتزان لو أن عدداً كبيراً من الأمريكيين مر بتجربة كتجربة غابة هيوتجن أو تجربة هيروشيما .

وبالرغم من فشل الحربين العالميتين فى خلق ذلك الأثر إلا أنه من أيسر الأشياء علينا أن نختار حديثين من أحداث القرن الماضى كان لهما أعظم الأثر فينا وهما الحرب الأهلية أولاً وثانياً الكساد الكبير .

— ٢ —

وكان الكساد الكبير أعظم الاثنين أثراً ، فقد تركت الحرب ومابعدها جراحها العميقة فى الاتحاد ومر الناس جميعاً فى تلك التجربة المرة القاسية من تجارب الخدمة العسكرية وأهوال القتال وقد التحمت الجنود وافترقت وانتهت الحرب بالاحتلال العسكرى وزوال السيادة ، وعانى كل إنسان من التضخم والفوضى الاقتصادية كما قاسى كثرتهم الجوع والمسغبة

وفى النهاية كانت تلك الثورة التى لم تكتمل فى البناء الاجتماعى وذلك التهديد الذى بذ تلك الثورة فى آثاره . ولم يتجنب تلك النتائج غير قلة ضئيلة معلومة . فلم نكن نحارب جيوشاً معادية كما قال شيرمان . بل شعباً معادياً ، أحس فيه الناس ، صغيرهم وكبيرهم ، غنيهم وفقيرهم جميعاً بالحرب كما شعرت بها قواتهم النظامية .

إلا أن هذه الحرب لم تكن غير مأساة إقليمية لم يشعر بآلامها الشمال إذا استثنينا ما يلم بالقوات المحاربة من آلام الغربة وأخطار الموت . وحين ارتفعت الأسعار لم يكن ارتفاعها مؤسياً بقدر ما كان نافعاً فقد سعد بها الفلاحون ونعمت بها الأعمال والمصالح ونمت الصناعة وازدهرت التجارة فى كل مكان وكانت « جيتسبرج » هى المعركة الوحيدة التى خاضها المتحاربون داخل حدود الشماليين . فإذا ذكر الجنوبيون الحرب بغير ما يذكرها الشماليون فإن ذلك لايدعو للغرابة .

وعلى العكس كان الكساد الكبير فلم يترك أحداً فى الوطن — إلا أفراداً قلائل — دون أن يمسه ، فانتشرت البطالة وعاش من يعمل فى ذعر من أن تلم به تلك البطالة ، ولم يكن هناك إعانات للمتعطلين تقيهم الحاجة وأفلس الفلاحون أو عاشوا فى خوف من الإفلاس ، وما كان هناك من يعول عليه فى هذا ، وغدا الانهيار الاقتصادى وكأنه لا نهاية له فى تلك الأيام ، ولم يستطع المفلسون من الفلاحين والعاطلون من العمال أن يتجنبوا . تماماً هذا الاحساس العام بأن البطالة والإفلاس هما سمة الإنسان الناقص . وكان هذا بعض آثار نظرية دارون وانعكاسها على الصراع الاجتماعى وكان للطبقة الوسطى وللأغنياء متاعبهم هم الآخرون ، فقد هوت ثرواتهم

فى البورصة وفى استثمارات الغاز والكهرباء وكانت الصناعة الأمريكية قد كونت طائفة كبيرة مميزة من أصحاب الوظائف المحترمة والدخول المجزية. إلا أن الكساد قذف بتلك الأرستقراطية العاطلة إلى البوار. وبالنسبة للاتحاد كان هناك خوف وان لم يكن حقيقياً من حدوث ثورة اجتماعية، واعتبرت اتجاهات لنكولن أكثر سوءاً بالنسبة لكارولينا الجنوبية من اتجاهات روزفلت بالنسبة للرودج أيلاند. فمن الواضح أن المؤلفات التاريخية التى لاتنقطع عن لنكولن وقواده لايضاهيها إلا ما يصدر من كتب عن روزفلت ومساعديه و « عهده الجديد ».

وهذه الأحداث التى تترك آثارها العميقة فى النفوس كالحرب الأهلية والكساد الكبير إنما نذكرها لأنها أضرمت عقول الناس وضمائرهم فإذا كانت تغير من الناس فإنها بالأحرى قمينة بأن تغير مجرى التاريخ وهذه هى أهميتها، وهذا هو الخطر البالغ فى فهم التاريخ، ولهذا فإنها مثلما تترك هذا الشعور العميق فى أذهان الجماهير مثلما تكون منذ البداية فى مسيس الحاجة إلى مزيد من الشرح والتأويل، وكثيراً ما يخطىء التأويل التاريخى الغابر فيبدو ناقصاً أو عاطفياً أو ينتهى إلى تلك الصورة الغامضة وحينئذ يتجاوز حقيقة العلم والتاريخ إلى الأهازيج الشعبية، ولن يقبل التأويل على ضوء الأفكار الجديدة أو الظواهر الطارئة مرة أخرى، ومن المحتمل أن يكون وعينا للأحداث الكبرى أقل ممن هم أقل منا لأننا ارتبطنا أكثر منهم بالاتجاه الخاطىء. وقد تكونت لدينا هذه الفكرة من دراستنا لتاريخ الحرب الأهلية والكساد الكبير ومن الأوفق عندما

نعكس التسلسل العادى للتاريخ أن نتبين تلك النظرة العابرة فى دراسة الكساد الكبير .

— ٣ —

هناك ثلاثة أو أربعة مقاييس سيطرت على تاريخ برنامج روزفلت للانعاش وهى : الإدارة الأهليـة للانعاش « نرا » وقانون الإصلاح الزراعى وبرنامج شراء الذهب وبرنامج العون والمشروعات العامة وتتصدرها جميعاً « نرا » . فقد اعتبرت حينئذ وما زالت القوة الفعالة التى لم تتغير صفحتها فى تاريخ النظام الجديد وهو أحد أخطاء روزفلت التى اكتسبت ثوب البطولة . فإن محاولة وقف الانكماش بوسائل مباشرة بمعنى رفع الأجور والأسعار ليست غير محاولة عسيرة تسلك طريقاً خاطئاً . ولعلة ما أوقف هذا المشروع وعندما أبدت المحكمة العليا رأيها فى « قضية شستر » وأعلنت أن القانون الأهلى للانعاش الصناعى عمل غير دستورى أنقذت بذلك روزفلت من التردى فى خطأ جسيم كما أنقذت البلاد من التردى فى خطأ أكثر جسامة هو الاتفاق على رفع الأسعار ارتفاعاً هائلاً مما يتنافى مع تقاليد المنافسة الحرة التى جرت عليها .

ولم يتغير موقف «نرا» كثيراً ، حتى إن أحد مؤرخى الاقتصاد المعاصرين قد استطاع بعد دراسة جديدة للموضوع أن يصل إلى نتائج مختلفة فقد استطاع تخفيض الأسعار فى السوق الصناعية الحديثة تحت تأثير الانكماش الشديد أن يخفض الأجور بدورها ، كما استطاع تخفيض الأجور أن يخفض الأسعار بالتالى فى صورة متبادلة من الانخفاض المطرد ،

وهذه هى الحالة التى سعت لمقاومتها «نرا» ، بحيث يكون الطلب عظيماً يبدو واضحاً أن ارتفاع الأجور علة مقبولة وعذر بين لرفع الأسعار مما يؤدى بدوره إلى ارتفاع جديد في الأجور ، وبذلك يطرد التبادل نحو الصعود وهذه هى المشكلة التى نسعى لحلها الآن ، ويجب كما قلنا فى الفصل السابق أن يكون هناك تنظيم يجمع بين الشركات والنقابات والحكومة إذا أردنا أن نوفق بين العمالة الكاملة وثبات الأسعار .

وقد أديرت «نرا» إدارة سيئة وعجز رجالها عن تبين ما كلفوا به ، وإن كان من الممكن لها أن تصور النظرة الحقيقية لاتجاهات السوق أكثر مما يستطيعه هؤلاء الذين يأخذون بمبدأ التسويق القائل بأن تجنب التدخل يجزى حتماً أحسن الجزاء . ولكن التجربة الأولى التى مرت بها «نرا» تمت بصورة حادة وفى الإطار التقليدى للتنافس ولذلك فإنهم حين رفضوا هذا التنافس التقليدى قبلوا بغير تحفظ وضع « نرا » حتى أصبحت نظرتهم هذه جزءاً من المأثورات الشعبية فى البلاد ولن يكون العكس .

وقد كانت « نرا » إلى جانب إدارة الإصلاح الزراعى وبرامج العون والمشروعات العامة إحدى دعامات السياسة الأولى للنظام الجديد . ومن ثم بدأت أعمالها بمظاهرة ضخمة شهدت أكبر استعراض فى التاريخ واستمع الناس فيه إلى الجعجعة الملهمة التى انطلق بها لسان الجنرال « هيوجونسون » أحد أساطين الجدل الخطابى وكل ذلك قد ترك أثره البالغ فى المؤرخين وفى الناس أيضاً وما زال هذا الأثر باقياً إلا أنه تبعاً للمعلومات الأخيرة جد إجراء آخر قد يستوجب نفس الاهتمام .

فنى عام ١٩٣٣ صدّق الكونجرس على ضمان ودائع البنوك ممـا أدى إلى تغيير المركزية الضيقة لنظام البنوك إلى نظام تعتمد فيه البنوك نسبياً بعضها على بعض ، فكان هذا حقاً نهاية حقبة وبداية أخرى لا ترى فيها هؤلاء المتـكالبين الذين جاءوا لصرف ودائعهم أثر شائعة تثير الشك فى مركز البنك ، ولا نرى فيها مرة أخرى أن انهيار أحد البنوك يؤدى إلى انهيار الآخر والآخر إلى ما يليه وهكذا ، ولن يكون هذا الفزع والأسى الذى يخيم حتماً عندما يحدث ذلك ، ولن نستطيع أن نتصور نوعاً من الإصلاح فى مثل تلك الأهميـة ولم يكن هناك أيضاً أمثال « هيوجونسون » و « روبى » ولم تقم الاستعراضات وان وسم بعض المحافظين الناقمين هذا الإصلاح بالشيوعية ونعتوه بالجمود ولم يستحوذ من صفحات التاريخ إلا على سطور قلائل ، فإذا قارنا ما بين « نرا » وقانون ضمان الودائع نجد « نرا » قد استحوذت على كل بريق .

— ٤ —

ولنرجع قليلاً إلى الوراء لنتأمل أحد هذين الحدثين العظيمين فى تاريخ البلاد وهو الحرب الأهلية لنرى أن صفحات التاريخ فيها أكثر حاجة إلى المراجعة . فقد علمتنا الحربان العالميتان الـكثير من مشاكل التأهب للحرب مع أن دروسهما لا تندرج على ما اقتضته الحرب الأهلية من ضرائب إضافية فقـد حرر « كينز » الاقتصاد من القواعد التى تؤكد أن أية بيانات عن تـكاليف الحرب الأهلية لا بد وأنها تجانب الصواب تماماً . إلا أن التاريخ ما زال حبيس قيوده . والنتيجة أن الحرب

الأهلية وخاصة فيما يتعلق بتفاصيل إدارتها ونفقاتها ما زالت غامضة وسط غيوم الأساطير المعاصرة .

ولهذا فليس هناك ما يمكن الاتفاق عليه أكثر من أن إدارة الحرب الأهلية كانت فى غاية السوء فاتسمت بالإهمال وسادها الخداع والتضليل والكسب الحرام وعمت المضاربة ولم تكن هناك تضحية وإن وجدت فقد قام بها أناس غير من كانوا يديرونها وبرزت هذه الأخطاء بصورة أوضح فى عيون المعاصرين . فالرغبة فى المضاربة كما قال الرئيس « دافيز » عام ١٨٦٣ أغرت الناس من جميع الطبقات بجمع المال وتكديسه بوسائل خسيسة عن الانصراف إلى متابعة الحرب . وكان لنكولن واضحاً كغيره من جنود المعركة الذين تكلموا بصراحة عن أغنياء الحرب وضحاياها من الفقراء ، إلا أنه من بين سطور تلك القصة المؤسية تتراءى صور مشرقة لأمثال « جوزيا جورجاس » الذى قام بتجهيز السلاح للقوات الاتحادية ، و « ماك كولم » الذى قام هو و « هويت » بمد الطرق الحديدية للاتحاد . إلا أن الشعور بهذا العجز البارز ظل سائداً لا يقاوم .

وليس هناك هجوم أقسى مما وجه إلى إدارة الشئون المالية للحرب الأهلية فلم يقم الاتحاد بفرض ضرائب فى الوقت المناسب ولم تجب الحكومة الاتحادية ضرائب إلا فى القليل النادر .وأجمع الجانبان على خطل الرأى فى أنهما يستطيعان أن يحصلا على ما يريدان عن طريق القروض وإصدار أوراق النقد ، وحين نتحدث عن إصدار أوراق النقد فإن ذلك يعنى دائماً سياسة مالية سيئة متراخية . إلا أن حالة الجنوب كانت أسوأ وأشار إليها « تشاننج » فى كتابه تاريخ الولايات المتحدة بقوله « يرى الكتاب

الإقتصاديون من أهل الشمال أن انهيار الحكومة الاتحادية يعـــود إلى الإسراف فى إصدار أوراق النقد والسندات المالية كما يعود إلى عمليات الاستيلاء الجبرى على المتلكات » .

وبهذا لم تكن إذن إدارة الحرب الأهلية نموذجاً للتقشف أو الصرامة أو الاكتمال . وانطوت أكثر الأشياء على كثير من السوء ولم تتحسن عندما استقرت الأوضاع أخيراً ، وإن استجابت الحكومتان بكل ما تملكان من القوى البشرية والإدارية لضرورات الموقف فى سرعة وهمة عظيمتين فهيئت الجيوش العظيمة بالعتاد ونقلت سريعاً إلى ميدان القتال وظل تعود الأسلحة التى هيئت بها قوات الاتحاد وتنوعها البارز إلى وقت طويل موضوعاً للتعليق فقد كان توحيدها وتنسيقها مما يعطل تجهيز القوات بالأسلحة ويؤدى إلى نتائج خطيرة ، وكان هناك إسراف فى التجهيزات جعل التكاليف باهظة . وفضلاً عن ذلك كان ذلك التدليس المحقق ، فقد غدا « سيمون كامرون » أول وزير للحرب أثناء رئاسة لنكولن مضغة الأفواه فى القرن التاسع عشر وكان اختياره خطأ جسيماً ، ولكن هل كان من المجدى لقضية الاتحاد أن تكون هناك رقابة على التدليس ودقة فى مراجعة العقود ، وأن تتمركز السلطات كلها فى واشنطون ؟ ومرة أخرى نجد عامل الزمن ولم يكن من اليسير تلافيه ، ومما هو قمين بالذكر وكان سبباً من أسباب الشكاية أن إمدادات قوات الاتحاد كانت أكثر مما يلزم من الرفاهية والتنعم فقد كان الجنرال « ميجس » مدير الإمداد والتموين لقوات الاتحاد يقوم بواجبه على خير وجه وكان يتصرف وفقاً للضرورات العاجلة ، وكان يعلم أن الاتحاديين لن ينتظروا حتى تنتظم الأمور تماماً ، لذلك أغضى عن كل

نقد يوجه لديه وقام بتوفير الإمدادات ولم يكن أمام ناقديه خير من ذلك .

ومهما يكن فقد كان هناك اعتبار آخر يجب أن نعرض له عندما نتناول النواحي المالية للحرب ،وهو أن تاريخ الحرب الأهلية قد كتبه أناس جد حريصين على المال فلم يضعوا فى تقديرهم الاحتمالات التى يمكن أن تواجهها « حكومة حرب » ولم يقيموا وزناً للنتائج ، وصبوا لعنتهم على السياسة التى اتبعت من حيث المبدأ فحسب ، سواء أدت إلى النجاح أو انتهت بالفشل .

وإذا نظرنا إلى الموضوع وفقاً للاعتبارات الحديثة نرى أن التضخم المعتدل كان أقل ضرراً للشماليين فلم يكن من الصواب تأخير التعبئة حتى تؤدى الضرائب اللازمة ، ونحن الآن أقل اقتناعاً بكثير بالفوارق بين الأوراق المالية التى ليس لها فائدة والقروض ذات الفائدة كسبب للتضخم فتحت ظروف العمالة الكاملة نرى أن كلا منهما يؤدى إلى التضخم . أما فى أثناء الحرب الأهلية فقد أدى ارتفاع الأسعار فى الشمال إلى تنشيط الاقتصاد وساعد على التخلص من الاضطراب الذى أدى إليه فقد أسواق الجنوب وإمداداته من القطن ، فقد اعتمد الاتحاديون فى سياستهم على بعض تلك التقديرات الخاطئة من الأمل ، وهى سمة من سمات تاريخنا ، فى أن يكون لتلك الاعتبارات أكبر الأثر فى إجبار الماليين من أهل الشمال على الاتفاق

---

(١) تطلق كلمة Union على الإتحاد أو الشماليين الذين يتمسكون بالوحدة الفيدرالية أما كلمة Confederates فتطلق على الإتحاديين وهم أهل الجنوب الذين كانوا يفضلون اتحاداً كونفدرالياً .

معهم « فأنت لا تجرؤ أن تثير حرباً بسبب القطن كما يقول « جيمس هاموند » محافظ سوث كارولينا ، وما من قوة فى الأرض تجرؤ على إثارة الحرب من أجله ، وهل هناك ممن يرقبون الأحداث الجارية من يشك فى أن للقطن مكانة رفيعة ؟ »

وبمراجعة الأبحاث المضنية التى قام بها « ويزلى متشل » نرى أنه من عام ١٨٦٠ إلى عام ١٨٦٥ كانت أسعار القطاعى أقل قليل من الضعف بينما زادت أسعار الجملة على الضعف . فهل كانت تلك نقمة على شعب انشق على نفسه فى أعظم حرب خاضها فى سبيل بقائه ووحدته ؟ والعكس هو الصحيح فلم تكن نقمة بل كانت شيئاً طيباً .

وكان علاج الاتحاديين للنواحى المالية دون ذلك ففى الجنوب كانت هناك كراهية عميقة لفرض الضرائب فلم تؤد نفقات الحرب إلى زيادتها بأكثر من ١ ٪ . ومرة أخرى كان من العسير أن تتوقف الجيوش عن التقدم حتى يجتمع الكونجرس فى ريتشموند ويقوم بفرض الضرائب ويحمل الولايات والأهالى على أدائها . ومن المحتم أن يواجه الشعب الذى يدافع عن استغلاله وفقاً لنظرية السيادة كثيراً من المصاعب من هذه الناحية ، ومن العسير أن نتوقع نوعاً من التقديرات لتلك الوقاية الصريحة لشعوذة الاتحاديين المالية فقد قام بلد زراعى بإمداد قوات كبيرة يتراوح عددها بين ستمائة ألف ومليون محارب جهزوا وأعدوا لقتال استمر أربع سنوات تحت ظروف سيئة من الاحتلال والخراب ، وكلف ذلك من الذهب والعملات الصعبة ما يقدر بسبعة وعشرين مليوناً من الدولارات وقد يكون من الممتع أن نتصور كيف يمكن للبنتاحون أن يخوض هذه الحرب بمثل ذلك القدر من المال .

— ٥ —

ومع ذلك فقد شغلت سطور التاريخ المجيدة بعواقب الحرب الأهلية فى الجنوب فسرعان ما أعيد تشييد المدن التى خربتها الحرب عندما حل السلام وفاق إنتاج القطن بعد خمسة عشر عاماً على نهايتها ما كان عليه قبلها وكان هذا دليلا واضحاً على الانتعاش فى كل ناحية من نواحى الاقتصاد ، إلا أن الاتهام بأن الحرب قد أصابت ثروة الجنوب بوفر دائم بقى عالقاً إلى يومنا هذا. وغالباً مايستشهد على ذلك بالدمار الجائح الذى حل بعاصمة الجنوب وإن كانت أسباب هذا الدمار مما أحاط بها من الغموض ، ونسب أكثر هذا الضر إلى وجود الرق ، ويرى المعمرون أن أكبر قانون من قوانين المصادرة فى تاريخ التشريع السكسونى كان ذلك القانون الذى قضى بجرة قلم على ما يعادل أربعة ملايين دولار من الثروة ، فى ظله غدت المدخرات المستثمرة فى السندات وأوراق النقد هباء لا قيمة لها ، كما دمرت الممتلكات العينية فكانت جميعها ضربات قاضية أدت إلى الفكرة التى مازال يتمسك بها بعض الجاديين بأن الجنوب لم ينتعش أبداً .

إلا أن ذلك كله لا يجد صدى معقولا لدى المحدثين ، فلم تتبدد الأموال المستثمرة فى تجارة العبيد وإنما تحولت من صاحب المزرعة إلى العبد المتحرر . وكل ما كان من خسارة كان بسبب نقص الكفاية لدى هؤلاء المتحررين من الرق . وقد يكون ذلك صحيحاً إلا أن إنتاج القطن قد قفز بعد عشرين عاماً إلى ما كان عليه قبل الحرب فبرهن على أن استخدام العامل الحر ليس مشكلة عويصة .

وقد استغلت المدخرات فى الجنوب أثناء الحرب فى شراء الأسلحة والذخيرة كما كان الحال فى الشمال ، وبعد أن أصبحت السندات المالية فى الجنوب لا تساوى شيئاً طالب أصحاب المدخرات بتعويضهم عنها مع الفائدة المقررة من الإيرادات العامة بعد ذلك . إلا أنهم لم يستوفوا منها شيئاً . ومعنى ذلك أن الإيرادات قد آلت إلى أيد أخرى للصرف منها فى وجوه أخرى ، وقد كان مما يعوق الانتعاش أن تجبى الضرائب اللازمة للخدمات العامة لتغطية ديون الاتحاد .

وعانى رأس المال البشرى فى الجنوب كثيراً إلا أن الإحساس بمعاناة الضريبة يعوضه ما اتسمت به سرعة التعمير ، فضلا عن ذلك فإن المراجع التى تشير إلى تدمير عاصمة الجنوب تشير أيضاً إلى هذا الهراء الذى تردت فيه ولايات الجنوب حيث كانت كل منها تمثل سوقاً مالياً منفرداً تموله الولاية وحدها ، وقد أصبح الجنوب بعد الحرب جزءاً من الاتحاد وأصبح من المتوقع أن يكون رأس المال فى خدمة الجنوب كما هو فى خدمة الغرب ، ولكن ربما لا تواتى الفرصة ذلك فهناك احتمال قوى يضعف مستوى كفاية رأس المال فى الجنوب — وفقاً لتقديرات رجال الاقتصاد — بعد سنوات التعمير .

إلا أن هناك شيئاً آخر يجب أن نتبينه ، وهو أن البلاد المحاربة قد حققت بعد الحرب العالمية الأولى وبالذات بعد الحرب الثانية انتعاشاً سريعاً ، وبمقارنة بسيطة نرى أن ما نزل بألمانيا الغربية من كوارث الحرب العالمية الثانية وما بعدها لا يقل عما نزل بالجنوب من كوارث الحرب الأهلية ، فقد عانت ألمانيا من الدمار البشع الذى حل برأس المال ، وانخفض سعر

العملة حتى أصبحت لا تساوى شيئاً ، وانهارت السندات المالية انهياراً تاماً واحتُلت أراضيها احتلالاً شاملاً لا يقارن به احتلال أراضى الجنوب ، ومع كل هذا استطاعت ألمانيا بعد حقبة قصيرة أن تنهض بمستوى المعيشة فيها نهوضاً تاماً فوصل الإنتاج الصناعى إلى مستوى قياسى وكذلك رأس المال . ولم تكن التجارة الخارجية أنشط مما هى عليه الآن . فلماذا إذن تضنى الحرب الجنوب لقرن مديد بينما لم تضن ألمانيا طويلا حتى انتعشت هذا الانتعاش الهائل بعد سنوات قلائل ؟

ويبدو أن الأحوال السيئة فى الجنوب تعود إلى ما قبل الحرب فقد كان يعتمد على الاقتصاد الزراعى البائد حيث يختفى الفقر وراء العبودية كما يختفى وراء الثراء والمكانة والقوة التى تتمتع بها الطبقة القوية الحاكمة التى كانت محور الاهتمام. وبعد الحرب حين بدأ عصر التقدم الصناعى السريع بدت تلك المناطق الزراعية كما لو كانت أكثر تخلفاً ، أما الآن فقد خفت مظاهر الفقر التى سبقت الحرب بقيام طبقة استثمارية جديدة تتمتع بحياة كريمة يشارك فيها هؤلاء العبيد الذين نعموا بالحرية أخيراً .

وعلينا أن نمعن النظر فى الأسباب التى أدت إلى تأخر قيام الصناعة فى ذلك الإقليم فلربما كانت البداية متأخرة وكان للرقيق دور فى هذا التأخر. ولربما كانت الطرق التجارية أو العوامل الجغرافية أو طريقة الهجرة أو غير ذلك من الأسباب الكثيرة التى لا تعد الحرب من بينها شيئاً ما .

وغالباً ما يقال إن كل جيل يعيد كتابة تاريخه وفقاً لمشاعره والحدود التى يرتضيها لنفسه وقد يبدو ذلك نوعاً من التفاؤل الكاذب فحيثما يكون للأحداث الكبرى دخل فى الأمر يبدو الدليل واضحاً على أن هناك أيادى تلعب من وراء الستار .

الفصل السادس

الاهتمام بمنع الكارثة

كانت حقبة العشرينات أو على وجه أدق السنوات الثمانى ما بين الكساد الذى أعقب الحرب (١٩٢٠ — ١٩٢١) وانهيار البورصة فى أكتوبر ١٩٢٩ حقبة رخاء فى الولايات المتحدة ، فازدادت الحصيلة الكلية للاقتصاد بما يوازى ٥٠٪ وطلعت علينا السنوات الماضية بالسيارة ، وازداد عددها كثيراً فى أيامنا تلك ومدت الطرق كذلك لتجرى فوقها فى راحة وأمان ، وإلى تلك السنوات يرجع قيام ما يعرف بحى العمل فى مدن وسط القارة « كدى موين » و « أوماها » و « مينا بوليس » وفى تلك الأيام لا فى غيرها شيدت الفنادق الفاخرة وعمائر المكاتب العالية والمتاجر الضخمة التى ما زالت تحتل مركز الصدارة بين الأبنية . كما حفلت تلك السنوات من ناحية أخرى بكل ما هو جليل . وكلما مر الزمن اتضح أن الرخاء لا يستمر طويلاً فإنه يحمل فى طياته بذور فنائه وفيها تتبدى مشكلة الزعامة فى دراستنا لحقبة تتسم بتلك الروعة الغريبة ، فلم تتخذ خلالها أية خطوة لضبط تلك الاتجاهات التى أدت إلى الكارثة .

— ٢ —

فهناك على الأقل أربعة أخطاء سيئة وازدادت سوءاً بانقضاء تلك الحقبة . ولم تكن المعلومات عنها لتعتمد على دراسة نيرة عميقة ، وكان

ثلاثة منها على الأقل من الوضوح بمكان ، وكانت موضوعاً لمناقشات عريضة وهى كما يأتى وفقاً لترتيبها بغض النظر عن أهميتها .

وأولها أن توزيع الدخل خلال سنوات الرخاء هذه كان متبايناً إلى حد كبير . وبالرغم من أن إيراد العامل قد نما باطراد خلال تلك الفترة فان الأجور والأسعار بقيت ثابتة لا تتحرك إلا قليلاً وكان هـذا مدعاة لنمو الأرباح نمواً سريعاً وازدياد دخول الأغنياء والموسرين لهم ، واطرد هذا الاتجاه صعداً بعد المحاولات الدائبة التى كللت بالنجاح والتى قام بهـا « أندرو مللون » وزير الخزانة لخفض ضريبة الدخل على الإيرادات المرتفعة ، ففى عام ١٩٢٩ لم يتسلم سوى ٥٪ ، من ذوى الدخول الـكبيرة غير ثلث دخلهم الشخصى ومن كان فى مستواهم فقد نال نصيبه من الزيادة ، ويدلنا هذا على أن الاقتصاد قد ألقى بـكل ثقله على عاتق الموسرين سواء كانوا من نوع المستهلك المترف أو المستثمر إذا ما فـكر فى تشغيل الأموال التى يعجز عن إنفاقها على نفسه ، وأصبح مما يؤثر تأثيراً سيئاً على مستوى الإنفاق العام وبالتالى على سير الاقتصاد أن يتوجس الثرى خيفة على مستقبله أو مستقبل العمل الذى يقوم به .

وكان هذا الصدع أقلها وضوحاً ، فإن الفلاحين بكل تأكيد لم ينلهم شىء من هذا الرخاء العام فضجوا بالشكوى حتى إن الـكونجرس تقدم فى تلك الفترة مرة وأخرى بتشريع لإعانة الزراع ولـكن الرئيس كوليدج اعترض عليه . إلا أن الطوائف الأخرى كانت أقل من الفلاحين ضجيجاً . فلم يـكن توزيع الدخل عادلا فى الولايات المتحدة منذ أمد بعيد فلم يبد

ذلك غريباً فى تلك السنوات وكانت الحركة النقابية ضعيفة بدورها ولم يكن للعمل صوت مسموع وفى العشرينات الأولى كانت فترة العمل فى صناعة الصلب اثنتى عشرة ساعة فى اليوم وسبعة أيام فى الأسبوع (وكل أسبوعين فى خلال تغيير النوبة كان العامل يواصل عمله أربعاً وعشرين ساعة) ولم يكن للعمال منظمات أو قوة منظمة لتقف ضد حالة كهذه . ولم يتوقف ذلك إلا بعد أن تدخل الرئيس هاردنج بنفسه لدى شركات الصلب ، وفى كل هذه الظروف لم يسبب تراكم الدخل فى جانب واحد غير قليل من من النقد ولم يثر غير قليل من الفزع بل كان مما يثير العجب أن يحدث ذلك .

إلا أن الصدوع الثلاثة الأخرى التى ألمت بالاقتصاد كانت أقل سوءاً بكثير . ففى خلال الحرب العالمية الأولى لم تعد الولايات المتحدة أكبر مدين فى العالم بل غدت أعظم دائن له وأصبح هذا التغيير الذى انتهت إليه سمة باقية عليها تتميز بها . ومن مستلزمات البلد المدين أن يصدر بضائع تفوق قيمة وارداته ليفى بالفرق بينهما بديونه وماعليها من فوائد ، وهذا مافعلناه قبل الحرب العالمية الأولى ، ولكن الدائن يستورد من البضائع ما تفوق قيمته صادراته ، إذا كان لدى من يدينهم فائض لدفع الأصل والفائدة وإلا فعلى الدائن إما أن يعفى المدين أو يمنح قروضاً جديدة لسداد القديمة .

وفى خلال العشرينات تم التوازن بعقد قروض خارجية جديدة كانت مربحة لبيوت الاستثمارات فى الداخل ، وحين نفدت موارد المدين الأجنبى الآمن القادر دعى إلى الاقتراض من ليسوا أمناء أو قادرين أو جادين وكانت الرشوة وسيلة ناجحة فى كثير من هذه القروض . ففى عام ١٩٢٧

تسلم « جوان ليجوا » ابن دكتاتور بيرو رشوة مقدارها ٤٥٠٠٠٠ر٤ دولار من « شركة الناشونال ستى » المنبثقة من « بنك الناشونال ستى » ومن « بيت سلجمان المالى » مقابل خدماتهلهم فى إتمام قرض لبيرو تستثمره هذه البيوت يبلغ خمسين مليون دولار وفقد الأمريكيون هذا المال ولم يكسب أهل « بيرو » كثيراً وحصل غيرها من جمهوريات أمريكا اللاتينية على قروض أخرى مريبة وبوسائل هى الأخرى مريبة . ومن الواضح أن تلك القروض لن تستمر طويلا حالما يتبين المستثمر دخيلتها ، أو جد مايزعزع ثقته فيها ، وليست هناك وسيلة ما لسداد القروض القديمة إلا أن تهبط الصادرات هبوطاً شديداً أو يتوقف سداد الديون المعلقة جملة ، أو كليهما معاً . وتقع الكارثة على منتجى القمح والقطن من الفلاحين وغيرهم من الطوائف الأخرى التى تعتمد على الصادرات كما يقع على حملة السندات أيضاً ويؤدى ذلك إلى خفض القوة الشرائية لكليهما معاً ، وقد بدت هذه النتائج واضحة فى حينها .

وكانت عمليات التحايل والنصب الواسعة التى سادت الشركات طويلا هى مظهر الضعف الثانى فى اقتصادنا وقد اتخذت هذه العمليات أشكالا عديدة كان أكثرها شيوعاً أن تملك هيئة تضم عدة شركات حصة فى شركات أخرى وهذه تملك بدورها حصة فى شركات غيرها وهكذا ، ففى حالة السكك الحديدية ومرافقها كان الغرض من إقامة هذا الصرح الضخم من شركات التضامن هو ضمان السيطرة على أكبر عدد ممكن من الشركات العاملة بأقل حد من الاستثمارات فى الشركة المتضامنة ، ففى

مرفق كالسكهرباء مثلاً رأس ماله مليون دولار نصفها سندات والنصف الآخر أسهم عادية من الممكن أن يتحكم فيها استثمار يزيد قليلاً على خمسة وعشرين مليون دولار من الاستثمارات هى ما يزيد قليلا على نصف قيمة الأسهم العادية . فاذا تكونت الشركة حينئذ بنفس حجم رأس المال ليتضمن رأس المال الممثل فى هذه الأسهم التى تقدر بخمسة وعشرين مليون دولار فإن من الممكن التحكم فيها باستثمار قدره ستة ملايين دولار وربع المليون . وبنفس العملية مرة ثانية نجد أن رأس المال المطلوب أقل من مليونين ، ويظل هذان المليونان يتحكمان فى هذا الصرح بأكمله الذى يبلغ رأسماله مائة مليون دولار . وفى نهاية العشرينات كان من المألوف أن يقوم بناء الشركات المتضامنة على عدة خطوات تبلغ ستاً أو ثمانياً ومنها على سبيل المثال شركة الغاز والسكهرباء المتحدة وشركة « فان سويرنجنز » للسكك الحديدية فقد كان تكوينها فى غاية التعقيد حتى ليصعب على الإنسان أن يعيه أو يتفهمه .

وفى حالات أخرى كان تنظيم الشركات يقوم على أساس أن تكون لها ضمانات فى شركات أخرى وبذلك تضاعف من ضماناتها فى نظر الجمهور وكان هذا هو طابع الاستثمارات السكبرى ، ففى عام ١٩٢٩ استطاع « جولدمان ساكس وشركاه » وهو أحد البيوت الاستثمارية أن يدير ويقدم ما يقدر ببليون دولار من الضمانات لثلاث من المؤسسات الاستثمارية المتشابكة هى مؤسسة جولدمان وسائن التجارية ومؤسسة شيناندو ومؤسسة بلوريدج ولم تكن لتساوى شيئاً فى النهاية ، ولربما كان هذا أعظم فشل مالى منينا به فى تاريخنا .

وبقدر ما كان تهور الشركات بينا كانت خسارتها بينة كذلك فإنها تبقى طالما كانت ضمانات الربح بالنسبة للقاعدة قائمة فإذا حدث ما يخل بأرباح الشركات المتدرجة تعرضت الشركات التى تصدت لإصدار السندات للمتاعب أكثر مما تتعرض له الشركات التى تقوم على تقسيم الربح بالنسبة للحصص، فاذا توقفت هذه الأرباح اختلت السندات وانهارت الشركة ، وهذا الانهيار لا يترك أثره السيء على انتظام موالاة الشركات العاملة لأعمالها واستثماراتها فحسب وإنما يمتد هذا الأثر السيء بشكل أكبر إلى ثقة الجماعة وقابليتها للاستثمارات أو قدرتها على الإنفاق ، وتحقق هذا الاحتمال لأن البنوك فى عدد من المدن ككليفلاند ودترويت وشيكاغو بالذات قد وقعت تحت طائلة هذه المؤسسات أو أصحابها .

وأخيراً كان الرواج الذى اعترى البورصة أبرز عوامل الضعف التى ألمت باقتصادنا فقد ارتفعت الأسعار شهراً بعد شهر وسنة وراء سنة وأصبح الناس فى شغل متزايد بأحوال السوق ، ففى مايو ١٩٢٤ سجلت حصص صناعة النيويورك تيمس ١٠٦ر١ وفى نهاية العام بلغت ١٣٤ر١ وفى العام التـــالى ارتفعت إلى ١٨١ر١ وفى عام ١٩٥٧ أصبح ٢٤٥ر٢ ثم قفز إلى ٣٣١ر٣ فى نهاية العام التالى ، حتى كان عام ١٩٢٩ فشهد نوعاً من التدهور. وكان الصيف هو الذى شهد ذلك الانهيار الوهمى ففى غضون ثلاثة شهور سجلت المتوسطات ارتفاعاً آخر يبلغ ١١٠ نقطة ، وكان هذا الصيف أكثر أوقات تاريخنا المالى تهوراً ففى ختامه سجلت أسعار البورصة أربعة أضعاف ما كانت عليه منذ أربع سنوات مضت ، وتناولت الصفقات فى بورصة الأوراق المالية بنيويورك حوالى خمسة ملايين حصة أو أكثر فى

اليوم وأقفلت حصص الراديو على سعر قدره ٥٠٠ر٥ دون أن تحقق ربحاً ما إلا هذه الضمانات التقليدية الغريبة لدخل الأوراق المالية والنتيجة هى زيادة قيمة رأس المال .

وطالما كانت أرباح رأس المال هى ما ذكرنا فمن الممكن أن تتوافر فرص زيادة الأرباح عن طريق القروض المستثمرة إلى أقصى حد يسمح بتحقيق الربح ، وبذلك اتسعت الحسابات الحدية اتساعاً هائلاً فانهالت الأموال من كل أنحاء البلاد بل من كل أنحاء العالم على نيويورك لتمويل تلك الصفقات ، ففى صيف عام ١٩٢٩ بلغ المعدل الشهرى لقروض السماسرة ٠٠٠ر٠٠٠ر٤٠٠ دولار وفى سبتمبر بلغ مجموعها أكثر من ٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠٠٠ دولار وتراوح معدل الفائدة على هذه القروض من ٧ ٪ إلى ١٢ ٪ وارتفع إلى ١٥ ٪ .

وزالت موجة الرواج التى ارتبطت بذلك فلم تكن لتستمر إلا حيث تتدفق على السوق أفواج أخرى من الناس أو الأموال على الأقل بحثاً عن الربح ، فهذا التدفق الجديد يرفع من أسعار الأوراق المالية وبالتالى يحقق ربحاً حتى إذا تضعضع هذا التدفق توقف السوق عن الارتفاع وإذا توقف السوق عن الارتفاع لا تتحقق أرباح جديدة وعندئذ يقبض أكثر الناس أيديهم عن الدفع ، فإذا كنت ممن يعنيهم تشغيل المال طلباً للربح فانك تحصل عليه حتماً حينما يكون الحصول عليه مواتياً وإن كان ذلك مما يؤدى إلى نزول السوق ، وهذا بدوره يكون فى يوم ما دلالة على زيادة المبيعات سواء من جانب من يفضلون الانسحاب أو تضطرهم الظروف لبيع الأوراق المالية التى لم تعد تحقق دخلاً وبهذا يكون نزول السوق يوماً ما أمراً محتوماً

وبأسرع مما كان فى صعوده . وجاء هذا اليوم فى أكتوبر عام ١٩٢٩ فهبط السوق هبوطه الذريع وتعاقبت أيام مرعبة كان أشدها رعباً يوم الخميس ٢٤ أكتوبر ويوم الثلاثاء ٢٩ منه حيث ضاعت الملايين هباءً وقضى قضاء مبرماً على آلاف المضاربين ممن نسميهم بالمستثمرين .

وخلف ذلك آثار بعيدة المدى فقد استنكر رجال الاقتصاد أن يعزى ذلك تماماً إلى انهيار البورصة عام ١٩٢٩ ، وهذه هى المأساة ، فقد كانت عوامل الانهيار الذى حدث بعد ذلك أشد فى الحقيقة من هذا فانهيار البورصة كان عاملاً مهماً فى واقع الأمر فإنه كشف عن مكامن الخلل الاقتصادى فقد انتهت القروض الخارجية التى يرتكز عليها ميزان المدفوعات وتصدع البناء الهش الذى يقوم عليه رأس مال الشركات وتبددت الاستثمارات المالية ، ووسم الانهيار القروض الاستثمارية وبالتالى تكاليف الإنتاج بسمة بارزة كما خلص الاقتصاد من بضعة بلايين من نفقات المستهلك كانت تأتيه من المضاربة فى البورصة أو الربح الذى يعود عليه منها أو يشجعه هذا الربح عليها ، فقد كان الانهيار مدمراً إلى حد بعيد .

ولم يكن هذا الدمار مرئياً بقدر ما كان ملحوظاً من قبل أن سيطر جنون المضاربة لعدة شهور على الحياة الأمريكية التى سجل تاريخها نوبات عديدة من هذا الجنون قبل ذلك . ولم تكن النتيجة دائماً أسى عابراً بل قارعة مؤسية . ومن الناس من كان يعلم ومنهم رئيس الولايات المتحدة عام ١٩٢٩ نفسه أنها ستكون القارعة أيضاً .

— ٣ —

فمن نلوم ممن يتصدون للقيادة حين تركوا قرصنة الشركات ورواج

وولستريت والدمار المتزايد فى الميزان التجارى جميعاً بالإضافة إلى الاهتمام الضئيل بتوزيع الدخل ، تجتار طريقها دون عائق نحو الـكارثة النهائية ؟

بدأ هذا الاضطراب الذى أدى إلى تلك المتاعب فى النهاية عندما بدأ الدم يتخثر فى عروق هذا الرجل الحزين المجرد من الفهم « وارين هاردنج » الذى مات فى الثالث من أغسطس عام ١٩٢٣ ، والموت وحده هو الذى يمكن يعفيه من مغبة عمله ، فمن الناس من يرى أن سياسته كانت سيئة . فلم يكن لهاردنج تلك النظرة الصائبة للاتجاهات الاقتصادية التى كان يشرف عليها فقد مات وهو مدين لسمساره بمائة وثمانين ألفاً من الدولارات تحت حسابات معماة حيث كان يضارب بجنون فى البورصة خلال رياسته ولا يستطيع أحد من هذا الطراز أن يتوقع موجة التهور المالى القادمة . ومن وزارته أثنان طلب إليهما أن يدافعا عما نسب إليهما من اتهامات تتصل بعملهما الرسمى هما وزير الداخلية والنائب العام وقد أدين الأول وحكم عليه بالسجن . ومما نسب إلى هاردنج أيضاً أنه عين صاحباً له من مسقط رأسه هو « دانيل كريسنجر » وزيراً مراقباً للمصروفات بالرغم من أن مؤهله لهذا العمل كما وصفه أحد مؤرخيه هو أنه كان يسرق ثمار الشمام هو وهاردنج أيام كانا صغيرين ، فلما واتته هذه الفرصة الواسعة ليستعرض عجزه فى أول وظيفة يتولاها وضع على رأس الهيئة الفيدرالية للاحتياطى ليحمل المسئولية المركزية فى دفع هذه الـكارثة . ومن أمثـال كريسنجر ومن كانوا على شاكلته كان جاك دمبسى وبول هويتمان وسكوت فيتزالد . إلا أن هاردنج مات قبل أن تقع الـكارثة ويقدر ما خلف وراءه من المسئولية للعاجزين خلف

أيضاً بعض القادرين من أمثال « تشارلس ايفانز هيوز » وزير الخارجية و « هربرت هوفر » وزير التجارة و « هنرى دلاس » وزير الزراعة فقد كانوا جميعاً خداماً للحق والعدالة وكانوا أكثر قدرة ممن يحتلون مثل مناصبهم فى حكومة أيزنهاور .

— ٤ —

وكانت مسئولية هربرت هوفر أكثر تعقيداً فقد جاء إلى الرئاسة فى الرابع من مارس سنة ١٩٢٩ ويبدو لأول وهلة أنه جاء متأخراً ليقوم بعمل حاسم فقد وقعت الكارثة ومهما تأخر الانهيار أو تقدم فقد كان وقوعه كما قال هوفر أمراً مقضياً . إلا أن مهمة هاردنج وهو ما نمت عنه مذكراته دون أن يصرح به فقد كان فى أعماقه من الألم ما لم يدع له مجالاً للشرح أو حتى تلمس الأعذار لنفسه .

ولم يكن هوفر جديداً على واشنطون فقد كان وزيراً للتجارة فى رياسة هاردنج وكوليدج وكان لمدة ثمانى سنوات أبرز المسئولين وأقواهم ولا يستثنى من ذلك الرئيس نفسه ، وكان يتبين تماماً هذا الذى يجرى ، ففى عام ١٩٢٢ كتب إلى « هيوز » يبدى تخوفه من طبيعة هذه القروض الأجنبية التى تنثال على نيويورك وكان كثيراً ما يعود إلى تناول هذا الموضوع فقد كتب بعد ذلك إلى زملائه فى العمل بما فيهم كريسنجر نفسه يبدى انزعاجه من استهتار « وول ستريت » إلا أنه كان قانعاً بذلك فلم يزد على كتابة الرسائل أو المذكرات أو إلقاء خطاب فى مناسبة ما على الأكثر كما حدث عندما تكلم عن القروض الأجنبية ، بينما كان يستطيع بكل

كياسة أن يعرض آراءه على الكونجرس كما كان يستطيع أن يثيرها عاصفة مدوية فى الدوائر الرسمية وأن ينبه الشعب إلى الخطر الذى يراه ولكنه لم يفعل شيئاً وانطوى على آرائه انطواءً تاماً فلم يتبين أرباب المال منها شيئاً حتى احتفلوا بانتخابه وتنصيبه احتفالاً زاخراً ولكنه كان يدرك أنه وسط المعمعة وأنه يدرك عواقبها كما يقول وساق النذر عنها ولكن لم يبق غير الحطام . وحتى مارس ١٩٢٩ — ولم يكن هناك ما يحول دون وقوع الانهيار — كان الرجل صادق النية فى أن يقوم بعمل ما ، ولم يكن هناك ما يعدل هذا الأمر أهمية ، وكان من المتوقع أن تتجمع كل مقومات اللجنة التنفيذية للبحث عما يمكن أن يسكن من حدة التيار وأن يروض الأعصار القادم وأن يتقدم أصحاب البنوك وزعماء الكونجرس وخبراء النقد للانقاذ ، ولكن شيئاً من ذلك لم يتم وظن هوفر أن « ميللون » — كما قال بعد ذلك — هو الذى عاقه عن العمل ولكنه أبقى ميللون فى منصبه . واستدعى « هنرى روبصون » وكان رجلا مواتياً مستجيباً من أصحاب البنوك فى لوس أنجلوس إلى نيويوك ليرى الأمر مع أقرانه هناك للوصول إلى حل ثم رجع ليعلن أن أصحاب البنوك فى نيويورك يرون أن الحال على ما يرام ، كما دعى « ريتشارد هويتنى » نائب مدير بورصة الأوراق المالية إلى مؤتمر البيت الأبيض للنظر فى الحد من المضاربة فلم يحدث بدوره أمراً وكان هويتنى يرى هو الآخر أن الأمور على مايرام . ويرى هوفر ومن كتبوا سيرته من الرسميين أن وزر ماحدث فى نيويورك لايقع على كاهل واشنطون ولكنه يقع على كاهل حاكم نيويورك « فرانكلين روزفلت » فهو الذى تقاعس عن القيام بمسئولياته ولكنه رأى لا يجد مقنعاً فإن

الأمر لم يكن يعنى نيورك وحدها كما يعنى البلد كله وكان هوفرهو الرئيس المسئول لهذا البلد فإذا كانت تنقصه السلطة التى تتمشى مع مسئولياته فقد كان فى قدرته أن ينالهـا وهذا ما فعله روزفلت فى وقت آخر بعد ذلك .

وأخيراً عندما أصبح انهيارالبورصة ضربة لازب فى مارس ١٩٢٩ ، ظل من اليسير اتخاذ بعض ما من شأنه الحد من الاضطرابات الأخرى المتراكمة ، ومنها ميزان المدفوعات وكان من الحالات البارزة ففى عام ١٩٣١ طلب هوفر تأجيل دفع ديون الحرب لمدة عام واحـد وكان ذلك عملا جريئاً وخطوة إيجابية مست صميم المشكلة تمـاماً ، ولـكنه كان قد أصدر بعد تردد فى العام السابق تعريفة « سموت هاولى » وحمل حزبه مسئوليتها حين قال « إنى أوافق على مرسوم التعريفة فقد تعهد بهـا الجمهوريون من قبل فى مدينة كانساس ومن الواجب ألا تذهب الوعود التى تتضمنها الخطب هباء » . وليس هناك خطوة تتخذ لتجعل الأمور أسوأ ممـا هى عليه كما كانت هذه الخطوة فقد وجدت البلاد فى الحصول على الدولارات التى كانت فى أشد الحاجة إليها كثيراً من العناء ، وأثار هذا العمل تعليق المئات من الناس من أول « البرت واجن » مدير بنك « ناشونال تشيس » إلى « جاريسون فللارد » رئيس تحرير « نيشن » . إلا أن هوفر لم يتردد فى توقيع المرسوم

— ٥ —

يعرف كل منه له صلة بذلك النوع من الرجال أمثال « كولفن كوليدج » أن الملامح الصارمة الجامدة الغامضة يمكن أن تـكون قناعاً يستتر وراءه

نوع من الذكاء الهادئ المتميز الحاد ، كما يعرف أيضاً أنها يمكن أن تكون ستاراً يختفي وراءه عقل فريد في بلادته . والذي ينجم عن ذلك الغموض هو صعوبة التعرف على الوجه الصحيح منهما ولكنه بالنسبة لكوليدج كان ينم عن الذكاء ولا ينم عن البلادة . فقد كان يدرك كنه ما يحدث بطريقة ما ونادراً ما كان يجهل ما يعرف بسوق كوليدج إلا أنه لم يربط بين التنمية ورخاء الشعب ولا بينهما وبين مسئولياته ولقد أبدى في مذكراته كيف كان يتصل بالأحداث إلى أبعد حد وكيف كان يتبين نتائجها وتظهر في ترجمة حياته — وإن كانت لا تعني شيئاً — انه لم يكن يعنى إطلاقاً بالمشاكل المتراكمة ولم يكن ليهتم إلا بمثل تلك الحقائق التي لا تحتاج إلى بيان « كوجوده على رأس الدولة » فحياة الرئاسة مليئة بالنشاط (وإن لم يكن هذا صحيحاً بالنسبة له) فالكونجرس هو الذي يسن القوانين ولكن الرئيس هو الذي يضعها موضع التنفيذ .

ولقد زاره عديد من الناس مرات عديدة خلال مدة رئاسته ينذرونه بالخطر الوثيق فاستدعى أمام ضغط مساعديه بالبيت الأبيض «وليم ريبلى» من هارفارد وكان أعظم ناقد في عصره يستطيع أن يفصح عن تحاليل الشركات ، وأنصت إليه الرئيس باهتمام وهو يصف — كما قال ريبلى أخيراً — الغش والخداع والتدليس والشعوذة والنصب في وول ستريت . ولقد سأل الرئيس «ريبلى» أن يتناول معه الغداء حتى يستطيع أن يدلى إليه بتفصيلات أوفى إلا أن ريبلى أخطأ في تعريف الرئيس بواجب الحكومة في ذلك وعندئذ أغضى كوليدج عن متابعته . أما مساعدوه فلم يذهبوا إلى أبعد من ذلك .

وفى أحايين كثيرة كان كوليدج يزيد النار اشتعالاً ، فعند ما يبدو هادئاً يأتى تصريح من البيت الأبيض أو على لسان « ميللون » يزيده اشتعالاً وأشار « ولم آلن هوايت » وهو ناقد معارض إلى أن السوق كان يسجل ارتفاعاً مقداره ٢٫٦ نقطة بعد كل تصريح من هذا واستطرد يقول فى نوع من المغالاة إن بحثاً دقيقاً ، « خلال تلك السنوات اليسيرة » يكشف عن تلك الحقيقة ، فحينما تنم البورصة عن علامات الضعف يصدر الرئيس أو وزير الخزانة أو أحد الرجال البارزين فى الوزارة تصريحاً يقول فيه إن الحال على ما يرام وأن الرخاء الدائم وشيك الوقوع وأن التدهور رهن بساعته .

وتلك كانت طريقة كوليدج وكم كان يقوم بترديد هذا القول وهو « أنك إذا قابلت عشرة أخطار قادمة فإن تسعاً منها تتهاوى قبل أن تصل إليك ويبقى واحد منها لمواجهتك » وعلق أحد ناقديه على ذلك بقوله « إن وجه الخطأ فى تلك الفلسفة هو فيما لو واجهتك الأخطار العشرة مجتمعة فإنك لن تكون على أهبة الاستعداد لها . . . وكان الخطر البارز هو الاستهتار والمغالاة فى جنون المضاربة الذى بدأ عام ١٩٢٧ ، وكان هذا الناقد « هربرت هوفر » .

— ٦ —

ويبرز فشل القيادة واضحاً فى تلك السنوات ، فالأحداث المؤسية التى بلغت ذروتها والتى كان فى استطاعتنا أن نتبينها ثم تبيناها هى التى أدت فى النهاية إلى تلك المأساة التى عانتها بلادنا كما عاناها العالم معها وكادت تودى بمكانة الرأسمالية نفسها فإن قدر لها البقاء خلال تلك السنوات فلم

يكن ذلك لقوتها أو مكانتها وإنما لعدم وجود النظام المقبول الذى يحل محلها . وعلينا أن نتساءل ، هل كان فى قدرة القيادة حتى لو كانت قوية أن تمنع الانهيار ؟ أم تكن القوى المضادة أشد مضاء ؟ ألسنا فى هذا كمن ينشد المستحيل ؟

ولا تتوقف الإجابة على شخص الرئيس بقدر ما تتوقف على الظروف السياسية والاجتماعية التى يجد نفسه فيها أياً كان هو ، وهذه الظروف التى وجد كل من كوليدج وهوفر نفسه فيها وإن كانت إلى حد ما من صنعهما تجعل من المحال قيام قيادة حازمة قوية فهناك الرجعية القوية فى الإدارة فضلا عن رجال الأعمال أنفسهم وإذا وضعنا فى الاعتبار طبيعة الأداة التنفيذية للأعمال الكبرى فى المصالح الحكومية فإننا نخرج بقاعدة عامة موثوق بصحتها وهى الإحجام عن التعرض لخطر مجهول ، وطالما أن الخطر لم يقع فمن المحتمل ألا يقع وعلى الإنسان إذن أن يترقب ما تأتى به الأمور خيراً من أن يتعجلها .

وهذه الغريزة أصيلة فى النفس ففى عام ١٩٢٩ كان هذا الإيمان العميق بالاقتصاد الحر والذى ما زال مستمراً إلى اليوم يسود عقيدة المحافظين ومن ينشد غير ذلك فهو مريب يتدخل فيما لا يعنيه وإن كان ممن يعنون بالأمور أو فى الواقع ممن يضعون الخطط فلم يكن هناك ظاهرة عامة فى الحقيقة أهم من ظاهرة القضاء على الاقترحات التى تستهدف القيام بعمل غير مطلوب ، وإن كان من الواجب التمييز بين التخطيط والعمل غير المطلوب فإن رجل الأعمال البارز الذى يحتل وظيفة قيادية فى المراكز العليا يتجه عادة إلى معارضة الإثنين معاً .

وقد كان أندرو ميللون وزير الخزانة — دون أن يستثنى حتى من ذلك الوزير « البرت فول » — أسوأ إنسان فى عهد هاردنج وكوليدج وهوفر فقد عارض كل عمل يرمى إلى كبح الرواج وإن كان قد اضطر عام ١٩٢٩ للتصريح بأن السندات (كشىء متميز عن الأسهم العامة) كانت صفقه طيبة . وحين وقع الانهيار كان ضد أى عمل يتعرض له ، حتى لقد صدم هوفر إصراره على أن العلاج الوحيد للأزمة الاقتصادية هو (كما وصفها هوفر نفسه) تصفية العمل ، وتصفية رؤوس الأموال ، وتصفية الفلاحين وتصفية العقارات ، إلا أن ميللون أخذ يعكس بصورة واضحة اهتمامه بإقامة الدليل على أن الأعداء الحقيقيين هم الذين زجوا بأنفسهم فى الأمر فانتهوا به إلى تلك النتيجة . ولم يكن موقفه من الناحية الجوهرية مختلفاً أو حتى أكثر جهالة من موقف كبار رجال الأعمال الذين قاوموا فكرة تحديد إنتاج السيارات لزيادة إنتاج الأسلحة فى أوائل الحرب العالمية الثانية ، أومن أولئك الذين شايعوا أخيراً « جورج همفرى » و « تشارلس ويلسون » فى ادعائهما الصادق بأن الخطر الأكبر الذى يتهدد سلامه البلاد يأتى من تأييد البرامج الفيدرالية المرهقة التكاليف وأن الخطر الحقيقى الذى يتهدد كياننا القومى يأتى من جانب هؤلاء الذين يصرفوننا نحو لون غير محدد من الإفلاس القومى ومن الواضح أن الرئيس الذى يحيط نفسه بمثل تلك البطانة يجعل نفسه رهينة للجمود . ورجل الإدارة العظيم فى الاصطلاح الشعبي هو من يكون رمزاً على العمل وهو القادر على تصريف الأمور. أما فى واشنطون فهو على العكس من لم يكن كذلك .

ولا يمكن للحكومة فضلاً عن ذلك ، أن تكون بعيدة عن هذه الأمور ولا يمكن لرجال الحكومة أن يفصلوا تلقائياً عن محيطهم الخارجى فلهم أصدقاؤهم ومازالوا خاضعين ، قل أو كثر ذلك ، لضغط وإملاء من يتصل بهم من الناس أو الجماعات التى ينتسبون إليها . ففى العشرينات كانت مجموعة رجال الأعمال والبنوك خارج واشنطون أو البارزين منهم على الأقل يقاومون مقاومة عامة كل تدخل حكومى ، وتعرضوا بالنقد العنيف للخطوات الضئيلة التى وضعها البنك المركزى موضع التجربة لوقف الأزمة المالية . وفى ربيع ١٩٢٩ عند ماكان نظام الاحتياطى على أهبة الاستعداد لاتخاذ إجراءات حاسمة كان هناك ضيق متوقع فى معدل الأموال المخصصة لابتياع الأوراق المالية وهبوط حاد فى السوق فبادر « تشارلس متشل » رئيس مجلس إدارة بنك ناشونال سيتى من نفسه بمد السوق باعتمادات مالية جديدة ، فقد كان عليه التزام رئيسى بحماية الاحتياطى المركزى من كل نذير ليحول بين الأزمة والسوق المالية ، وكان مديراً للبنك المركزى فى نيويورك ، وفى نفس الوقت من ربيع ذلك العام هب «بول واربرج» أحد الأجلاء من قادة وول ستريت ، منذراً بالخطر ودعا إلى وقفه فواجه عاصفة من النقد والإساءة ، واعترف بعد ذلك بأن الأيام التالية كانت أسوأ أيام حياته ، والتزم الآخرون الصمت تجنباً لمثل هذا الموقف .

إلا أن هذه المعارضة للتدخل الحكومى عام ١٩٢٩ ، كما يجب أن نعرف ، لم تجد من يتشيع لها كلية فإن «إجون راسكوب » وهو من أعظم رجال وول ستريت كما كان رئيس اللجنة الأهلية الديمقراطية قد شرح دون أن يدعو إلى التدخل كيف يمكن لأى إنسان أن يكون مليونيراً عن

طريق المضاربة فى البورصة بل إن هذا هو ما يتم حتماً . ولم تتحمس الصحافة لإصدار تشريع يضبط شركات التوصية وشركات الاستثمار أو تكون له سلطة تنظيم التجارة التى لا تحقق ربحاً بينما كانت الصفحات المالية فى الجرائد توالى أنباء الأزمة ولم تلق من قبل أو منذ ذلك الوقت مثل هذه الإثارة فى صفحاتها أو مثل هذا الانفعال لدى قرائها .

وبالاختصار لقى كل معاونى الرئيس معارضة تامة للقيام بعمل يؤخر وقوع الكارثة أو يخفف من حدتها ، وتحت هذه الظروف كان من العسير على كوليدج وهوفر القيام بأى عمل وقائى مثمر وإلا فإن عليهم أن يخصموا جماعة هم بعض دعائمها الأساسية .

إلا أن رئيساً آخر فى ملحمة أخرى كان كفئاً لذلك ، فنى تلك السنوات كان كثير من رجال الكونجرس يتعدون حدود النقد فى الجملة على مضاربات « وول ستريت » وعلى تحايل الشركات . فالجمهوريون الأحرار الذين نعتهم السناتور « جورج موسز » بالغباء وأنهم كالبغال ، كانوا بالذات أشد الناس انفعالا بالأزمة كأكثر الشخصيات المحافظة أمثال كارتر جلاس ، فقد أحس هؤلاء الناس إحساساً صحيحاً بالخطأ السادر وأن رئيساً كويلسون أو الرئيس روزفلت — وإن كان الأمر بالنسبة لتيودور غير مؤكد كما هو بالنسبة لفرانكلين — لجدير بأن يستمع إلى نقد أمثال هؤلاء الناس الذين يشكلون وزارته ، وأنه كرجل على رأسهم لقمين بأن يضفى على نقدهم القوة وأن يستمد منه القوة لجلائل الأعمال ، ويستطيع بذلك أن يقضى على كل بادرة للتخريب أو التهور حالما تظهر .

واتخذ ما نجم من هذا الصراع مع دوائر الأعمال والبنوك والصحافة من المشكلة وما تلاها من أحداث ، مأساة تلعب فيها الحكومة الأمريكية أعظم أدوارها وإن كان من المحتمل ألا تكتمل أدوارها إلا عندما تكون الإدارة الفيدرالية ودوائر الأعمال الهامة والصحافة كل منها إلى حد ما على طرفى نقيض . وحينئذ فقط يصبح من المؤكد أن المذمة والتجاهل حكومياً كان أو أهلياً يكون على درجة من السوء الذى تحتاجه المأساة ، ولكنها على العكس كانت متعاونة متحدة فى عهد كوليدج وهوفر وهو العهد الذى بدا فيه كل شىء فى تاريخنا الديمقراطى متآخياً بينما هو سادر فى الخطأ .

ولا أرى وجهاً للاصرار على أن النقد والعمل المجديين فى حينهما ، وهما نتاج سلطة ضعيفة وتأثير ضئيل ، كانا من الممكن أن يجنبانا هذا الكساد الكبير ، فقد كان مما يعوز الولايات المتحدة فى ذلك الوقت أن تلمس الدليل وأية صورة على هذا الكساد . ولكن كان من المحتمل كإجراء وقائى يتخذ حينذاك بالنسبة للمضاربة وشركات التوصية وميزان المدفوعات أن يخفف من عنف الكساد المتوقع ، فإذا تم ذلك فإن العناء الذى لقيه أرباب البنوك ورجال الأعمال فيما بعد أمام لجان الكونجرس وفى المحاكم وأمام الرأى العام كان من الممكن أن يكون أقل عنفاً ، وهنا يكمن التناقض الكبير ففى كل مراحل التاريخ لم يكن هناك ما هو أشد ضرراً لرجال الأعمال من تلك المجموعة من الناس التى التفت حول « كالفن كوليدج » وراحت تمجده وتعاونه بما دعاه « وليم آلن

هوايت » هذا الركود المتقن الذى زود نفسه به تزويداً رائعاً . أما خير أصدقائهم فكانوا أولئك الذين اعتبروهم فى ذلك الوقت شر أعدائهم حينما طالبوا باتخاذ إجراء مناسب .

ويبدو أن العناية الالهية فى تدبيرها لسياسة الولايات المتحدة لم تهدها إلى البساطة .

الفصل السابع

البناء ورجل الحكم

لبضعة أعوام خلت فى لندن انتهت فجأة حياة شخصية نابهة عامة فكان لأفولها على هذا النمط معنى لكل إنسان فى الحياة . فالتهويل والخيال قد خلقا من تلك الشخصية المتواضعة السجايا صورة تاريخية خالدة ، وحين عرف الناس الحقيقة واكتشفوا أنهم قد غُرر بهم كان رد الفعل العكسى ، فتحول التمجيد والإعجاب إلى التشهير والازدراء وإن لم يكن لتلك الشخصية ما تُلام عليه ، وإن كانت هى التى حملت الوزر وحدها دون المشايعين الذين أضفوا عليها هذه الصورة الزائفة وهذه هى طبيعة الأشياء .

وتلك الشخصية التى أعنيها هى إنسان «بلتدون» Piltdown Man كما يدعوه بعض علماء السلالات ، فحين تم الكشف عنه نحتت منه شخصية لم تكن له فى الحقيقة ، فقيل إنه يرجع إلى خمسة آلاف سنة مضت وأنه الجد الأعلى للانسان ، ثم عرف أنه يرجع فى الحقيقة إلى خمسين ألف سنة وأن فكه كفك شمبانزى حديث ذى أسنان صناعية . وليست خمسون ألف سنة بالعمر المديد لجمجمة قد لا نجد لها مكانا إلا فى متحف من متاحف الأقاليم . إلا أن المتشيعين لإنسان بلتدون لم يرضوا بذلك وأخذوا يدعمون قضيتهم . وكما يحدث عادة لتلك الشخصيات العامة فإن ذلك قد أدى إلى نهايتها .

ومما يغرى الأمريكيين أن هذه الضجة التى أثيرت حول إنسان بلتدون

إكباراً وتصغيراً ، قد حدثت فى انجلترا ، وأنها ليس ظاهرة أمريكية يشتهر بها الأمريكيون فحسب ، ومع ذلك فإن هناك بعض الشك فى أن المقالات الشاذة فى تجسيم الشخصيات العامة هى بعض ما ألفناه فى نظامنا السياسى دون البلاد الأخرى أو البلاد الديمقراطية على الأقل . وهى التى تنجم عنها بالنسبة لنا وحدنا النتائج السياسية الكبرى . وقد آن الأوان لاختبار هذا البناء ككل متماسك فى حياتنا السياسية مع وجود حزبين لكل حزب منهما هيئته الناخبة ومؤتمراته الانتخابية .

— ٢ —

ويقوم هذا البناء كما عرفنا على نسبة صفة للشخصية العامة ليست لها فى الحقيقة ، وهو من صورتين ، ولكنهما بقيا دون تسمية .فإن علماء السياسة يحذرون حتى اليوم التعرض لمثل هذه الظواهر ، إلا أننا نستطيع أن نسمى الصورة الأولى بالبناء التخطيطى والثانية بالبناء الاستقلالى . إلا أن هذا التحديد ليس مطلقاً .

والبناء التخطيطى أكثر وضوحاً ويقوم كما تعنى التسمية على إدماج كل ما يتصل بالسمعة العامة بعضه فى بعض كما لو كانت تصميماً مقصوداً وفى أغلب هذه الحالات — ويكون إنسان بلتدون فى هذا المقام استثناء ً ترى الفرد نفسه شريكاً فى الجهد ، وفى بعض الحالات يضمن الثمن وغالباً ما يكون عبارة عن المصروفات المحتملة .

فالبناء التخطيطى ظاهرة ملحوظة تلقى من الناحية الفنية مزيداً من الرعاية والاهتمام فى زمننا هذا ، ولكنها أيضاً محدودة الذات إلى حد ما

فى تأثيرها ، فالإنسان الذى يستأجر إخصائياً فى العلاقات العامة ليؤثر فى الناس بذكائه أو شخصيته الحية أو حبه العميق للمصلحة العامة يبدو كما لو كان إنساناً يستأجر مؤسسة للعلاقات العامة للقيام بهذه الأشياء ، ولا يجزى نفس هذا العمل حذقاً ومهارة إذا ما قام به بعض الأصدقاء أو الصحاب دون الالتجاء إلى المحترفين . فهناك من الأسباب العديدة ما ينتقص من قدرة الأفراد الذين يتكاتفون للاعلان عن براعة وأريحية جانب ثالث إذا لم يكن لأحد منهم مصلحة ذاتية فيه . وليس هناك ولا حتى فى الشيوعيين من الناس من يستريب الأمور بحذق وبراعة . وفضلا عن ذلك فان من النادر أن يكون هؤلاء الذين يكلون عملية البناء إلى صديق طرازاً كتوماً من الناس سواء فى طريقتهم أو فى دوافعهم ، فإنهم على السواء من ذوى الطبائع المنبسطة فى المباهاة بطريقتهم ودوافعهم .

إلا أن البناء التخطيطى لا يخلو من الأهمية أو الخطر فلا يمكن أن يكون صالحاً تماماً لقيام صناعة ضخمة تبتغى الضرر بالأكثرية لمصلحة الأقلية ، فقد لوحظ فى واشنطون أثناء الحرب العالمية الثانية أن الرجل الذى يتكلف ذريعة لرفع الأسعار أو لزيادة تجميع المواد النادرة يواجه فى العادة ظروفاً أطيب مما يواجهها رجل أمين يتقدم لنفس العمل ، بل إنه ليفيد أكثر مما يفيد صاحبه . ولدينا الفرصة سانحة للحصول فى يوم من هذه الأيام على تلك الشخصيات التى تستريب الأمور والتى تتفوق بجاذبيتها الشعبية على أصالة الآخرين ، ومن المحتمل أن تكون تلك الشخصيات قائمة فعلا ، وعندئذ سيكون الاختيار أخرق سواء اخترنا المأفون أو عينا العاقل ، فإذا كان لنا من تجربتنا الحديثة مرشد وهاد فان لدينا

الكثير مما نخشاه فى هذا النوع من البناء الذى تتضاءل فيه أصول التخطيط وإن كانت لا تختفى عادة . أما هذا النوع الثانى من البناء وهو البناء الاستقلالى فها كه .

— ٣ —

والرجل البارز للعيان هو الذى تخطر على باله دائماً فكرة البناء الاستقلالى . وهو إما أن يكون قد ظفر بشىء من التقدير العام لقيامه بوظيفة صعبة هامة فى دائرة معينة من المجهودات الحكومية أو أنه بدأ بداية طيبة فى هذه الوظيفة أو كما يحدث عادة قد حصل على وظيفة حكومية بعد عمل حر كان موضع التقدير فيه ، وحينئذ يكون البناء ، فهو إنسان قد تبلور بلورة تامة فلم يعد إنساناً فحسب بل غدا هذا النوع من الناس الذى نسميه بالسوبر مان . وإن غرابة أطواره لتعد دليلاً على تماسك شخصيته وليست هواياته إلا واحة يستفىء إليها فكر دائب عميق وما زوجته إلا ملاك رحيم هادىء وشريك مطواع فاذا تقلب بين عدد من الزوجات فهو موضع الأسى والعطف ، وإذا امتنع عن تناول المسكرات فهو رجل حازم ، صلب قد كرس حياته لعمله ، وإذا أقبل عليها فهو رجل لا ينقصه الحنان ولا تعوزه العواطف الإنسانية . ولكن أعظم ما فى هذا كله استعداده للوظيفة التى يحتلها فحيث يتعثر الآخرون تكون عنده الحلول وهذا لأنه قد أوتى القدرة على التفريق بين ماهو ضرورى وما هو غير ضرورى ليقصد إلى المرمى مباشرة دون كد أو عناء فان الخطأ الذى يتردى فيه من هم دونه هو أنهم لا يدركون أن عليهم أن يختاروا دائماً بين شيئين كل منهما أعسر من الآخر .

ولا يتأتى البناء عادة إلا حين يحزب الأمر وتتعدد المشكلات وتتفاقم ، فإذا لم نعرف كيف نسيطر على الطاقة النووية ، أو نوفر حاجتنا من المصروفات الضرورية ، أو نوازن الميزانية ، أو نتخلص من فائض المحاصيل الزراعية ، أو نلحق بالروس فى كشف الفضاء فحينئذ ترانا فى مسيس الحاجة لخلق هؤلاء الناس الذين يقومون بهذه الأعمال . وتساعد شبكة الإعلام على ذلك فهى على الدوام ذات حساسية بالغة لما يحتاجه الناس فإذا اضطلعت بالأمر فإنها مهما كانت حصيلتها تستطيع أن تعثر على الحاكم المبرز الذى يدرك حاجتنا .

ولا تعد مهمة مثل هذا الحاكم يسيرة فتقلبات الوظيفة كثيرة جداً ، لأنه إذا كان من اليسير أن نضع إنساناً فى القمة فمن العسير أن يظل محتفظاً بمكانه فيها . وحيث أن البناء لا يفرق فى الاختيار فقد يكشف عن قصور مفجع فى طبيعة البناء ويكون الكشف عنها فى طبيعة البناء الذى يقيم عليه الجمهور آمالاً جساماً .

— ٤ —

وكانت سنوات الكساد الكبير كما كانت سنوات الحرب حافلة بالمتاعب وهى السنوات التى يمكن أن يكون البناء فيها عظيما أو محفوفاً بالخطر ، ولقد كان من حسن الطالع الشخصى للرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت أن المطلوب منه كان أقل مما كان مطلوباً من الرؤساء الذين تولوا هذا المنصب (وإن جرده ليمان من كل مؤهل إلا رغبته فى المنصب) ، ولكن سرعان ما وجد رجاله أنفسهم ضالعين بمخاطر البناء . ولفترة وجيزة من عام ١٩٣٣ ظهر « رايموند مولى » المبعوث الخاص إلى المؤتمر

الاقتصادى بلندن كما لو كان الرجل الذى يمسك بيديه مقاليد السياسة الاقتصادية للعالم ، ومن المستحيل أن يكون لهذا الرجل الأوحد تلك القوة الخارقة أو تلك الطاقة التى يستغلها لمثل هذه الغاية الكريمة وسرعان ما بدت تلك الاستحالة واضحة . وقد أدار البناء عقل « هيو جونسون » وقذف به إلى الكارثة ، والبناء نفسه هو الذى جعل من « دونالد ريتشبرج » لوقت ما مساعداً للرئيس وصنع منه شخصية أعظم مما كانت « للكولونيل هاوس » وبه غدا « جيمس فارلى » فى فترة ما ساحر السياسة الأعظم بعد « مترنيج » . ومما هو موضع الشك ، كما يحدث عادة أن تظل الضحية دون إقناع ، فإن موقفه الرفيع من روزفلت وهو ممن يعدون من أنصع الناس تاريخاً ، لم ينته إلى نتيجة طيبة. فعند اقتراب الحرب أصبح كل من « كاندسن » و « متيتينوس » ، « ونلسون » على رأس القائمة التى يمكن أن تعد لأولئك الذين يضطلعون بتسليح الجمهورية فى أقصر وقت وبأقل مشقة ، فقد ذاق الجميع مرارة الفشل فى العمل تبعاً لتلك المقدرات العسيرة لعملية البناء . وفى تلك السنوات أصبح « هنرى ولاس » وزير الزراعة المنتج وأحد رجال العلم القادرين ، بنجاحه فى عملية البناء ، المخلص المتحرر ذا النظرة العالمية السامقة ، وبالرغم من أن البناء يبدو لأى رجل محافظ لا تطغى قدرته على مكانته ، كما لو كان خطراً غريباً ، فإنه ليس بهذه الدرجة من التهديد للمؤيدين من أصحاب اليمين .

ومن بين رجال النظام الجديد شخصية نادرة أيضاً استطاعت أن تدرك البناء على هذا الأساس وتعرف ما يمكن أن يصنعه لإنسان ، وقد أشار « هارولد ايكس » فى مذكراته إلى ما اعتراه من هم عند ما صدم البناء شخصيته وتماسكه ، فإن مشكلة هذا الرجل الأمين كما لاحظها ،

كانت فى أن البناء قد جعله أقل مما يحب لنفسه من الاستقامة الكاملة . ومن الواضح أنه صرف وقتاً ليس بالقليل فى انتظار أن يؤخذ بهنة ما يمكن أن تعدها عليه « صحيفة شيكاغو تريبون » ، فما أحسن ألا يعد الإنسان مثالا رفيعاً للاستقامة والأمانة .

— ٥ —

ولقد كانت المشاكل التى واجهتها « حكومة أيزنهاور » من أقرب الناس إليها كالمشاكل التى كان على روزفلت أن يعالجها ربكة وتعقيداً ، وكان التهجم عليهما من جانب المحافظين واحداً ، وليس هناك أيسر من أن تتصور أن المشاكل المعقدة قد حلتها أيد أمينة قادرة ، وفى الوقت الذى أخذت نية هذه الحكومة باستخدام العناصر المواتية الملائمة كانت الصحافة تفضل بشكل واضح العمل مع الجمهوريين ونتيجة لذلك كان البناء كارثة لكل من عمل مع أيزنهاور .

وكان « تشارلس ويلسون » وزير الدفاع أول الضحايا دون جدال ، وليس هناك دليل واضح على أنه كان أسوأ من تولوا هذا المنصب من قبل أو من بعد ، فأخطاء البنتاجون كتلك البيروقراطية المتفشية والتنافس الشائع والقصور الفنى ، كانت قبل أن يتولى المنصب ، وحين تركه كانت أسوأ من حيث الدرجة فحسب ، إلا أن سمعة « ويلسون » كأبرز من عرفوا بعدم الكفاية بين رجال عصره لم تكن موضع خلاف ولم يكن هناك من ينقضها .

ويرجع ذلك إلى أنه كان إلى حد ما الشخصية اللامعة فى مثل ذلك

العمل الباهت ، كما كان وحده . بين رفاقه الذى يستطيع أن يقول الحقيقة وأن يضع الأمور فى نصابها بتعليق لاذع يستثير الانتباه ، كتعليقاته التى عرف بها عن « جنرال موتورز » ، وكلاب الصيد ووجار الكلاب والبحوث الأساسية التى تظهر حين لاندرى ما تفعل وغير ذلك من التعليقات التى قالها أو نسبت إليه ، ولكنه كان أيضاً ضحية من ضحايا البناء . فقد أصبح الرجل الذى كان على رأس أعظم مؤسسة صناعية فى البلاد على رأس البيروقراطية العظمى ، واهتزت الصحافة لذلك ولكن بدرجات متفاوتة من الانفعال ، فالمعجزات بالنسبة لويلسون لم تعد معجزات والعجلة تغذ فى سيرها والتخمة تتداعى ، والحسم والسرعة فى إنجاز الأعمال يتواليان ، إلى جانب إدراك الهدف إدراكاً جديداً والقضاء تماماً على الحزام الشيوعى ، ولم يبد هناك من يتساءل عما إذا كان الإشراف على شركة « جنرال موتورز » يمكن أن يؤهله لمثل هذه الواجبات أو حتى عما إذا كانت الواجبات من الممكن إنجازها على الإطلاق فالبناء لا يركن إلى التفاهات ، فإذا قيل إن ويلسون سيأتى بالمعجزات ، فعلينا أن ننتظر تلك المعجزات .

ومالم تظهر المعجزات فمن الإنصاف ان يتحمل ويلسون وزرها ، وقد جرى العرف على أن يكون لأولئك الذين شاركوا فى البناء نصيبهم الحق من أوزار الهبوط الطارىء . ومن قبيل ذلك أن مجلة « تايم » التى هللت لتعيين « ويلسون » فى هذا المنصب كما هللت لوزراء أيزنهاور ووصفت ذلك بأنه خطوة حاسمة فى تاريخ الحضارة الغربية ، لم يمض عليها بضعة أشهر حتى أخذت ترثى لجهل من أكبرته بالقواعد الأساسية للسياسة

الدفاعية للولايات المتحدة وما تقوم عليه من أسس استراتيجية وتاريخية ، وأخذت تشكو مر الشكوى من جموده وتشبثه برأيه . وفى هذا ينقلب البناء إلى ناحيته العكسية المؤسية ومن النادر أن يطلق سراح صاحبه سليما من الطعنات ، فإذا كان من ذوى الكفاية العادية فإنه يقذف به إلى مادون الصفر .

إلا أن البناء كان أقل ضرراً للآخرين من رجال أيزنهاور فان الملمة التى نزلت « بروبرت ستيفن » حين أخذ على عاتقه هذا الواجب الخاسر بتهدئة « جومكارثى » كان من الممكن أن تكون أقل قسوة مالم يكتسب تلك الصورة التى عرفت عنه كشاب قوى عنيف متميز نشيط فى وزارة أيزنهاور . كما كان من الممكن أن يكون امتهان الفلاحين «لبنسون» أقل حدة ما لم يؤخذ منذ البداية على أنه رجل يقوم بحل مشكلة المزارع حلا يوافق كل واحد على السواء ، ولكن الرئيس كان أكثر من تحمل الوزر بين الجميع .

— ٦ —

وهناك شىء ما فى الجنرال يجعله أكثر إحساساً من غيره بالبناء إلى حد غريب ، فالبزة الرسمية تمده ببعض العون ، وليس له من الحياة المدنية ما يوحى بافتقاره إلى العبقرية (فالناس من أمثال « هارولد ستاسن » لهم من حياتهم السابقة ما يحول بينهم وبين الاضطلاع بأعمال البناء) ويثبت تاريخ الحرب الذى اكتملت صورته الآن أن « دوايت أيزنهاور » كان حكما فذاً فى خلافات الحلفاء وكانت له علاقات طيبة ببعض هؤلاء

الذين يتصدرون الشئون العالمية وحاول أن يدعم بينهم الإحساس بأن هتلر هو الهدف الرئيسى لعداوتهم وبغضائهم ، ولم يكن كما يبدو جندياً عظيماً ولكن الجندى العظيم لا يخلو بدوره من الأخطاء الكبيرة .

ومهما يكن ، فقد جبه البناء أيزنهاور خلال الحرب وأضفى عليه بعدها طابع البعث والتجديد ، فأصبح الفيلسوف الذى يتمثل عن روية وحنكة مطالب الوطن ، وآمن الناس بأنه سيغدو معلماً خلاقاً وأن له قدماً راسخة فى السياسة الخارجية ، فقد تجمل بالإحساس السياسى قبل أن يكون سياسياً أو يتميز بسمعة سياسية . وفى المشاكل الداخلية كان من المفترض أن تكون لديه تلك الأصالة العميقة التى تخضع أعقد المشكلات لحلوله الحاسمة . وهكذا كان البناء عند أيزنهاور ، وإن كان بعضه من ذلك النوع التخطيطى إلا أن جله كان من النوع الاستقلالى تماماً .

ولكن ما أن تولى أيزنهاور سلطاته حتى حل عهد الفساد ، وبدأ المنصفون الذين يقرأون محاضر مؤتمراته الصحفية يتهامسون فيما بينهم بأنه خلو من العبقرية وتعوزه تلك النظرة الشاملة للحقيقة والمنطق اللتين تعوزان المعلق العادى على الأخبار . وفزع ممثلو القطاع الزراعى ممن يترددون عليه حين عرفوا أنه ليس معهم تماماً فيما يتصل بدعم أثمان المزارع ، وكذلك كان فى مسألة الضمان الجماعى ومشروع وادى التنيسى . ولم يكن معروفاً عنه من قبل أنه يفضل الجولف على أى شىء آخر .

وليس فى كل ذلك ما يستدعى الدهشة أو العجب ، فحياة الجيش كغيرها من الأعمال حياة تخصص . ولم يعرف عن الرئيس رحابة العقل

أو أصالة التفكير وإن كان يشير إشارة عابرة فى بعض ما يقرأ لتفضيله للغرب . ولم يخض أية معركة فى سبيل البلاد أو الضمان الجماعى أو عجز الميزانية .

ومع ذلك فإن الرئيس وحده هو المسئول وليس أولئك الذين أضفوا عليه تلك الصورة الزائفة . وفى هذا كان البناء كما كان دائماً حاجة ملحة وسيُعرف أيزنهاور بأنه الرئيس الذى قصر كثيراً فيما كان ينتظر منه لأن ما كان منتظراً منه لم يكن إلا وهماً .

— ٧ —

وقد لا يكون ثمة ترياق للبناء وفضيلة التواضع ليست علاجاً مجدياً ، فالجنرال الذى لا يجد مايعمله لوقف التضخم غير أن يقول «لست إلا جندياً فحسب » يحمل أولئك الذين وكلوا أمر البناء إليه على القول بأنه فضلاً عن عبقريته فإن له تواضع الملائكة ، فرجل الأعمال الذى يقول محتجاً بأنه لايعنى بغير الإنتاج ولا ينشد غير الإنتاج والمزيد من الإنتاج إنما يظهر نفسه كما لو كان يعرف كل شيء ولكنه لا يحب أن يقول ذلك تواضعاً ، ولدينا مثل قائم عن « أدلاى ستيفنسون » فقد وعى هذا الرجل مخاطر البناء وعياً تاماً إلا أنه أقام نموذجاً رفيعاً للتماسك الذاتى ، وأضفى عليه تواضعه أعظم ما يضفيه الكبرياء من إجلال على بطل فى زمنا هذا ، ولربما أخذ بيده تلك العواقب الشخصية المتعبة للبناء وإن لم تكن بتلك الحدود الضيقة التى يقوم عليها حتى هذا البناء الكبير للرئيس أيزنهاور .

وبالرغم من هذا القصور البارز فى علاج البناء ، فمن المحتمل أن يساعدنا على أن نذكر عندما تحين ساعة القرار أن قادة الديمقراطية فى أحسن حالاتهم هم فى مقدمة أقرانهم ممن يساوونهم فى هذا ، ذلك أنهم يشاركون أتباعهم على الدوام متاعبهم ، فإذا أوحت لهم حكمتهم صوراً مغالية فإنها لا تجدى أكثر مما تجديه العادة الحديثة فى إثبات الرشوة الجماعية صراحة فان كنا نحتضن الآمال الكبار فعلينا أن نعد العدة لذلك الفساد المتأصل .

الفصل الثامن

طبيعة الحنين الاجتماعى

من المخترعات الميكانيكية ، كالسفن والقاطرة البخارية ، وطلمبة المياه ، وآلة الغزل ما يثير الحنين . وهذا الحنين ، إلا فى حالات نادرة تنم فى العادة عن غرابة الأطوار الشخصية ، لا يقتضى أية مشقة للعودة إلى تلك الآلات الأولية البسيطة فبالرغم من أننا كثيراً ما نفضل القاطرة البخارية بفحيحها وعجيجها على قاطرة الديزل الصامتة المعقدة ذات المحرك الداخلى فإننا لا نلح فى العودة إلى القاطرة البخارية . وعلى العكس فى المسائل الاجتماعية فإن الحنين إلى النظم الاجتماعية القديمة يؤدى بنا فى النهاية إلى تفضيلها والعودة إليها ما أمكن ذلك . ولا يبدو هذا فى أية صورة من صور المواقف السياسية ، فالمواقف الاجتماعية للأحرار والمحافظين على السواء إنما تتبلور عميقاً فى إطار من الحنين الاجتماعى . وبعض الخلافات السياسية الحادة فى زمننا هذا لا تثور إلا بين الأحرار الذين يبتغون التغيير وفقاً للاتجاهات التى يحددها الحنين ، والمحافظين الذين يبتغون المحافظة على الوضع القائم .

وتمتد المجتمعات التى تقوم عليها دراستنا للحنين إلى أبعد العصور والأشكال البائدة للتنظيم الاجتماعى . ومن الحالات التى تسترعى أبلغ الاهتمام إدارة رب البيت لكل من الإنتاج والاستهلاك وهى حالة تستحق منا أن نعرض لها باختصار .

— ٢ —

كانت الوكالة الأولى لمنظمة الإنتاج العامة كما توحي مأثوراتنا الثقافية هم أفراد البيت وينطبق هذا قليلاً أو كثيراً على الأسرة سواء كانت محدودة أو منتشرة فى رقعة أوسع من الأرض يترأسها الأب وفى أحوال قليلة الأم فهو الذى يعين الواجبات ويشرف على العمل ويضطلع بالضروريات الملحة الأخرى سواء كانت لطلب المصنوعات اليدوية أو لإقامة علاقات مع الآخرين خارج نطاق الأسرة كما يقوم أيضاً بتنظيم الاستهلاك المنزلى فيوزع ثمار العمل ويضبط مقادير البضائع ليعرف المقادير التى تختزن منها لأيام أخرى عجاف .

وما زالت الأسرة التى تدين فى الغالب لرعاية الأم فى الوقت الحاضر أكثر مما كانت فى الماضى هى التى تقوم بتنظيم عملية الاستهلاك ، ومن العسير أن نجد فى تراث الغرب الثقافى بديلاً لذلك . وكانت الأسرة فى ماضيها البعيد تضع حدوداً دقيقة لنفسها لإدارة وتنظيم الإنتاج .

وكانت قدرتها على العمل والتمويل هى التى تحدد تحديداً دقيقاً حجم هذه العمليات . إلا أن هذا الحجم كان أقل مما يقتضيه حد الكفاية الأعلى ، وخاصة بعد حلول الآلة ، فتحول الإنتاج عن الأسرة إلى المصنع . وقد بلغ هذا التنظيم غاية اتساقه فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر وهو ما سميناه بالثورة الصناعية ، وما من مجتمع يفقد هذا الجانب الهام من كيانه ولا يفقد أهم ما فيه . فقد أضفت صناعة الكوخ على الأسرة

والبيت والقرية فى انجلترا إلى ما قبل الثورة الصناعية من الاتساق والكرامة ما لم تتمتع به بعد ذلك .

ومن « أوبرن »[1] استمدت قصيدة جولد سمث عن القرية المهجورة روعتها فلم تكن البيوت منازل فحسب بل كانت ورشاً أيضاً .

ويرجع الفضل فى الترف البدنى المتزايد فى الأزمة الحديثة إلى المصنع وبالتالى إلى فصل الإنتاج عن الأسرة فلو أن الإنتاج ظل عملاً منزلياً فإنه ما كان ليزداد بالنسبة لكل فرد إلا فى حدود ضيقة يكون فيها أحسن الأفراد العاديين فى أسوأ الظروف أقل فقراً مما لو كان فى انجلترا فى منتصف القرن الثامن عشر .

ففى بواكير الثورة الصناعية كانت الحياة فى المدن الصناعية الجديدة فى انجلترا كريهة بشكل بارز ، فقد كانت تلك المدن مظلمة قذرة كما كانت البيوت أيضاً ، وكان العمل شاقاً مملاً يعانى منه الكبير والصغير على السواء بصورة لا تخطر على بال ، ومع ذلك فقد نمت المصانع كما نمت المدن وقلت ساعات العمل وتحسنت الأجور كثيراً ، ولم تعد صناعة الكوخ التى حلت محلها المصانع الحديثة إلا صورة لجانب كريه ، فالجوع كافر والأب الذى يسوق أولاده للعمل سوق العبيد وإلا جاع الجميع ، لا يمكن أن يقيم

(١) يأسى جولد سمث فى قصيدته The Deserted Village لأوبرن القرية التى أودت الثورة الصناعية بطابعها الخريفى البسيط والقصيدة كلها حنين للحياة الريفية الطبيعية الهادئة التى جرفتها الثورة الصناعية وأودت بها ، وهى من أروع أشعار جولد سمث . (المترجم)

حياة عائلية منعمة سعيدة ، وتبرز هذه الصورة واضحة اليوم فى كشمير فهى رغم تعدد منتجاتها وروعتها ما زالت آخر معقل فى العالم للصناعات المنزلية حيث يعمل الأطفال فى سن الثامنة والعاشرة ١٢ أو ١٤ ساعة فى اليوم فى عمل مرهق مدمر على النول اليدوى . وقد يعملون تحت رعاية آبائهم الرحماء إلا أنهم لا يحصلون من الطعام إلا على أدناه ومن الكساء إلا على خرق بالية ، وأجسادهم قد أكلها الجوع والدرن .

وكانت الصناعات المنزلية فى غرب أوربا قبل الثورة الصناعية أكثر إثارة للاهتمام من غيرها .ففى الوقت الحاضر ما زال عمال الصناعات المنزلية وخاصة فى صناعة « التريكو » يعيشون تحت أسوأ ظروف استغلالية يمكن أن تقوم فى مجتمع اقتصادى . وقد ظل مصطلح العمل المنزلى لزمن طويل مرادفاً للضعف والبؤس والتعسف فى الصناعة .

إلا أن الأسرة كوحدة اقتصادية شاملة مسئولة عن الإنتاج والاستهلاك معاً ، لم تفقد سلطانها أبداً على تفكيرنا بل إنها لتحملنا على إكبارها وإجلالها . ولدينا أمثلة عديدة على ذلك إذا أردنا أن نتعرف عليها . ومنها أن هذا المظهر الأليف للحنين الاجتماعى هو الذى نعرف عن طريقه قيمة المصنوعات اليدوية من كل نوع ، وأحياناً ما تكون المنتجات الحرفية والآلات اليدوية والنسيج اليدوى والتحف المنقوشة ، والزجاج والحصير والقبعات ، والأوانى غنية بالصور الجمالية ، وهذا التراث الفنى هو الذى تعنى البلاد بصيانته وإحيائه . وهذه الحرف مجزية أيضاً فإن السعر لا يتوقف على التكلفة فحسب بل على الروعة والجمال أيضاً ، والحرف اليدوية

كما هى فى الغالب خالية من الابتكار والذوق بدائية خشنة المظهر ، قليلة النفع ، ولكن لمجرد أنها صناعة يدوية نجد أنها حينما تكون تحظى بكل المزايا الاقتصادية كما أنها تحفل بذلك الجو العائلى المريح للأسرة حين تلتف حول المدفأة وتفكر فى أنها لا تؤدى عملها الشاق تحت إشراف رئيس عمال جاف خشن المظهر وإنما تحت رعاية أب عطوف . وهى إذ تحظى بذلك فإن الخطأ يغدو صواباً والإرهاق متعة وتصبح الحاجة الأولية وقد تحولت إلى شىء له قيمته حين تتحول الصورة الخشنة الشوهاء إلى صورة فنية جميلة تكشف عن مهارة النحات وأصالة الخزاف لا يغفل حسناتها سوى عقل جاهل .

ولما يحملنا هذا الاهتمام بالصناعات اليدوية فى الولايات المتحدة على التفكير فى العودة إليها فإننا نعرف أو على الأقل لا نجادل فى أنها تكلف غالياً فضلاً عن أنها غير كافية ومكاسبها قليلة وإن كنا نحبذها لغيرنا من الشعوب الفقيرة ، فالبعوث الاقتصادية إلى البلاد المتخلفة تلح دائماً على إحياء الصناعات التقليدية القديمة وهى وسيلة لتجنب صناعة الحديد والصلب والقوى المحركة وما تتطلبه الثورة الصناعية من معدات ضخمة ومن هذا القبيل الإلحاح على أهل بورتريكو بالاهتمام بالحرف والصناعات الوطنية المنزلية وأنها خير لهم من العمل السعى وراء الدخل الأعلى الذى يجلبه لهم النظام الصناعى فى نيويورك . وينكر أصدقاء النفاهو "Navahos" عليهم إنكاراً باتاً إهمالهم صناعة الهوجان ونسج البطاطين وصناعة الفضة والسعى وراء الأجور المرتفعة من العمل فى مصانع أتشسون وتوبيكا وسكة حديد سانتافى .

ويوضح الحنين الاجتماعى هذا التوقير الفذ الذى نكنه فى الولايات المتحدة للضيعة الريفيــة فإنها المثال البارز المتبقى من النظام الاقتصادى الشـامل للأسرة . ولـكننا نقف مكتوفى الأيدى أينما يدفع الضغط الاقتصادى ضيعة الأسرة الريفية إلى أحضان المشروعات الرأسمالية الـكبرى التى تلتهم أعداداً غفيرة من العمال. ومع ذلك فإن أية مزرعة تستثمر أقل من مليون دولار هى ضيعة أسرة ريفية . ومهما اتسعت الضيعة فإن التقاليد المتعارف عليها بالنسبة للأسرة تبقى قائمة تزودهم بالفضيلة والصبر وتقديس الأبوة وتتيح لهم تلك الفرصة الفريدة لتزويد أعقابهم بتلك العادات الحميدة . أما الجهلة والعجزة والقساة والمتغطرسون والفاسقون والوقحون من الآباء فإننا لا نتصور أن ينقلوا تلك الخصال إلى أعقابهم وعلى أية حال فهم ليسوا جزءاً من قصتنا .

— ٣ —

ويلحق بالمنزل كوحدة اقتصادية مشروعات تجارية صغيرة يقوم بها التاجر الذى يتحكم فى رأسماله والذى يوظف خدمه ووكلاءه والذى يتحمل بنفسه كل خسارة فى شراء وبيع إنتاج الأسرة . وتخلت الصناعة المنزلية نفسها عن مكانها لنوع من المصانع الصغيرة نسبياً اضطلع صاحبها أو وكيلها بكل أعمالها من حيث التشغيل والإنتاج وكان عليه أن يتحمل الخسارة بنفسه ويظفر بالربح لنفسه . وكان إنساناً واعياً بسيطاً له أسلوبه الواضح

المستقيم ومن العجيب ألا يكون هو أيضاً موضوعاً للحنين الاجتماعى . وقد كان فما هو غير رجل أعمال بسيط .

وليس هناك مايتمثل الصفات البارزة للمجتمع الصناعى الحديث أكثر من الشركات الكبرى فما من أحد ينفرد بملكيتها ، ولا يقوم بإدارتها وتوجيهها والعمل على نجاحها فرد وإنما تقوم بها منظمة . ومن المحتمل أن تقاسى تلك الشركة لوناً من ألوان التورم فضخامة الشركة تعلى من قدر الإدارة والنجاح بعد النجاح أبرز مقياس للتفوق الإدارى . بل إن ميزة رئاسة شركة كبيرة ضخمة لتفوق إلى حد بعيد ميزة رئاسة شركة أصغر وإن كانت أكثر ربحاً ، إلا أن الرأسمالية الحديثة تدين بنجاحها البارز لتلك الشركات الكبرى ومن الواضح أننا ندين لها أيضاً بما تمدنا به من السلع التى تغمر تلك الحوانيت ، فالسيارات ووقودها ، والأجهزة الألكترونية ، والغسالات ، والثلاجات ، والأطعمة المحفوظة ، ودلاء الحمام ، والصلب والنحاس والنيكل والألومنيوم التى تصنع بها أو منها تقوم بها جميعاً تلك المنظمات الكبرى . والسبب واضح ، فبدلاً من عبقرية الفرد تستغل الشركات الكبرى الجهد المشترك لعدد من الناس المتخصصين وإن لم يكونوا من ذوى العبقرية الفذة فإنها تستعيض بالمنظمة عن المؤهلات الفردية النادرة وهذا هو أعلا مدى للكفاية ، وهو مالاتستطيعه المؤسسة الصغيرة ، وفضلاً عن ذلك فإن الشركة الكبرى تستطيع أن تتحكم فى رأس المال وتقلل من الخسارة كما أنها أداة طيعة لتنويع السلع وفقاً لرغبة المستهلك المنتظمة الرتيبة .

ولا تعدم هذه الشركات الكبرى الحديثة المؤيدين والأنصار والبعض

يؤيدها دون تفكير فى التعويض إلا أنها توحى إجمالاً بذلك الشعور الذى يجعل الصبى يأسى لدفع الناس بعضهم ببعض قتلاً وتدميراً إلى هذا المدى الواسع الذى يراه بين معاصريه أو بمعنى آخر لهذا التنافس المرير ، فالفطنة وليس الحب هو الشعور السائد .

وبالعكس فإن الأعمال الصغيرة تحظى بأعمق الحب ، فالمفكرون والصحفيون والساسة يجمعون على ضرورتها وأهميتها ويخشون عليها من الزوال وإن لم يكن هناك من يجرؤ على أن يدعى أنها أكثر كفاية أو تقدماً أو مسئولية أو ألمعية من الشركات الكبرى أو أنها تدفع أجوراً أحسن أو أنها تبيع بثمن أقل مما تبيع به تلك الشركات الكبرى ولا يعدو أن يكون ذلك لوناً من الحنين الاجتماعى .

ولا يخلو هذا من بعض الاعتبارات فقد أضاع الأمريكيون الأحرار كثيراً من وقتهم ونشاطهم أسفاً على ما كان من قيام تلك الشركات الكبرى بدلاً من الوصول إلى أحسن الطرق التى يتكيفون بها معها . وقد أدت الإجراءات التى ظن أنها تحدد قوة وحجم الشركات الكبرى وخاصة الالتزام بالقوانين الجبرية ، إلى إثارة الحماس أكثر مما أثارته إجراءات تثبيت الأسعار والأجور ، وذلك للحد من نزعة التضخم القوية وهى النزعة الفطرية البارزة لدى المؤسسات الكبرى حين تشترك بالتالى مع نقابات قوية فى تسعير منتجاتها . أما الاعتبارات العملية التى تتعلق بالمشروعات التى يحدوها الحنين والتى تهدف إلى القضاء على الشركات الكبرى فقد غدت هباءً . ومن المحتمل أن يحدث شىء ما للحد من النمو أو الاندماج ولكن لا يبدو واضحاً أن ذلك يغير من الأمر كثيراً

وبينما يتابع الحنين أهدافه يبقى الكثير من المشاكل الملحة التي يمكن حلها في انتظار الحل .

— ٤ —

وأحياناً يكون تأثير الحنين الاجتماعي على الأحداث قوياً حاسماً ، وما من شيء يمكن أن يكون أكثر ارتباطاً بهذا النوع من الحنين من طريقة المقايضة الدولية التي لجأت إليها الدول التجارية الكبرى خلال القرن الماضي ولفترة قصيرة من بواكير هذا القرن ، فقد كان تبادل السلع يتم تبعاً لضرورات السوق وكانت هناك قوائم الأسعار ولكن لم تكن هناك حصص ولا قيود كمية أخرى وكانت التحويلات النقدية حرة بأسعار تحددها بالتالي الأسعار المحددة لقيمة هذا النقد بالذهب . فالأمريكي الذي كان يذهب إلى انجلترا أو يبتاع بضائع انجليزية خلال القرن الماضي كان يعرف على وجه الدقة أن الجنيه الاسترليني يساوي ٤ر٨٦ دولار وكان الإنجليزي يعرف بنفس الدقة أنه يحصل على نفس الدولارات بنفس الجنيه ولم يكن هناك أدنى تحديد للمبلغ الذي يريده أو يحصل عليه ، كما كان في استطاعته أن يقرض دولارات وفرنكات وماركات مطمئناً إلى أن عدد الجنيهات التي يحصل عليها مقابل تلك العملات لا يتغير عندما يستوفي دينه .

وما أن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى انتهى كل هذا فقد انفصلت العملات عن بعضها البعض وعن الذهب واختلت أسعار التحويل وأصبح من المألوف أن نرى أسعاراً عديدة لنفس العملة تتوقف على السوق الذي تم ابتياعها فيه وعلى قانونية المضاربة النقدية وأخذت البلاد بتحديد الحصول

على العملات الأجنبية تحديداً شديداً وتأثرت بالتالى حرية التجارة والسياحة . فليس من الغريب بعد ذلك أن يضفى الحنين الناس إلى بساطة الطريقة الأولى ودقتها .

وقد تأثرت السياسة الاقتصادية فى السنوات التى تلت الحرب تأثراً عميقاً بهذا الحنين ، ففى عام ١٩٤٦ نصت الاتفاقية المالية الإنجليزية الأمريكية الخاصة بالقرض البريطانى الذى تم فى تلك السنة ، على إقراض بريطانيا ٣ر٧٥ بليون دولار بشرط أن يكون تحويل الاسترلينى وفقاً للسعر الذى يكون عليه فى منتصف عام ١٩٤٧ ، وفى مثل هذا الجو من الحنين الوقتى لاح أن بريطانيا تتابع أهدافاً اقتصادية واجتماعية أكثر أهمية .

ففى عام ١٩٢٥ ، رجعت انجلترا بتوجيه ونستون تشرشل وزير الخزانة حينذاك إلى قاعدة الذهب وربطت الاسترلينى بها (ومن ثم بالدولار والعملات الذهبية الأخرى) وكان ذلك بعد فترة من التضخم الداخلى .. فارتفعت أسعار الصادرات الإنجليزية بالنسبة لذلك ، وكان من المحتم أن تفشل تلك السياسة وكان فشلها ذريعاً فعندما حدث ذلك انخفضت الأجور وانتشرت البطالة وعم التذمر وكان الإضراب الشامل عام ١٩٢٦ بعض نتائجها .

فلما حدث العكس فى الحرب العالمية الثانية وبذلت الوعود بالتوسع فى الضمان الجماعى والمحافظة على العمالة الكاملة المستقرة وثبات الأسعار لم يبد من هذا الحنين شىء ما وإن كان من العسير أن نقول إن تلك الوعود كانت أقل أهمية من التحول الطارىء السريع .

وفى أعقاب تلك الحرب أصبحت بريطانيا مدينة بمبالغ طائلة من الأرصدة الاسترلينية لكثير من الأفراد والهيئات والحكومات فى شتى بقاع العالم ، فلو أن هذه الأرصدة قد حولت كنوع من الضمان إلى دولارات، بقدر مايحتمل هذا التحويل، لكان ذلك كفيلاً بابتلاع احتياطى الذهب والدولار . ولإيقاف ذلك لابد وأن تهبط الأسعار وأن تخفض الأجور وأن تنكمش الواردات ويقل الاستهلاك وأن تهبط قيمة الصادرات. والذى يترتب على ذلك كما حدث فى عام ١٩٢٥ هو الاضطراب والبطالة والإفلاس ، ومع ذلك فقد أحرز الحنين فى واشنطون عام ١٩٤٨ فوزاً باهراً فقد أجريت التحويلات وفقاً للائحة وكانت النتائج رائعة ومجزية تماماً .

وفى عام ١٩٤٧ أعلنت جداول تحويلات الاسترلينى بالنسبة للحسابات الجارية ، وكانت الطلبات على القروض قد تراكمت فى الأشهر السابقة لسد حاجة الاستيراد وعندئذ انتهز حملة الاسترلينى هذه الفرصة التى هبطت عليهم من السماء للتخلص مما تراكم لديهم منه خلال الحرب واستبداله بالدولار أو الفرنك السويسرى، ورأى المضاربون الدوليون فى ذلك فرصة محققة للكسب فابتاعوا الجنيهات الاسترلينية أو اقترضوا منها لبيعها بالدولار توقعاً لليوم الذى يهبط فيه الاسترلينى مرة ثانية. وفى الأسابيع الخمسة التالية لإعلان التحويل دفعت بريطانيا حوالى بليون دولار ، إلى هؤلاء المحظوظين النشطين . وفى ٢٠ أغسطس ١٩٤٧ كان القرض الذى كان من المحتمل أن يصل بريطانيا خلال فترة مابعد الحرب قد تبدد وضاع وأوقف التحويل لحقبة أخرى حتى يمكن أن يتلاءم مع الأهداف البعيدة عن العاطفة

أو الحنين . وتحملت الحكومة الإنجليزية ودافع الضرائب وحدهما عبء الفوائد المستحقة على هذا القرض الضائع .

وكان لأوضار ما بعد الحرب وقعها المثمر ، فقد ارتفعت فى انجلترا موجة من النقد لفشل بنك انجلترا فى توقع نفاذ غطاء الذهب والدولار فى حينه وعجز الحكومة عن منع ذلك ، إلا أن رد الفعل كان ضئيلاً وسرعان ما نسى . ولم تكن هناك فضيحة يمكن أن تقارن بما صاحب تلك الجهود الضائعة التى قامت بها حكومة العمال لزيادة محصول الفول السودانى لإنتاج الزيوت النباتية فى أفريقية .

أما فى الولايات المتحدة فلم يكن هناك نقد على الاطلاق بالرغم من أن ملايين الدولارات التى أضاعتها الحكومة دون جدوى قد أثارت بعض الاعتراضات ، فقد كان ذلك لأغراض نبيلة مردها عاطفة الحنين .

— ٥ —

وقد تأثرت السياسة الزراعية تأثراً بالغاً فى السنوات الأخيرة بعاطفة الحنين الاجتماعى ، فالى ما قبل إنشاء هربرت هوفر للمجلس الزراعى عام ١٩٢٩ وما تلا ذلك من استقرار كانت الأسواق الزراعية خلال فترة السلام حرة تماماً من كل إشراف حكومى . ولم يكن السوق الزراعى موضع تقدير الفلاحين على الإطلاق فقد كان مصدراً للخراب العنيف المتواتر الناجم عن تقلب الأسعار الشديد ، وعد الفلاحون تلك الذبذبة فى الأسعار نوعاً من الاستغلال المشئوم ولن يجدى القول بأن ذلك كان جزءاً من النظام الطبيعى للأشياء فى الأوساط الزراعية وإن لقى نوعاً من التأييد لدى رجل الاقتصاد

الصريح . ومنذ بداية الثلاثينات كانت أسعار المزارع ميداناً فسيحاً لقيود عديدة من التدخل والتحكم وكانت تلك السنوات مع بعض الاستثناءات أسعد السنوات التى مرت على الفلاحين كما كانت أيضاً سنوات التقدم الفنى الذى لم يسبق له مثيل فى عالم الزراعة ، وبينما كانت فجوة التفوق الصناعى بيننا وبين الروس تضيق بالتدريج كانت كفايتنا فى الميدان الزراعى تطرد بوضوح وكانت مشكلات الفائض الزراعى — إذا قدر لها أن تكون مشكلات — مظهر هذه الكفاية .ويرجع بعض الفضل فى هذا التقدم إلى سياسة دعم الأسعار الوطيدة تجاه الاستثمارات الموجهة والأخذ بالوسائل الفنية الحديثة ولم تترك أية دولة أخرى فى الغرب فلاحيها تحت رحمة السوق الحرة ومن هذه الدول انجلترا وكندا وفرنسا وألمانيا والسويد وسويسرا.

واطرد تأثر السياسة الزراعية تأثراً شديداً بالحنين إلى السوق الحرة فقد كان هذا الحنين قائماً فى الماضى ومن المحتم أن يقوم مرة أخرى ، حتى إن « عزرا تافت بنسون » وزير الزراعة وهو من أقل الناس ميلاً إلى الدعاية فى القرن العشرين وصف السوق الحرة بأنها شريعة مقدسة . وقد حدثت محاولة صغيرة لإنشاء نظام فعال لدعم الأسعار ولم يكن ذلك فى حينه أمراً عسيراً إلا أن الجهود تركزت كلها حول العمليات الصغرى لتحقيق حرية السوق غير أنها لم تأت بنتيجة وبالعكس كانت سبباً فى زيادة الفائض زيادة كبرى وما يتطلبه هذا الفائض من نفقات التشوين والنقل .

وقد أيد الحنين الاجتماعى فكرة أن حكومات الولايات أصلح وللادارة من الحكومة الفيدرالية (المركزية) بالرغم من أن الدلائل الأخيرة توحى بأن الحكومة الفيدرالية أكثر فاعلية وكفاية مثلها فى ذلك مثل الإدارى

الحازم الأمين ، كما أنها أكثر اتصالاً بالاتجاهات العامة . وأيد الحنين ثقتنا المأمولة فى أن دور الحكومات يمكن أن يتضاءل وأنه كلما كان دور الحكومة صغيراً كان حكمها أحسن . حتى لم يمكن تجنب مشاكل تخطيط التنمية وتوجيهها بصورة ما فى مجتمع متحضر معقد ، بل إن هذا الحنين ليحمل مرشحى الرئاسة فى حملتهم الانتخابية على الحرص فى تصريحاتهم التى يدلون بها فى كل مكان ، وظهر أن ذلك كان ضرورياً فى وقت ما حتى يعرف الناس من سيدلون إليه بأصواتهم .

وأخيراً فإن الحنين الاجتماعى يؤيد دعوانا المستمرة فى أن الحياة يمكن أن تكون أكثر بساطة وأن المشاكل العويصة لا أثر لها فى أنماط الحياة القديمة وقواعدها المألوفة حيث نجد راحتنا فى كنف الأسرة وفى حمى الدين وحيث تتجلى بساطة الإيمان بعصرنا وجيلنا ويحدونا الأمل فى أن يقودنا رجل بسيط الخلق واضح العقيدة وعلينا ألا نقلل من شأن بساطة التفكير فالبساطة عنوان الحنين الإجتماعى .

— ٦ —

وإنا لنتحيز تحيزاً شديداً لما نعتقد أننا نلم به من أمور السياسة الإجتماعية فالنظم التى كانت ميداناً للحنين الاجتماعى إنما ترجع إلى أزمنة قديمة ، ولهذا فإنها أقل تعقيداً وأكثر وعياً ، أو على الأقل تبدو كذلك ، من النظم التى حلت محلها ، فصانع العربة القديمة أقرب إلى أفهامنا من جنرال موتورز ومن اليسير التعرف على القرية وليس من اليسير التعرف على نيويورك .

وأكثر من هذا فإن نظاماً قائماً لهو أجدر بالتفكير من نظام لم يقم ، فالنظريات تتبلور تبعاً لما تقتضيه من سلوك وهى التى جعلت من هذا السلوك بعض تراثنا الثقافى ، وبالعكس فإن النظم التى حلت محلها ستبقى زمناً دون أن تستند إلى نظرية أو فكر ولن تجد من يهتم بدراستها حيث لا توجد المراجع لدراستها وحين نقارنها بالنظم التى نحنّ إليها فإنها تبدو باهتة لاشكل لها ، غريبة غير مألوفة معقدة غير مفهومة ، فالتحويلات النقدية تحمل فى أذيالها هذا الزيف الاقتصادى لنظرية التجارة الدولية والتبادل الخارجى فى كثير من التفصيل والاكتمال والمنطق المعقول — ولن نجد وصفاً لهذه القيود التى فرضتها بريطانيا وغيرها من الدول على التبادل خلال الحرب العالمية الثانية إلا فى بطون التاريخ الرسمى وقد يجد البعض فى تدريس نظرياتها وتطبيقاتها والكتابة عنها نوعاً من التميز العلمى إلا أن تميز النظام القديم المعروف على ما هو غير معروف يبدو واضحاً .

وقد يتأكد ذلك من الخسائر العملية القاسية كما حدث فى حالة الشروط التى وضعت للقرض البريطانى .

وليست النظم القديمة مفهومة فحسب ولكنها حين جرى العمل بها أكدت مثاليتها وتجردت من كل صفة كريهة أو متعبة وأخذت فى الاعتبار نظام الأسعار فبعضها كانت تحدده الاحتكارات باستمرار والبعض الآخر ما زال يحدده العرف والتداول ، إلا أن الكثير منها كأسعار الكهرباء كان تحديدها يتم نتيجة لإجراء حكومى تحف به ألوان عديدة من الضغط السياسى . فبعض الناس ممن يستخدمون العمال مثلاً يلجأون إلى المساومة العنيفة ، والبعض الآخر من العمال الرسميين الذين يعملون مقابل أجر

يومى وليست لهم منظمات تحميهم هم فى الغالب من أضعف طوائف العمال .
والأسعار التى تقيدها المنافسة الحرة لاغير تتعرض لتقلبات عنيفة مؤسفة
بسبب الحروب والمجاعات أو أية كوارث أخرى وحتى يكون الطريق واضحاً
لابد من تجاهل هذه الاستثناءات تجاهلاً تاماً . وبذلك يتحقق الموقف
المنشود دون أية متاعب. فالحنين لايبغى الحقائق قدر مايبغى المعانى المجردة.

فمن المعروف أن قصر لويس الرابع عشر فى فرساى ليس بالدقة
الهندسية لأى مبنى حديث ، إلا أن عقود البناء فى مثل تلك المبانى الملكية
وفى بلاط كهذا البلاط كانت شيئاً مألوفاً ، وكثيراً ما تؤدى الأشياء التى
لا شك فى نفعها حتى فى أحسن الحالات إلى عفن يزكم الأنوف ، فإن
البرتقال حين نزرعه نأمل عبثاً أن يتغلب بشذاه على كل رائحة كريهة ، وكل
ذلك قد ضاع فى عالم المثالية فنحن لا نعلم عن بلاط لويس الرابع عشر غير
الفخفخة واللباقة والحب . ولكننا لا نستطيع أن نذكر منها سمة تجعل
تلك الحياة عسيرة على أمريكى متحذلق وهذا الحال بالنسبة للحنين الإجتماعى.

— ٧ —

وأخيراً فان الحنين الاجتماعى يدين بالكثير إلى طبيعة التغير الاجتماعى.
ويحدث هذا عندما تأخذ الأحداث مجراها الطبيعى تحت ظروف صعبة
قاسية . فالنظم لا تنحرف فى أوقات السلم الهادئة ، وإنما تضل فى حالات
التوتر والقلق ، وعندما تستقر الأمور يتفاقم أمل العودة إلى الأنظمة
القديمة وهذا ما يحدث أحياناً إلا أن هذه الأنظمة القديمة كثيراً ما تكون
بالغة الضعف ولكن ضعفها لا يبدو إلا فى أوقات الشدة ، وعندما تقوم

الأنظمة الحديثة لتحل محل القديمة فى تلك الأوقات التى تظنها عصيبة فإنها تبدو كما لو كانت غريبة فقد جاءت نتيجة لظروف قهرية طارئة ، وقامت بحكم الضرورة وتزول حالما تنتهى هذه الضرورة ، وهو ما لم يحدث فإن الأنظمة القديمة تذهب أى مذهب إلا أن تعود ، وتبقى الأنظمة الطارئة فى سيرها قدماً ، ويفترض المحافظون أن أى تغيير مهما كان مستقراً هو من الأحداث الطارئة وهم على صواب ، ولكنهم مخطئون حين يظنون أن أى إنسان يمكن أن يملك القدرة على التغيير .

وهكذا انهارت سوق المال عام ١٩٣٠ وحلت محلها تلك الإجراءات العاجلة التى لاتنتهى والتى قامت بها حكومة الولايات المتحدة لبرامج تصدير رؤوس الأموال كبنك الاستيراد والتصدير، والإعارة والتأجير، والأونرا ، والمعونة التركية اليونانية ومشروع مارشال والنقطة الرابعة والأمن المتبادل ، والمساعدة الاقتصادية ، ولكن رأس المال لم يكن يتحرك بتلك السهولة والقدرة التى كان يتحرك بها قبيل الحرب العالمية الأولى . فلم يكن كل هذا ليتفق مع عالم تستعر فيه القومية ، وتبرز فيه الشيوعية ويغلب عليه التوتر العسكرى . إلا أن الحنين الاجتماعى ما زال منطوياً على أمل إنعاش سوق رأس المال الدولى ومن المحتمل أن نرى كم من تلك الإجراءات الطارئة قد أصبح جزءاً من حياتنا العامة .

وهناك سبب واحد فى أن الحنين الاجتماعى ليس على الدوام ، ومن المحتمل ألا يكون حاسماً فى العمل هو فى أن عليه أن يواجه طرفاً حتمياً واضحاً ، فالهدف الذى يبتغيه يبدو عظيماً من حيث المبدأ ولكنه مستحيل

أو عسير عند التطبيق ولهذا.فإن هؤلاء المسئولين حين يعلنون تأييدهم له ، يجدون من الضرورى شرح موقفهم حين يؤخرون تقدمه . وإن أبهج مناقشاتنا السياسية فى أى وقت هى ما كانت تدور حول تقريظ الأنظمة التى لا يتشيع لها أنصارها إذا ما أتيح لهم أن يحققوها لأنفسهم . ونظام السعر الحر والمنافسة المشروعة ، ونهضة الولايات وقاعدة الذهب ، والتعليم القائم على كتاب المطالعة « لماكجفى » يؤيدها أناس يروعهم أن تنجح . والرغبة الملحة فى صرف الانتباه عن الأشياء البالغة الأهمية تلعب دورها فى هذا التأييد ولكن إذا ما تعلمنا كيف ننظر إلى الأشياء فاننا سنرى دائماً الضغط المطرد للحنين الاجتماعى .

الفصل التاسع

هل كان فورد نصابا ؟

« أحب أن أدلى بكلمة خاصة عن هذا الموضوع الذى »
« أكتبه عن فورد فقد اعتدنا أن نضع أبطالنا فى قمة عالية »
« لنضفى عليهم هالات القداسة ، ومن المؤكد أن تثير هذه »
« القداسة ثائرة الآخرين للبحث عما ينتقص منها ، فعندما عاد »
« دوجلاس ماكارثر من اليابان ليواجه هذا الاستقبال السيء »
« عام ١٩٥١ كان من الواجب أن يعلم أن سخط الجماهير لابد »
« أن يتمثل شعور النابهين من المواطنين على اعتبار أنه من »
« الأفضل الكشف عما أدى به إلى هذا التقصير . ويرى كثير »
« من الناس أن صورة الغلاف فى مجلة تايم كما يجب أن يعلم كل »
« من نال هذا الشرف ، هى دليل على أن صاحبها قد أصبح »
« فى حاجة إلى كثير من النقد البناء أكثر مما هو فى حاجة إلى »
« التقريظ » .

« ومهما يكن فإن هذا الشك فى معانى البطولة أكثر »
« جدوى إذا ماوجه حقاً إلى الأحياء وهو جدير أيضاً بأن »
« يكون سلبيا ، ولقد همنى فى دحض الأسطورة التى أحاطت »
« بفورد ، ألا أبدو متهجما بقصد التهجم فحسب على سمعة رجل »
« قد مات ، فليس هذا ما أعنيه ، فالتاريخ الرسمى الحديث »
« لفورد وكتابات أصدقائه ورجاله تمدنا بكثير من البيانات »
« التى لاتتفق كثيراً إن لم يكن إطلاقاً مع تلك الأسطورة »
« فإنها تصمه بالعجز والقصور البالغين كرجل من رجال الإعمال ، »

« بينما تصف شريكه الكبير جيمس كوزين على خلاف الحقيقة »
« وبما لم ينتحله كوزين لنفسه ، بأنه الشخصية الحاسمة التى »
« وقفت وراء فورد فى أولى خطواته للثراء » .

« وينسب إليه أيضاً أنه أول من فكر فى إنشاء ما يعرف »
« بالعلاقات العامة وإن شهرته العالمية كفيلسوف من فلاسفه »
« الصناعة قد صيغت تماما فى نفس الصورة التى صاغ بها طراز سيارته »
« بخلاف بسيط وهو أن دوره فى تصميم سيارته وصياغتها كان »
« أكثر وضوحا ، بينما كان صموئيل كروثر هو صاحب الدور »
« الأول فى إنشاء العلاقات العامة التى سخرها فورد تسخيراً »
« شرهاً وفى حماس بالغ مع غيرها من الجهود الأخرى لإدارة »
« عقول الجماهير وإن كان لا يفوتنا أن نعترف بأن الجماهير قد »
« استجابت لذلك وأن رؤوسها قد دارت حقاً » .

« ومن ذلك الوقت أصبحت العلاقات العامة حرفتنا المدللة ، »
« فما من فكرة أو شخصية إدارية ندفع بها نحو الجماهير إلا »
« وأعيد تشكيلها وفقاً لذلك وقد اعتدنا ذلك وإن لم تكن »
« وحدها هى الشىء المثمر لرجل الأعمال ، فحين نفشل فى معرفة »
« الخطأ من الصواب نصل إلى قاعدة معينة وهى ألا نصدق »
« شيئاً مما يقال عن الإدارة فإذا عين ليوناردو مديراً لشركة »
« جنرال موتورز فلن يعرف ذلك لسنوات طوال . والصحافة »
« هى التى تطلق هذا القول . فإن ما يقوله أو يكتبه بعد »
« ذلك ، والصورة التى يرسمها ، والمخترعات التى يعدها إنما »
« تنسب إلى رجل العلاقات العامة الفذ الملهم . ومن المؤلم أن »
« نكتشف أن الجزء الأكبر من أسطورة فورد كانت بداية »
« القصص الخرافى عن الصناعة فإذا رأينا وهو ما يجب أن »
« يكون ، إن هؤلاء الذين يهوشوننا ويحيكون لنا تلك »
« الأقاصيص الخيالية ، لن يفوزوا منا بطائل ، فعلينا إذن أن »
« نسلك الطريق الصحيح » .

تقف قصة فورد وشركة جنرال موتورز فى دنيا الأعمال ، على قدم المساواة مع قصة روكفلر وشركة ستاندارد أويل ، ثم أصبحت فى ربع قرن الأخير أكثر تشويقاً بصورة لا تنضب . وتمر هذه القصة بثلاثة أدوار متميزة : الدور المذهل ثم دور الشك وأخيراً دور التحليل فقد قفز فورد وشركة فورد إلى الشهرة ، فى الداخل وفى الخارج سنة ١٩١٤ وهى السنة التى عرفت « بعام الدولارات الخمسة أجراً يومياً » وفى تلك السنة بدأ الدور المذهل واستمر حتى عام ١٩٢٩ وفى تلك السنوات شاب القصةَ كثيرٌ من الزيف العجيب . فقد زار رواتها هايلاند بارك حيث شاهدوا مولد « خط التجميع المتحرك للسيارات »[1] حيث كان المركز الرئيسى لتلك الصناعة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ومن ثم انتقلت إلى « ريفرروج » حيث قامت تلك الصناعة الكبيرة التى لم يكن ثمة مشكلة تواجهها غير مشكلة الأغراض التى تناسب ذلك العمل المذهل وكان مثار عجب الكثيرين أنها أول صناعة يرونها .

فإذا كانت الصناعة بهذه الروعة فإن صانعها لأكثر روعة ، وما من أمريكى من رجال الأعمال غدت صناعته علماً عليه كفورد ، وليس من داع لأن نقول إن روكفلر كان فى وقت ما هو ستاندارد أويل ، ولكن فورد كان « فورد » ومنذ بدأ تقريباً كان يمتلك أكبر حصة فى الشركة ثم أصبح عام ١٩١٩ المالك الوحيد لها من القفل إلى البرميل وقد اعتزل

---

(١) حيث يبدأ التجميع بالشاسيه وكلما تحرك إلى الأمام أضيفت إليه قطعة جديدة حتى تخرج السيارة كاملة فى نهاية الخط ، وتنتج مصانع فورد بهذه الطريقة ثلاث سيارات كل دقيقة واحدة بعد الأخرى من كافة الأشكال والألوان (المترجم)

روكفلر العمل قبل وفاته بأربعين سنة . بينما ظل فورد حتى الثمانين من عمره أبرز رجل فى شركته .

ولم يكن فورد نفسه ممن يكرهون الإطناب فى مديحه فقد زاره مرة شيوعى يدعى « آلان بنسون » ذهب إلى « ديربورن » فى بواكير العشرينات ليكتب كتاباً عنها ، وأذهله أن يدعوه فورد لاستعمال مكتبه الخاص وهو يقول « ستجد آلة الكتابة وأى شيء آخر تريده » وكانت فكرة صائبة من فورد فلم يكن ليحتاج إلى مكتبه كثيراً ولم يكن « بنسون » ليعض اليد التى امتدت إليه بمعروف . فأشار إلى بعض ما ردده فورد عن مساوىء العصر بقوله « إن مستر فورد يحس بالفوضى التى تسود العالم وأمنيته هى أن يقيمه على الطريق السوى .... وليست صناعة السيارات هى كل ما يعنيه بقدر ما تعنيه تلك المشكلة الكبرى التى لا تنتهى لتنظيم الصناعة العالمية ، وإن أفكاره لتجول فى شتى أنحاء العالم ، وإن كان عقله فى الولايات المتحدة » .

وكان فورد اسمياً على الأقل مصدراً من تلك المصادر العظمى لذلك القصص السائر ،فبالرغم مما عرف عنه من استخفاف بالكتابة والكتاب وهو أضح ما تضمنته قصة حياته ،فقد ألف ثلاثة كتب لقيت رواجاً عظيما فى نهاية العشرينات وأوائل الثلاثينات وكانت جميعها تطنب إطناباً بالغاً فى أعماله واتجاهاته ، ولا يقلل من شأنها أن الذى كتبها جميعاً إلى آخر صفحة فيها هو صموئيل كروثر ، فإن النماذج القليلة التى خلفها فورد من كتاباته هى خطاباته ، وهى مليئة بالأخطاء الهجائية واللغوية ذات عبارات جافة خشنة معقدة وإن كانت تفى بالمعنى المطلوب .

وقد نقول أيضاً إن هذه الكتب بغض النظر عن تمجيدها لفورد ، تكشف عن المهارة فى اختراع العلل لتلك القرارات التى صدرت فى الماضى وهى قرارات مذهلة حتى لرجل مثل « دلاس[1] » فقد كانت أفكار فورد التى كونها وصدرت عنه كأفكاره عن ضرورة الابتعاد عن البنوك أو مد خط حديدى أو عن الانتاج الكبير أو عن خط التجميع المتحرك لصناعة السيارات أو عن الخمسة دولار أجراً يومياً . كانت جميعاً قديمة رجعية . ولم يفكر فورد أنه كان يلجأ إلى التجريب وكان يحلو له أن يقول « إننا نتقدم دون أن نستند إلى حقائق ونتعلم هذه الحقائق كلما تقدمنا». وعلق «تشارلى سورنسون» عليها بقوله إنه كان يجب أن يضيف إليها تلك العبارة وهى : « أن لى مأرباً وسأجعل منه موضوعاً للحديث إن كان يصلح لذلك » ولكن هذا القول لم يتردد إلا بعد ذلك بزمن طويل فقد ظلت فكرة فورد عن نفسه خلال تلك السنوات العظام ثابتة مقبولة كالعملة الثابتة ، وحتى عند ما وعد بخصم كل سنت من أرباحه عن إنتاجه خلال الحرب العالمية الأولى توقع الجميع أنه سينفذ ما قال (إلا أنه بعد ذلك بقليل سحب وعده ولم يلحظ أحد ما فعل) .

ولم تخل تلك السنوات أيضاً من التعليقات اللاذعة فقد أدت مغامراته السياسية إلى هجوم لم يكن فى الإمكان تلافيه ، وأصبحت سفينة السلام عام ١٩١٥ وهى من أبدع ما جادت به قريحته من أفكار ، مثاراً للاغراق فى السخرية فإن الأمل فى أن يقرم ذوو النوايا الطيبة من الرجال والنساء

---

(١) مستر دلاس وزير الخارجية فى عهد أيزنهاور .

بالوساطة فى صراع يدفع فيه القواد جنودهم أمام النيران الحاصدة أملاً فى أن يبقى منهم بعض القلائل فى الوقت الذى يفنى فيه العدو عن آخره[١]، لهو أمل طبيعى بل وينطوى على نوع من التفائل . وعلى أية حال فلم تكن هناك فكرة أحسن من تلك الفكرة .

وفى هذه السنوات أيضاً تورط فورد مع « الكولونيل روبرت ماكورميك » فى نتائج كان من الممكن توقعها. وكان فورد مسالماً إلا أن ذلك كان مؤلماً بالنسبة للكولونل فى معركة (كما ذكر فى كتابه بعد ذلك) كان عليه أن يخوضها وحيداً لإحراز نصر كامل . وقد دعت صحيفة « تريبون » فورد بالفوضوى كما دعته بالمثالى الجاهل ، وحينئذ ارتكب فورد الخطأ الفاحش بإقامة دعوى القذف على التريبون ولم يكن أمام محاميها إلا أن يثبت على الأقل حقيقة جهله . وحين سئل عن الثورة الأمريكية أجاب بأنه يذكر بأن هناك ثورة حدثت عام ١٨١٢ ، إلا أن ما لازمه من سوء الحظ لم يعتم الصورة كثيراً ولم تؤثر فيها أيضاً مغامرته الأخيرة معاداة السامية على اعتبار أن تلك كانت نزعة عند أرقى الناس . وظل إلى نهاية العشرينات أروع شخصية فى البلاد .

— ٢ —

وقد تبدلت قصة فورد خلال سنى الكساد ، ففى عام ١٩٢٩ نشر

---

(١) إشارة إلى مبدأ الحرب الذى يقول بأن غاية الحرب هى القضاء على قوة الخصم بأقل خسارة ممكنة .

تشارلس ميرز كتابه « وحينئذ جاء فورد »[١] ويتضمن تاريخ الشركة والرجل . وكان أول كتاب يتناول هذا التاريخ مدعماً بالحقائق . وبعد عام ١٩٣٠ لم يعد هناك شيء من القصص البارع الذى نسجه كروثر . ففى العشرينات كان فورد يعد بإتيان المستحيل أو ما لا يصدق من إنتاج السيارات الصغيرة الطائرة ، وإنشاء المدن الصناعية فى قاب المراعى الخضراء والمزارع الخالية من الإرهاق والمشقة الغنية بمبيعات فول الصويا والتبن . ولم يحدث شيء من هذا إلا أن الناس كانوا على استعداد لتصديقها ومن الممكن أن يكون فورد ممن كانوا يصدقونها أيضاً . أما فى الثلاثينات ، فقد بدأت حقبة من التنبه والوعى كسدت فيها سوق تلك الأوهام والتخيلات (ومهما يكن فقد عاد إليها فورد مرة أخرى حين صرح عام ١٩٤٠ والبلاد فى مسيس الحاجة إلى قاذفات القنابل ، أن فى استطاعته أن ينتج منها ألفاً فى اليوم دون عناء) .

ولم يخل الحال من النقد فإن الملمين بصناعة السيارات كانوا يصفون فورد بالجمود فقد ظل واقفاً عند إنتاج طراز « T » لا يتغير حتى قيل إن الشركة كانت تتقهقر سريعاً أمام جنرال موتورز وكريزلر وأن المديرين الأكفاء كانوا لا يبقون طويلا ، وظل الأمر فى الشركة على هذا المنوال حتى اضطلع بأمورها « هارى بنيت » .

وحين بدأت صفحة البروليتاريا والنظام الجديد كان أكثر النقد من جانب اليساريين حقاً ، فقد كان فورد لا يؤمن بالنقابات كما كانت الشركة

---

(١) And Then Came Ford.

دعامة أساسية للتقدم السريع ، إلا أن النقد جاء أيضاً من جانب الصحافة المحافظة كما جاء من ناحية المديرين السابقين للشركة وفي أثناء الحرب أصبح فورد والشركة هدفاً للنقد ، فلم يحدث ما ينم على انتاج شيء من قاذفات القنابل الألف حتى فكرت الحكومة في أن تأخذ الأمر على عاتقها وإن كان إنتاج القاذفات قد تم أخيراً .

وفي عام ١٩٤٨ أصدر «كيث سوارد» كتابه (قصة هنري فورد)(١) ونم الكتاب عن ميل المؤلف إلى نقابات عمال السيارات الستمائة في البلاد وليس إلى جانب فورد ولم يكن الكتاب من ذلك النوع الشلو من الكتب المشايعة فقد تعرض سوارد في كثير من الإسهاب لعجز فورد كموظف وصانع وانسان ورسم صورة قوية لعكس ماهو معروف تركت أثرها البالغ في الكتب التي صدرت عن فورد بعد دلك ، وحين حمل المتشيعون له من أصدقائه مسئولية دحض اتهامات سوارد زادوا الطين بلة فأكدوا الصورة التي رسمها سوارد تأكيداً أيد قصوره الفاضح .

وكما كانت المدائح الأولى متنافرة غير متسقة فقد جاء الهجوم مشوباً بالفخر والإعجاب عندماتلقت أمجاد فورد صفعة قوية هزت أسطورته هزاً عنيفاً ولكن لم يكن هناك من ينكر ولا سوارد نفسه أنه قمين بفخر إنشاء أعظم صناعة في عصره فبقي يتمتع بتلك المكانة الرفيعة لرجل الأعمال القادر الذي اقتنص الفرصة قبل غيره وراد بها الطريق التي سلكها المقلدون وراءه ، وأنه لرجل عبقري أو على الأقل كان عبقرياً حينذاك .

(١) The Legend of Henry Ford.

وزيادة على ذلك فقد أصبح فورد فى الثلاثينات والأربعينات شخصية شعبية ساعد عليها وعوده التى لاتصدق وأمثاله التى لاتفهم كقوله « إننى لم أخطىء وكذلك أنت » وقد أفاد أيضاً من حنين الناس إلى سيارته الخالدة (طراز T) وقد أصبحت هذه السيارة محوراً للقفشات الأمريكيه فقيل إن رجلا «أوصى بأن تدفن سيارته معه » كما قيل « إنها لم تفشل ولا مرة فى الخروج به من الحفرة » ويحكى أن « فلاحاً طوحت العاصفة بغطاء « شونته» المعدنى ونصحه البعض بأن يبعث بها إلى «ديترويت» وجاءه الرد حالا بأن سيارته من أردإ ما شاهدوا من مخلفات ، ولكنهم سيصلحونها له » .

وقد تشابه فورد وسيارته فكلاهما لا غناء عنه ، وكلاهما عاطل من الرواء ، ونافع ، وكلاهما فردى فى طابعه تشوبهما نزعةمن الغرابة وتزداد هذه الغرابة كلما تقدم بهماالعمر ، وعندماتغير هذا الطراز قال «لى ستروت هوايت» عام١٩٣٦ فى توديعه «لقد توارت السيارة عن المعالم الأمريكية» وهى كلمة أقل من أن تعبر عن الحقيقة ، فإن الملايين من الأمريكيين قد كبروا معها حتى أصبحت هذه الفورد القديمة جزءاً من المعالم الأمريكية وهكذا كان فورد فقد كان فوق الملامة مهما كان فيه من سوء .

— ٣ —

وأخيراً ، أصبحت الذكريات والجهود فى قصة فورد تاريخاً موضوعياً ، وتشجع عدد من مديريه السابقين على تدوين ذكرياتهم عن تلك الأيام المجيدة وحتى هؤلاء الذين لا يملكون ناحية الكتابة من أمثال « هارى بنيت »

كتبوا مذكراتهم وأيد المعاصرون بعض ماتضمنته من أحداث مذهلة . وفى عام ١٩٥٨ ظهرت مذكرات «تشارلس سورنسون» وكانت مذكرات هامة وكان قد بقى موضع ثقة فورد ومديراً لإنتاجه أكثر مما بقى غيره معه ، وهو مهندس قدير ومنظم بارع فيه خشونة وصرامة وظهرت تلك الخشونة فى كتابته عن فورد بخلاف المديرين الآخرين الذين ختموا حياتهم العملية معه فقد كان تناولهم له رفيقاً هيناً .

ثم كان التاريخ المفصل لحياة فورد وقد كتبه «آلان نيفنز» و« فرانك أرنست هيل » . وقد تناول أولهما تاريخه حتى الحرب العالمية الأولى ، أما الجزء الثانى وقد ظهر عام ١٩٥٧ فقد تناول تلك السنوات التى بلغت فيه شركة فورد للسيارات قمة نجاحها والسنوات الذى أخذت تتأثر فيها بمنافسة الشركات الأخرى . وعلينا أن ننتظر كتابات أخرى فى هذا الموضوع .

فإذا كنا ممن يعنى بالرأسمالية وحرية التجارة بعض الشيء كما نسمع فى خطب المآدب التقليدية فان هذه الكتب عن أشهر مؤسساتنا الصناعية قمينة بأن تهدينا السبيل فقد بحثت بحثاً وافياً وكتبت بصورة تفوق كثيراً تلك الكتابات المملة المطبوعة بالعناء عن تاريخ الشركة العادى . وفى نظرى أن الصفات التى حاولت تلك الكتابات أن تضفيها على فورد ليست صحيحة ولا تستدعى التقريظ . ولكن اذا ماقدر لرأى مقبول من آراء هنرى فورد أن يتداول فان الفضل فى تداوله إنما يعود إلى « نيفنز وهل » .

والمشكلة التى استوقفت « نيفنز وهل » وكل من كتب عن فورد هى فى الصورة التى يبدو فيها فورد كرجل عبقرى ، عبقرية فذة لا شك

فيها ، بينما يفشل فى أن يضفى هذه العبقرية حتى على تلك النواحى التى يمكن أن تبدو فيها رفيعة متسامية .

فقد كان الخلاف كبيراً فى الدليل على طبيعة العظمة عند فورد ، فكروثر وأضرابه كويليم كاميرون فى اذاعتهما المألوفة أمسيات الثلاثاء من كل أسبوع عن فورد قد ميزوه بالأصالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والعمق الفلسفى . وقد تقبل الناس جميعاً هذا القول . ومازالت الفراسة الاجتماعية التى وصف بها فورد والتى قادته إلى رفع الأجور وتقرير ماعرف بالخمسة دولارات أجراً يومياً ، وإدراك الفوائد الاجتماعية للانتاج الكبير ، جزءاً كبيراً من أسطورة حياته .

ومما يؤثر عن « أديسون » وكان ممن لا يحبون فورد ثم أصبح من أصدقائه أنه قال « إن فورد رجل أعمال حقيقى كما هو صانع حقيقى ، وليس له ضريب فى أنه مزيج من الاثنين معاً » ، وآمن الناس حقاً بأن فورد هو أعظم رجال الأعمال فى عصره وأن عبقريته الصناعية لا يمكن أن تجارى . أما نيفنز وهل وكانا أكثر تحفظاً فيما يتصل بمواهب بطلهما فقد أقرا بأن قدرته الصناعية لا تقارن .

ولكن إذا كان فورد يتميز بكل تلك المواهب فى شتى الميادين ، فلماذا كانت تلك الكلالة وهذا الغباء اللذان اتسمت بهما أعماله ولماذا كانت تلك الأخطاء المتراكمة التى نتجت عنها والتى عرفت أخيراً ؟ فلنضع إذن أعماله موضع الاختبار مبتدئين بجهوده كزعيم سياسى واجتماعى وكفيلسوف أيضاً .

فى الميدان السياسى كان فورد مهوشاً غير كفء وبالرغم من سمعته الصناعية الواسعة فقد كان فشله الذريع بيناً . فى عام ١٩١٨ أعطاه الديمقراطيون جواز المرور إلى مجلس الشيوخ ، وفى عام ١٩٢٤ ، ولفترة ما عضته شهوة الرئاسة . ولم تشفع له غزوة من غزواته هذه أن تمحو عنه ما قاله صراحة من « أنه لا يعرف من السياسة كحرفة شيئاً ما » أو تزيل تلك المرارة التى علقت بها النيويورك تيمس على انتخابه عام ١٩١٨ بقولها « إنه سيخلق فراغاً فى مجلس الشيوخ وفى صناعة السيارات على السواء ». وفى الحملة الانتخابية لم يدل فورد بأى حديث لا لشىء إلا عجزه عن ذلك . وأبرز ما يروى عنه فى ميدان التفكير السياسى تلك الإشارة العابرة إلى أنه سيحمل إذا ما أصبح سناتوراً شركة فورد إلى واشنطون لمساعدته . وعندما ذُكِّر أثناء حملته الانتخابية بما قاله من قبل وهو أنه لم يكن يهتم بالتصويت أذاع أنه عام ١٨٨٤ وكان قد بلغ الحادية والعشرين من عمره ذهب إلى لجان الانتخاب وأدلى بصوته بناءً على نصيحة أبيه ، إلى الرئيس جارفيلد ، وكان جارفيلد قد اغتيل قبل ذلك بثلاث سنوات (وكان لفورد سقطات أخرى من هذا القبيل ، فقد أبرق من سفينة السلام عام ١٩١٥ إلى البابا بندكت السابع وكان قد تنيح عام ٩٨٣) . وفى هذه الحملة الانتخابية كان فورد فى جانب ويلسون وعصبة الأمم ولكن هذا الموقف بجانب الملائكة يقوم أمامه موقف آخر من التقرب إلى تلك الشخصيات الكريهة من أمثال الأب كوفلن وفرتز كون وجيرالد سمث فإن بعض الذكاء السياسى العادى إن لم يكن على الإطلاق كان كفيلاً بأن يحذره من « بروتوكولات حكماء صهيون » المخاتلة الوضيعة ، ومن تلك الفضلات العنصرية « التى أخذت تظهر شهراً

بعد الآخر وباستمرار مع تابع فورد الخاص فى ديربورن ومن الأوزار والمعاصى التى ارتكبها اليهود فى حق الإنسان منذ كان موسى .

وفى النهاية عندما اعترض الجمهور على ذلك الخلط من الناحيتين القانونية والتجارية اختط فورد أسلوباً جديداً للكذب الوقاح عندما أنكر أن له يداً فيها فقال « إذا قدر لى أن أضع فى الاعتبار ولو من الناحية العامة ألا أدلى بتفصيلات عن تلك المنقولات لما ترددت فى أن أمنع تداولها » ولم يكن الإنكار رائعاً فحسب بل كان دليلاً على الغباء أيضاً ، فكل إنسان على صلة بتلك الأنباء يعلم أن فورد بالذات هو المسئول عنها شخصياً .

وكانت فلسفة فورد السياسية والاقتصادية زائفة هى الأخرى فهناك إجماع عام على ما يقوله سورنسون من أن كروثر هو الذى كان يقوم باعدادها ثم يقدمها إلى فورد ليعتمدها . والجمهور هو الضحية لأول عمل من أعمال رجل العلاقات العامة. وفى أيامناهذه حيث يفترض الناس أن هذه الاتجاهات هى من عمل مؤسسة العلاقات العامة فإنه بالتالى لا يقيم لها وزناً كبيراً ، أما حينذاك فلم يكن الجمهور قد تمرس بادعاءاتها وأكاذيبها ، وبذلك أصبح لفورد ميزة تقدير ما يقوله وإدراك مرماه .

وسيقال إن الأعمال هى بنتائجها ولا يعتد فى هذا بما رتبه عليها كروثر من نظريات ، فان هذه الأعمال لم تند بالحكمة البسيطة بقدر ما ندت بالحكمة الملزمة وتلك كانت حكمة فورد . وهنا تقفز أمامنا هذه الصورة . فالإنتاج الكبير فى الصناعات المتقنة القائمة ، وفى التدفق

والتجميع ، والتركيب كان دون شك أكثر انطلاقاً ونمواً فى هيلاند بارك خلال الحقبة الثانية من هذا القرن منه فى أية صناعة أخرى فى العالم ، ولم يكن ذلك اختراعاً بل كان نوعاً من التنمية حيث تقتبس الأفكار من عشرات المنشآت الأخرى الموجودة وقد حملت الحاجة الملحة للسيارات مهندسى فورد ومديريه على الاقتباس والتجريب وقام بتلك المقتبسات والتجارب كثير من الناس ولم تكن طريقة فورد الخاصة لتفوق غيرها فى الصناعات الأخرى ولربما كانت أقل ، أما ما يسترعى النظر من كل ما قام به فورد فى الإنتاج الضخم فهو نظام « خط التجميع المتحرك فى صناعة السيارات » والذى كان يطرد بثبات . وفى هذا يؤكد سورنسون أن فورد بغض النظر عن أنه مبتكر هذه الطريقة كان لزمن طويل فى ريبة منها.

وهناك عدد ممن كتبوا عن فورد وكانوا أشد نقداً له من غيرهم من أمثال سوارد وحتى روجر بيرلنجيم وهو من المتشيعين له قد نسب أجر الخمسة دولارات فى اليوم إلى جيمس كوزين فقد كان كوزين يبحث ، كما يقولون عن ضربة رائعة يوقف بها اضطراب العمل المتزايد ويحل بها المشكلة الرئيسية فى هذا الوقت وهى كيفية إنتاج المزيد من السيارات . ولم يكن الدليل قاطعاً فقد نوقشت الفكرة بوضوح فى مؤتمر عقد فى المصنع أول عام ١٩١٤ أو فى يوم الأحد التالى له ، ومن المحتمل أن يكون فورد هو صاحب المشروع وشجعه عليه ما كانت تحققه الشركة من أرباح (ففى عام ١٩١٣ كان صافى ربح المبيعات البالغ قيمتها مائة مليون دولار ٢٧ مليون دولار) وفى كل الحالات كان فورد مسئولا ، فإن هذا النوع من القرارات فى تميزه كالتجميع الكبير عن التوسع الهندسى العام قمين بأن ينسب إلى الرجل الذى كانت له الرئاسة .

ومهما يكن ، فلم يكن لذلك أهمية فإن فورد كان لبضع سنوات أعلى من يدفع أجوراً للعمال وإن لم يقتنع اقتناعاً كافياً بفلسفة الأجور العالية وهي ألا يكون أحد أصحاب الأعمال المكروهين في المدينة ، فقد ظلت الأجور التي يتقاضاها عمال فورد كما هي طوال فترة التضخم التي صاحبت الحرب العالمية الأولى ، وفي أوائل العشرينات حين رفع الحد الأدنى للأجور إلى ستة دولارات في اليوم كانت الشركات الأخرى تدفع للعامل الدائم الماهر كثيراً وللعامل الأمهر أكثر . وفي الوقت الذي كانت فيه سيارة فورد تحتفظ بشكلها التقليدي الجاف ، كان على يقين من إقبال الناس عليها لسبب واحد وهي أنها أقل في السعر من غيرها ، وكان السعر في الواقع منخفضاً ، ففي عام ١٩٢٦ كانت سيارته « الرود ستر » تسليم ديترويت تساوي ٢٩٠ دولاراً . وكذلك كانت التكاليف فقد كان يقتص هذا التخفيض من جهد العمال وكان سورنسون ، وبطانته سادة في الإنتاج السريع وفي عام ١٩١٤ كان العمل في مصنع هيلاند بارك مربحاً مجزياً وفي منتصف العشرينات كان ريفر روج كما يدلل أقرب الموالين أفظع جهاز آلي في عصره . وكم كان وليم كلان وهو من أقدر مديري فورد القدامى يكرر ، في أوائل العشرينات كما نذكر هذا القول وهو « أننا كنا نسوقهم بالطبع ، وكنا نسوقهم في تلك الأيام سوقاً عنيفاً ، فقد كان مصنع فورد أسوأ مكان يمكن أن يساق فيه العمال بتلك الصورة ، واستمر ذلك حتى عام ١٩٤١ حين تكونت نقابة عمال السيارات « سيو »[1] نقامت في النهاية بتنظيم فورد وكان آخر من قبل هذا التنظيم من صناع السيارات .

---

(١) CIO.

وحينئذ أصبح أجر الخمسة دولارات اليومى وكذلك أحوال العمال بنوع خاص دون المستوى المعروف وغدت المحال الستمائة التى يملكها فورد أعظم مركز للاضطراب والاتجاهات اليسارية فى البلاد وكان هذا إلى حد ما يسبب تمرسهم إلى حد كبير بفلسفة فورد فى العمل والأجور .

ففى السنوات الأولى لنظام « الخمسة دولارات أجراً يومياً » أثمر ذلك البرنامج الترفيهى الذى وضعه فورد فقامت مصلحة الأعمار الشهيرة بتعليم عدد كبير من المهاجرين اللغة الانجليزية كما علمتهم كيف يحمون أنفسهم من ذلك العدد الكبير من اللصوص الذين يسطون على أجورهم ، إلا أن هذا الطابع الأبوى ساء حتى أصبح فى أكثر الاحيان نوعاً من التدخل والطغيان وظهر أن أفكار فورد التى يختلف فيها مع أخصائى الخدمات الاجتماعية على جانب كبير من الخطأ فقد كان فورد لا يقر أن يقبل عماله فى بيوتهم نزلاء من الذكور العزاب الذين يرغبون فى السكنى معهم فليست هناك امرأة يمكن أن تكون أهلا للثقة ، كما قادها حملة صليبية مهينة لا هوادة فيها ضد التدخين والخمور وحين قبل أحد موزعيه فى أوماها « سيجارة » من قبيل التحية قيل له فى إحراج واضح ، أما كان يستطيع أن يبقيها حتى المساء ! فلم يكن هناك فى أوائل العشرينات من يجرؤ على التدخين أثناء العمل . وحين حل الكساد وامتدت سنوات الحاجة والكفاف أوحت له فراسته الاجتماعية أن يحسم الفكرة عنها بأنها كانت سنوات رغد وأنها أحسن ما مر بهم من أيام .

— ٤ —

ولم يكن هنرى فورد رجل أعمال .

والدليل قاطع على صحة ذلك . واذا كان هناك شك فيمن هو رجل الأعمال فان هذا الرجل لن يكون بالتأكيد فورد .

فإن فورد لم يلق بالا إلى تنظيم الشركة أو إدارتها ، ولا إلى مسائل التكاليف والتسويق ، وذوق الزبون ولا إلى الارباح على حد قوله ، ولم يكن هناك بالكاد شيء من ذلك بعد أن ترك كوزين الشركة . ويرى قدامى مديرى شركة فورد للسيارات أن السلطة كانت بوضع اليد ولم يكن هناك من يفوض بها . وفى أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات وضع هارى بنيت تلك القاعدة موضع التنفيذ حين أقام سلطته على القوة الغاشمة ولم تكن أوراق الميزانية أو حساب التكاليف تعنى شيئاً بالنسبة لهنرى فورد . وهذا ما كان أيضاً بالنسبة لإدارة التوزيع بالرغم من أنه ألقى اللوم كله على الموزعين حين هبط بيع سيارته من طراز « T » فمما يذكر له اعتماده فى بيع السيارة لعدة سنوات على الإعلان ، وقد يؤكد البعض أنه كان يمتلك أعظم موهبة من مواهب العمل ألا وهى إحساسه الذى لا يخطىء بما يريده العميل . ولربما كان هذا صحيحاً ولكن ليس يمثل تلك القدرة ، ففى العشرينات فشل فى أن يدرك أن الناس أو على الأقل هواة السيارات الجديدة ، يبغون سيارة أكثر راحة وأناقة من سيارته مهما دفعوا فى سبيلها من ثمن ولكنه تمسك بطراز « T » فأفسح بذلك مكان الصدارة فى تلك الصناعة لشركة جنرال موتورز . ومما يذكر عنه أنه قال إن

العميل يستطيع أن يحصل على هذا الطراز فى أى لون يشاء (حيث كانت لزمن طويل سوداء اللون) وكان هذا نوعاً من الجاذبية الشخصية التى كانت جزءاً من طبيعة فورد . استغلها « ويل روجرز » حين أدرك غرامه بمنصب الرئاسة فى أوائل العشرينات فالقى إليه بهذا المثل الذى لايقهر .

أيها الناخبون «إذا ما انتخبت فإننى سأغير جبهة القتال» . إلا أن هذه الطبيعة لم تلق اهتماماً كبيراً ممن تعنيهم وكادت تودى بالشركة .

ويرجع الفضل فى بعض ما كان لفورد من سمعة طيبة كرجل أعمال إلى نجاحه عام ١٩١٩ فى ابتياع حصص الأقلية فى شركته ثم نجاحه عام ١٩٢٠ — ١٩٢١ فى إنقاذ الشركة من نفوذ الممولين الذين أقرضوه المال الذى ابتاع به تلك الحصص .

وقد تنم تلك الصفات عن ذكاء ولكنها بالنسبة للبعض من ذوى الحساسية كانت تنطوى على تدليس واضح . ومهما كان هذا العمل طيباً إلا أنه كان غامضاً فقد هيئت الحصص للبيع بقطع أرباحها من ذلك النجم الذى لاينضب إلى الحد الاسمى وكانت أرباحاً سخية قبل ذلك (وكان هناك سبب لذلك فإن اخوان دودج وكانوا من أصحاب الحصص القليلة كانوا يستخدمون إيراداتهم من فورد فى إنشاء شركتهم الخاصة) وحين ألزمت المحاكم فورد بدفع الأرباح أشاع أنه سيترك الشركة (وأقام مكانه ادسل مديراً لها) وسيقوم حالاً بانشاء شركة أخرى تنتج نوعاً جديداً من سيارات فورد أفضل وأقل ثمناً . وبعد أن شاعت تلك الأخبار المزعجة ووجدت من يصدقها وأخذ البعض يتكلم عن الذعر واليأس اللذين ألما بأصحاب الحصص تقدم ممثلو فورد بعرض طيب . واشتريت معظم الحصص

بسعر ١٢٫٥ دولار للحصة وهو سعر أعلى مما حققته مائة دولار من أرباح في حوالى خمسة عشر عاماً . ومن الطبيعى ألا يسمع بعد أى خبر عن الشركة الجديدة ولا عن السيارة الجديدة .

وقد أنقذت الشركة من المولين بنفس وسائل الضغط هذه ، فمندما كسدت سوق السيارات عام ١٩٢٠ تركت فورد مثقلاً بالدين وبقائمة باهظة من الأدوات والمدد حوّلها إلى إنتاج الطراز « T » ثم قام بتسليمها إلى العملاء الذين كان عليهم إما أن يتسلموها أو يتركوا العمل وقبل معظمهم وبذلك انتقلت ديون فورد منه إلى الآلاف من عملائه . وبالتحديد قامت بنوك وأصدقاء وأقرباء وأصهار العملاء بسداد ديون فورد فى نيويورك وبوسطن . وقد أدوها على مضض والغضب يجتاحهم .

ولكن ما الذى كسبه فورد ؟ فقد استطاعت الشركة أن تصل إلى تسوية مع البنوك وما لبث أن ذهب الكساد حتى أيقن الناس أن تأثير أصحاب البنوك كان عدائياً وأن رأى البعض أن يتأنى فى هذا الحكم إذ رأى أن شركة جنرال موتورز — وكانت بعيدة عن هذا التأثير — قد نجت منه وعلى العكس ففى السنوات التالية مباشرة دفع هذا التأثير شركة سيارات فورد إلى الأمام وجعلها تتقدم على غيرها ، والواقع أن الفكرة التى سادت عن ضرر أصحاب البنوك كانت من عنديات هنرى فورد دأب على إذاعتها فى كل أنحاء العالم . أما ما حققه فورد من وراء تلك الضربات فهو تلك الأوتوقراطية التى أوشكت أن تدمره . وبينما هو سادر فى عمل هذا استطاع أن يظفر بخدمة رجل أعمال فذ عن جدارة كان له أعظم الفضل عليه هو « جيمس كوزينز » .

وإلى عام ١٩١٥ كان كوزين يدير شركة السيارات فورد كعمل تجارى . فرتب مكاتب العملاء ونظم المبيعات ، وابتاع العدد والآلات ، وأقر النفقات ، وأدخل نظام التكلفة ، وحافظ على الحسابات وراقب المكاسب وخصم ما له ودفع ما عليه ، فقد كان منظماً بارعاً وكان يتميز بذلك الإحساس المرهف نحو المشروعات صغيرها وكبيرها . ونمت حياته الأخيرة فى ميدان السياسة على أنه رجل متعدد المواهب فقد كان رئيساً للبوليس وعمدة لمدينة ديترويت واستطاع أخيراً أن يفوز كجمهورى من أنصار روزفلت ، بمقعد فى مجلس الشيوخ حيث فشل فورد . ولم يكن كوزين فى الحقيقة من موظفى فورد بل كان يمتلك حصة فى الشركة وكان شريكاً صغيراً وبالرغم من إعجابه بشريكه الأكبر فقد قال مرة إنه يعمل مع هنرى فورد ولكنه لا يعمل له . ومما يكشف عن سر فورد وهو السر الذى سأعرض له بكلمة حالاً ، أن الشركة قد واجهت كثيراً من المتاعب التى تأزمت بعد أن تركها كوزين مباشرة .

— ٥ —

كان الزائر لمكتب فورد خلال العشرينات يرى صورة فى نصف الحجم الطبيعى لأمير ويلز ، دوق وندسور الآن . وكان فورد يقول لزائره « لقد قابلته مرتين وقت أن كنت هناك ، وإنى لأعتقد أنه أمل انجلترا المرموق » .

ولم تكن أحكام فورد كرجل أعمال لتفوق ذلك كثيراً ، وكان هارى بنيت بالطبع أسوأ ما وقع عليه اختياره من الرجال ، فقد جعل من شركة سيارات فورد هو وتوابعه من لاعبى الكرة المحترفين المتقاعدين ذوى

السيرة السيئة ، والمرن هارى كيبك بعد أن أعفى من عمله فى « آن آربر »[1] بالإضافة إلى ذلك الخليط من حملة البكالوريا طريدى معاهد متشيجان فى النهاية مقبرة للصناعة . وكان هارى الإبن المدلل لفورد وما دام الجميع يعرفون بما فيهم بنيت نفسه أن فورد يعامل هارى معاملة أبنائه فمن حقه أن تكون معاملته له أحسن من غيره بكثير .

ومما يستحق الملاحظة أن فورد بقدرما كانت سليقته توحى له باختيار العناصر السيئة كانت قدرته فائقة فى التخلص من الأكفاء . فقد كان تاريخ الشركة تحت قيادته سلسلة لا تنتهى من أعمال الفصل والاستقالة ، « فكوزين » ومن بعده « كندسن » و « ويلز » و « هاوكنز » و « روكلبان» و «آل ليلاند» أصحاب كاديلاك ولنكولن ، وكانجنسمت و « كازلر » ، وهكذا تمضى القائمة واحداً بعد الآخر . ولم يكون هؤلاء من جماعة البيروقراطيين المتقاعدين فقد كان الكثير منهم فى عنفوانه وقد اختطفتهم جميعاً فيما عدا القليل جنرال موتورز وكريزلر حين بدأتا أو غيرهما من المنافسين الصغار . أما هؤلاء الذين كانوا من نصيب جنرال موتورز وكريزلر فقد أسعدهم أن يعملوا مع مستخدميهم الجدد على إقصاء فورد عن مكان الصدارة فى صناعة السيارات .

وكلما مر الزمن كان فورد يجد متعة فى سرعة التخلص من معاونيه بتلك الحركة السادية الشاذة وعرف الرجال أنهم يُفصلون حالما يعلمون

---

(١) آن آربر من الجامعات المشهورة بالولايات المتحدة وهى فى ولاية متشيجان وقد تخرج فيها عدد كبير من المصريين .

بنقل أثاث مكاتبهم منها أو كما حدث مرة حالما تحطم البلطة أدراجهم وكيفما كان فقد تسلم بعض القلائل ذلك الخبر السيء بتلك الفظاظة الاسكندنافية الجافة من تشارلس سورنسون ، الذى لقى بدوره كروبسبير نفس المصير الذى لقيه أقرانه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ويرجع التأخير فى إنتاج السيارة طراز « A » ورداءة الأنواع التى صدرت منها خلال الحرب وما بعدها إلى عجز فورد وإبائه أن يجمع حوله رجالاً من ذوى الحكمة والكفاية . ولم يكن جو الشركة بعد عام ١٩٢٠ كما يرى « نيفنز » و « هل » منعشاً بقدر ما كان كئيباً ويسرى هذا القول بلا مراء على المكتب الرئيسى . وهاك الكثير من برنامج فورد التنفيذى للتوسع .

— ٦ —

وكان فى فورد قصور مفزع فى الميكانيكا .

وإنها لحقيقة عسيرة على الادراك حتى على غير هؤلاء الأمين ممن تحتويهم قصة فورد . ويقول نيفنز وهل دون حماس « إن فورد كعبقرية ميكانيكية قد يكون أعظم معاصريه » وهو ما لا يستطيع أن ينكره حتى أكثر المعلقين عداء . ولكن هؤلاء الذين يلجأون إلى تلك العبارات لا يتمهلون لحظة حتى يوائموا بينها وبين أعمال فورد الميكانيكية وهى التى أرخوها أيضاً .

فأولاً بالنسبة للمؤهلات الرسمية التى يحملها فورد ، يبدو كما لو كان عاطلاً من المعرفة بالكيمياء والطبيعة والحساب . وبدلاً من ذلك أوقف

نفسه على الاهتمام بتلك الترهات العلمية البدائية كالتدليل على أن الوجبات يجب أن تنظم بحيث لا تختلط النشويات والبروتينات وأحماض الفاكهة معاً .

كما لم يكن مؤهلاً بالمبادىء الفنية البسيطة للمهندس أو الرسام الذى يشتغل بالصناعة ، ولم يدر جدل من هذا الجدل القليل كما دار عما إذا كان فورد يستطيع قراءة الرسم الهندسى فإذا كان يستطيع فإنه لا يريد ، وكانت طريقته ، إذا كان من الممكن أن تدعى كذلك ، تقوم على التجريب الأولى كلية بمعنى « اقطع وحاول » .

فإذا فرضنا أن أى إنسان يستطيع أن يكون رساماً عظيماً أو موسيقاراً موهوباً دون أن يعرف أو يتعلم أصول فنه فان لنا أن نتصور تماماً أنه يستطيع أن يكون ميكانيكياً عظيماً بطريق الإيحاء الخالص (ومن الصعوبة بمكان فى حالة العبقرية الميكانيكية أن نهمل المعرفة الكامنة فى العلوم ، فضلاً عن التجربة أو العدد الأولية للصناعة) فان الوحى سيكون بالتأكيد مثاراً لكثير من الشكوى من ناحية الموسيقار — مثلاً — الذى يرفض فى تقسيم الموسيقى أن يهز ميل الطفولة للرقص . وهكذا كان الحال بالنسبة لفورد .

وحتى ذلك الوقت الذى خرجت فيه آخر سيارة من طراز « T » من المصنع اتخذ فورد موقفاً عنيداً من أية تحسينات حتى الضرورية منها . وفى ذلك الوقت كان « سيرز روبيك » يقدم عدة تصميمات للأجزاء الجديدة للتحسينات المطلوبة ، أثمر الكثير منها الكاربراتير الذى يحمل اسمه . وكان فى السيارة طراز « A » عيوباً فنية حملتهم على التقدم إلى

فورد باقتراحات لتحسينها وكان ذلك من الأسباب التى جعلت منها سيارة جيدة . ولم يكن لدى فورد فى ذلك الوقت ما يمكن أن نسميه مكتباً هندسياً كما لم يكن لديه هيئة للبحوث الفنية بالمعنى الحقيقى وكانت المعامل ، كما يتفق الجميع ، خالية تماماً من الأجهزة اللازمة وذلك لأن فورد كان لا يطمئن إلى خريجى الجامعة المؤهلين فالحاجة إلى الأبحاث التدريبية والمكاتب الهندسية فى أعظم شركة للانتاج الصناعى لا يمكن أن تفوت على ميكانيكى عادى فما بالك بالعبقرية الميكانيكية الفذة وذلك فى بلاد تواجه فيه هذه الصناعة منافسة حادة من مثيلاتها .

وحين أعد الطراز « A » للانتاج بعد متاعب جمة وألوان عديدة من الشك فى النتيجة وقف فورد أمام أية تحسينات جديدة عليها . ولم تكن تلك الأوهام الميكانيكية قاصرة على السيارات ففى شبابه عمل فورد فى شركة أديسون للاضاءة بديترويت وذلك فى الوقت الذى كان فيه استعمال التيار المستمر سائداً ، وكان يعلم أن أديسون — ولم يكن على حق فى هذا — قد قاوم إدخال التيار المتغير . وفى ذلك الوقت كان العمل جارياً فى إنشاء المصنع الكبير فى ريفر روج وكان التيار المستمر قد أفسح مكانه منذ زمن للتيار المتغير .

وكان لهذا التيار المتغير فوائد هائلة من حيث الكفاية ومن الناحيتين الاقتصادية والتكيف الفنى أيضاً . ومع ذلك تمسك فورد باستعمال التيار المستمر فى المحولات الكهربائية فى ريفر روج وفى الآلاف من محركات السيارات . وكان المهندسون الذين يعملون معه يعرفون أنه ليس على صواب

ولكنهم لم يجسروا على معارضته وأخيراً كان على الشركة أن تتحول إلى التيار المتغير وقيل إن هذا الخطأ قد كلفها ما لا يقل عن ثلاثين مليوناً من الدولارات .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة ، ولا يعوزنا أن نقول حقاً إنه منذ عام ١٩٢٠ حتى وفاة فورد كلف اعتراضه على الابتكارات ، بل وأحياناً على البديهيات الميكانيكية الشركة مئات الملايين من الدولارات فى المبيعات ، وأفقدها مركز الصدارة فى صناعة السيارات بل وعرض وجودها للخطر . فإذا كانت تلك هى العبقرية فقد كانت عبقرية لصالح جنرال موتورز .

— ٧ —

فما هو الجواب إذن ؟ فما زال معروفاً أن هنرى فورد هو الذى صنع أول سيارة فى الوجود وهو الذى أنشأ حقاً أعظم مؤسسة صناعية فى أيامها . وحينما يكون العدد الأكبر من الناس محلاً للاهتمام الكبير من جانب رجال العلاقات العامة وما يقتضيهم هذا من نفقات باهظة فإن هذا العمل الذى يقوم على توجيه أفكار الناس يحتاج إلى سند مالى ، وإن كان يقوم على التغرير بالناس الذين يعملون على التخفيف من متاعب البشر . وتلك أعمال فورد بادية لكل ذى عينين فكيف استطاع إنسان بهذا العجز المؤسى (أو عرف عنه ذلك) أن يقوم بكل هذا ؟

والسبب الوحيد هو أن الفورد كانت أول سيارة عرفها الناس ، ونال فورد من التكريم على اختراعها أكثر مما يستحق وكان قد صنع

أول عربة وقادها بنفسه عام ١٨٩٦ ولو أنه بما تميز به من ذاكرة ضعيفة كما يقول نيفنز قد رجع بهذا التاريخ إلى عام ١٨٩١ — ١٨٩٢ . وفى عام ١٨٩٦ كان العشرات من الرجال والشباب قد قاموا بنفس الشىء أو إنهم يقومون به فعلاً ، فالسيارة كما قال « ميرز » وغيره لم تكن قد اخترعت بعد ، فالماكينة والشاسيه قد استغرقا بضع سنوات لتحسينهما ، وكان فورد آخر من قام بذلك ، وقبل ذلك بأربع سنوات فى ديترويت ركب عربته لتجربة السير بها وكان ذلك فى منتصف الليل وكان « بانهارد » « وليفاسور » قد أصدرا « كتالوجاً » فى باريس عن تصميمهم سيارات تدار بالبنزين ، وكانت أمريكا متخلفة فى هذا المضمار ، فالدوكار الذى يدار بالبنزين والذى ركبه الأخوان « دوريا » فى سبرنجفيلد بمساشوستش عام ١٨٩٢ كان أكثر بداوة إلى حد بعيد من العربات الفرنسية ولكن فورد كان دون كل هؤلاء بكثير .

وقد صنع فورد عدة عربات فى البداية أحرز بها نوعاً من الشهرة لنفسه فى ميادين السباق وكان نجاحاً عظيماً بالنسبة له لم يحصل عليه الآخرون ممن فاقوه فى ذلك . والكثير من هذه العمليات الأولية المختلفة قام بها حقاً جماعة القادرين من أمثال « كوزين » ، و « ويللز » و « الإخوة دودج » وقد شاركوا فورد فى السنوات الأولى من هذا القرن بقصد الانتفاع بما يتمتع به من شهرة ، وكان من مصلحة فورد أن قبلهم للعمل معه وإن كان من العسير أن نتبين ما إذا كان هو الذى اختارهم أو هم الذين اختاروه . ومنذ السنة الأولى حققت الشركة ربحاً ولم تكن سياراتها أحسن أو أرخص من سيارات منافسيها وكان ذلك قبل أن

يظهر الطراز « T » بوقت طويل . وفى هذا النجاح الذى أحرزته شركة فورد لا بد أن ينسب بعضه إلى الحماس العام فى إقبال الناس على شراء السيارات ، فلم يحدث أن راج اختراع جديد كما راجت سوق السيارات . ولم ير فورد فى البداية فائدة ظاهرة فى السيارات الصغيرة الرخيصة الثمن ولكنه حين أخذ بها تمسك بها فى عناد لا نظير له فما لا شك فيه أن فورد كان رجلاً عنيداً ، وقد أفاد من تلك السيارة كثيراً ولكنها كانت غرماً عليه فى النهاية .

ولم يكن الطراز « T » حين ظهر عام ١٩٠٨ متفوقاً من الناحية الميكانيكية ولم يكن رخيصاً ولكن « جيمس كوزين » وهو علم من أعلام التنظيم فى التاريخ هو الذى أيد اقتناع فورد بأنها أحسن سيارة مناسبة . وإلى كوزين يرجع الفضل فى إنشاء تلك المنظمة المختارة من الوكلاء الذين قاموا بتسويق السيارة وخدمتها ، وأدى ذلك إلى زيادة الطلبات على المصنع فقام بتنظيم الإنتاج الذى رآه كافياً لسد حاجتهم . ولم يتدخل فورد فى ذلك ففى تلك السنوات من سنى التوسع الهائل التى سبقت الحرب العالمية الأولى لم يكن يقضى فى المصنع غير أوقات قليلة ، ويدعو « سورنسون » تلك السنوات « بعهد كوزين » فكل من فى المصنع بما فيهم فورد نفسه كان يعرف أنه كان القوة الدافعة فى تلك السنوات . ولم يبد على « كوزين » أنه تأثر بهذا النجاح فى علاقته بفورد .

وبعد أن ترك كوزين الشركة عام ١٩١٥ جمع فورد السلطة فى يديه ومنذ ذلك الوقت لم تلق الشركة مثل هذا النجاح ، وترجع رغبة فورد

فى الاستحواذ على السلطة إلى الشهرة والمكانة اللتين أضفاهما النجاح عليه ، وقد استقال كوزين حين لمس أن فورد يرغب فى أن يتخذ من الشركة وسيلة للاعلان عن نفسه . وفى السنوات التالية كان فورد ولهاً بصورة لاتقاوم للاعلان عن نفسه ، فسخر جهود الآخرين لإعلاء شخصه دون سيارته ولم تلق أكثرية الناس بالاً إلى الجهد الذى يبذله بكل ما تحدوه إليه غرائزه ومقاصده من وجد الخلق « أسطورة فورد » وإن لم يبد عليه أنه يهدف إلى ذلك فقد كان أول وأبرع من استغل العلاقات العامة فى الصناعة .

وهناك كلمة أخيرة عن أخطائه . فقد ولد فورد عام ١٨٦٣ وعندما برز كشخصية عامة سنة ١٩١٤ وهى السنة التى عرفت بسنة « الخمس دولارات أجراً يومياً » كان فى الحادية والخمسين ، ولم تحدث أكثر أخطائه التى تتعارض مع رغبته فى الظهور إلا بعد ذلك ، وحتى يكون الحكم صحيحاً على فورد يجب أن توضع تلك الحقيقة فى الحسبان وهو أنه عندما قفز إلى الشهرة كان قد تعدى طور الشباب وقد جعله النجاح إنساناً لايميل إلى المشورة والنصيحة فطالما رأى فى حياته ألواناً من الشذوذ والغباء تبدو كما لو كانت العبقرية الفذة وكان هو نفسه يصدق ذلك .

القسم الثالث

الفلاح الذى يعروه حنين الماضى

الفصل العاشر

نعمة الإفلاس وفوائده

اعتدنا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أن نقضى شهور الصيف فى ضيعة عتيقة فى الجنوب الشرقى من « فيرمونت » حيث تمضى الأيام واهنة كليلة وسحر الضباب يغلف المروج فى تلك الأمسيات المتأخرة ، والشمس فى صحوتها وقد نشرت أشعتها على أشجار الأسفندان تضفى على حياتنا هدوءاً وسلاماً يغشى بدوره الأطفال وإن كانت المقارنة بين المرتبات والأجور التشجيعية والعلاوات الإضافية التى يتناولها أستاذ أو مدرس والتى يتناولها رجال الصناعة لا تجعل الإنسان يأسى على عمل يتيح له أن يقضى ثلاثة أو أربعة شهور من كل عام فى هذا الفردوس ، فكم يتحرق الناس شوقاً إلى مثل تلك المراتع الرائعة .ومن هنا تبدأ القصة .

ففى كل صيف كان يزورنى كأستاذ للاقتصاد عدد معين من أصدقائى وزملائى فى العمل وكانوا جميعاً يتساءلون فى كثير من اللياقة أو لمجـرد المعرفةعن المقومات الاقتصادية لهذا المـكان من «فيرمونت» ، وقد وجدت فى تلك الأفـكار التى تداعت أثر تلك الأسئلة مايضنينى ، فالتلال والوديان الضيقة إلى الشمال من « مساشوستس » والتى تقع بين الجبال الخضراء وولاية « كونيكتيكت » تبدو كما لو كانت غنية ولـكنها لا تجد نوعاً من الرعاية أو المعونة الظاهرة ، فليست هناك لحسن الحظ صناعات وإن كان

فى الأودية بعض معامل الألبان القليلة إلى أن شمال فيرمونت هو الذى يفيد وحده من الإيرادات الحكومية ولكنه يعانى من تقلب أسعار الألبان فى بوسطن ، ومن الناس من كان يعمل هناك فى الغابات التى انكشفت عن أرض صخرية لا يجود فيها الزرع ولكنها كانت حرفة قاسية لجيرانى هؤلاء . ويبدو أن الفرنسيين والكنديين أكثر قدرة على هذا العمل الشاق . فلمدة عام أو عامين ، وكنت مشغولا بتأليف هذا الكتاب ، استخدم منهم عدد ضخم فى بناء سدين ضخمين لحجز مياه الفيضان فى المناطق المجاورة ، ولكن الناس كانت قد تحسنت أحوالهم قبل أن يقوم هذا العدد الضخم من المهندسين بالإصلاح ، وكان الكثيرون من القاطنين يعملون بصفة مستمرة فى تعبيد الطرق حيث يقومون بتسويتها وإصلاح ما أفسده الشتاء خلال الصيف وجرف الثلوج أثناء الشتاء ، ولكن جاراً ممن يوثق بأخبارهم قال لى إن كل ما يكسبونه من مال يدفعونه كضرائب تجبى لإصلاح الطرق ، وإن كنت لم أتحر دقة معلوماته إلا أنه رجل ممن يعتد بكلامه .

وهناك أيضاً المقيمون الطارئون، وكنا منهم ، فقد كنا أشبه بالطارئين منا بالمصيفين حيث كنا نصل فى بواكير الصيف ونتأخر حتى قدوم الخريف وبذلك كنا فى الحقيقة جزءاً من هذا المجتمع . ولم تكن هذه المنطقة من المناطق العصرية المتمدينة ولم يكن روادها إلا خليطاً من الأساتذة ورجال الأعمال الذين يشاركونهم اهتماماتهم العلمية بجانب اعتبارهم لقلة النفقات فى مثل هذا المكان . فنحن وإن لم نكن من الثراة إلا أننا نملك ما يكفى حياتنا .

— ٢ —

ولكننى أصبحت بالتدريج معنياً بمورد هام آخر للايرادات والذين يقومون به إنما يضاعفون من متعة الحياة الريفية ويزيدونها بهجة وراحة وقد يجعلونها مقبولة . وهؤلاء هم الذين ينفقون مدخراتهم وأموالهم الموروثة وما يحصلون عليه من قروض على المشروعات العامة النافعة ، وهم الذين يغرسون ويصنعون الأشياء النافعة ، وأكثر من هذا أنهم يقومون بخدمات جليلة لا يمكن أن تقوم على ذلك النمط التجارى البحت، والأسعار التى يتقاضونها ضئيلة وليس هناك من يشكو منها إذ أنها دائماً لا تعدو تكاليفها ، ولا تفيد الجماعة من السلع التى تقدمها أو الخدمات التى تقوم بها فحسب وإنما تفيد أيضاً من الإيجارات والفوائد التى تدفعها والمشتريات التى تقوم بها والمرتبات التى تضطلع بها . وسيأتى أكيداً ذلك اليوم حين تصبح الإيجارات والفوائد والفواتير وكشوف المرتبات مصدراً للقلق ، أو لا يأتى ذلك اليوم على الإطلاق ولكن غيرها سيأتى باطراد ، فالتنافس الذى يخدم الجمهور عند حدوث خسارة يكون قاسياً ، ففى مدينة قريبة منا يقوم نزل فشل مرة ومرتين فشلاً ذريعاً من الناحية المالية خلال السنوات الخمس الماضية ولكنه معروض للبيع الآن بأغلى الأسعار وإنها لفرصة عظيمة أن تحصل على الثمن المطلوب أو قريباً منه ، وتبعاً لهذه الحالة وغيرها من الحالات الأخرى يقوم اعتقادى فى أن الخدمات تتحسن فى كل حالة من حالات الإفلاس .

وهذا النزل أحسن مثل فى استهلاك رأس المال يضفى على هذه الظاهرة

العجيبة مسماها الفنى ، ولدينا مثل عما يسميه رجال الاقتصاد « بالحقيقة المركبة » ، فى أن رجلاً وزوجته من « ينوكنان » قاما برحله فى السيارة إلى مونتريال خلال إجازة الخريف وكانا مغرمين بالريف ، ولهذا كانا يعيشان فى مقاطعة « فيرفيلد » وكان هذا أيضاً سر اختيارهما تلك الرحلة بنوع خاص . وقـــد قضيا الليل فى نزل ريفى يقع على طريق فرعى بين « براتليبورو » و « مونتبلييه » ، ولم يكن هذا النزل فندقاً صغيراً بل كان نزلاً بمعنى الـكلمة تحيط به أشجار الدردار والاسفندان التى تخفى وراءها محطة صغيرة من محطات شل تقوم على الطريق . فياله من هدوء وياله هذا التباين بين حياتهما والحياة فى تلك النزل الهادئة ، وأين العزلة والجلال من تلك الحياة اليومية القاسية فى « نيوهاقن » وأين الهدوء فى ذلك الطريق الخلوى من ضغط العمل العنيف والتزاحم على محطة الترام الأرضى ؟

وقد تحدثا فى سفرهما عن إمكان التخلص من عمله الشائك . فهل يحدث هذا حقيقة ؟ فإن أكثر الناس لا يشاءون أن يحدث ذلك ، ولـكن من الممكن أن يحدث بالنسبة لهما فالزوج يدرك ذلك تماماً . وبعد أن قضى خمسة عشر عاماً مضنية وهو يعمل محاسباً فى إحدى شركات التأمين تحدوه رغبة جارفة للتمتع بأيامه الباقية ، وزوجته التى تصغره عشير كريم ولديهما بعض المال بل وما هو أثمن من المال ألا وهو الابتـكار والشجاعة والإلمام بأصول الطهى .. والغريب ، ولربما أكثر مما هو غريب ، أنهما يعرفان أن هذا الاتجاه ليس من الأعمال الـكبيرة إلا أن التاجر الصغير أكثر تسامياً وهو ربيب أمين للحرية ، لذلك لقى عوناً كاملاً من جانب الديمقراطيين.

الأحرار (١) ولم يكن هذا التاجر الصغير من أولئك الرجال الذين يجمعهم « ايك » (٢) حوله فى البيت الأبيض خلال تلك الأيام الغراء من أيام الجمهوريين الأخيرة ولكن آلهة الحظ ترعى هذا التاجر الصغير وتزكى مواهبه وتعلى من شأن تجارته وتبرز نجاحه . وهناك عدد من الأمثلة تحكى قصة أناس بلغوا قمة النجاح فى حين أنهم بدأوا فى سن متأخرة من حياتهم. والذين يفيدون منا مما تبقى لدى الناس المرضين للافلاس ليدينون بأعظم الفضل لأولئك الرجال ولقصص النجاح المائلة وإلى اتساق النمو عند الجماعة والتماسك الخلقى والمسئولية الاجتماعية وإلى المال السهل المتداول الذى يملكونه . وقد عاد الزوجان إلى القرية ولم يكن عسيراً عليهما أن يعثرا على سمسار العقارات .

وكان هناك نزل صغير للبيع وحدث أنهما توقفا عنده ، ولم يكن ذلك من قبيل المصادفة فكل النزل الصغيرة فى الريف معروضة للبيع . ولما كانا من نيويورك وكان الزوج لهذا ملماً بأصول الإدارة الحديثة فقد قام بفحص حساباته فحصاً دقيقاً واكتشف أنه يخسر باستمرار واستطاع أن يدرك إدراكاً صحيحاً أن سبب هذه الخسارة هو سوء الإدارة . ولكن الشىء الذى غفل عنه هو أن مثال هذه المشروعات التجارية لا تحقق ربحاً مجزياً حتى تحمل مثل هذا التأثير عن إدارة يسودها الإهمال . وارتحل الملاك الأصليون إلى نيوجرسى حيث بدأوا لأربع سنوات أخرى عملاً جديداً

---

(١) الحزب الديمقراطى الذى يدين له المؤلف بالولاء والذى ينتمى إليه الرئيس كنيدى .

(٢) إسم التصغير لايزنهاور .

مقابل أجور زهيدة فكانوا يبتاعون اللحوم والخضراوات المحفوظة من الحوانيت المحلية عدا القليل من المشروبات الروحية التى كانوا يبتاعونها من الحوانيت الرئيسية فى الولاية. وكانت هناك لحظات يفيئون فيها إلى المشروبات الروحية فتصرف عنهم الحزن كما كانت الأوقات القليلة الأخرى للراحة من التجارة تخفف عنهم المشقة وتعفيهم من العناء . وكان الطارىء من المقيمين يجد فى هذا المكان جواً عائليا وأكلات بيتية وعند الحاجة فائضاً لنزيل زائد .وكان العمل رائعاً وخاصة فى موسم صيد الغزال وفى الأسبوع الذى يسبق الاحتفال « بيوم العمل » حيث يتضاعف الإقبال ويزيد عما يمكن أن يتحمل . وبلغت تكاليف هذا العمل المجزى ١٣٫٦٠٠ دولار وكان من الممكن أن يكون أكثر من ذلك ولكنهم كانوا بسبب المنافسة يحصلون على أرباح طائلة وكانوا يؤدون أيضاً خدمات جليلة دون مقابل وإن كانت هذه الخدمات هى فى الواقع ذخيرتهم الأساسية من رأس المال .

وكان المستقبل بالتالى مشرقاً وحق لنجار القرية ورجليه اللذين يعملان معه أن يتطلعا فى كثير من التفاؤل إلى موسم الخريف الحافل بالعمل حيث قام زوجان آخران من نيوجرسى بتحويل شونتهما إلى ورشة دائمة للأثاث بعد أن قام أصحاب النزل الجدد دون إبطاء بوضع نظام أحسن لمطبخ حديث وأعادوا تأثيث حجرات النوم وأضافوا حمامين آخرين وحولوا مخزن الأخشاب إلى «بار» أنيق . وستجعل هذه التحسينات من النزل مكاناً مختاراً لتمضية الأجازات ولاستقبال النزلاء بل وأجزل من كل ما فى المنطقة من أعمال تجارية مربحة .

— ٣ —

وكيلا يظن أحد أن القصة مخترعة فإننى أعود إلى وقائع محددة ، فلمدة سنوات كنا نتناول وجباتنا فى نزل مختلفة على التعاقب ، وكانت هذه النزل وقفاً على أربابها وكانوا جميعاً من المدن وكان تعويلهم لتلك الخدمات التى يؤدونها لنا ضئيلا حتى كنا نظن دائماً أنهم ينفقون أموالهم علينا وإن هذا ليعنى أن كل زيارة تستنفد جزءاً من رأس المال ، وفى هذا يجب ألا نغفل تلك الفروق المرنة بين التكاليف البادية والتكاليف الحدية. ومع ذلك فقد كنا نحس كما يحسون أيضاً بأن رعايتنا مجاملة حقة لهم ، وقد كنا نأسف لزوالهم كما حدث أخيراً وإن كان عزاؤنا فى أننا نعرف أن آخرين سيحلون محلهم وهو ما كان يحدث دائماً .

وهاك بضع أمثلة لهؤلاء العاملين الأحرار تمتد إلى ما لا نهاية .

ففى العام الماضى كانت أعمال السباكة الخاصة بنا يقوم بها رجل من «لونج أيلاند » ارتحل فجأة كما نعتقد إلى «مونتانا» . وكانت لدينا كمية من الأثاث الغالى الثمين ابتعناها من ورشة الأثاث التى كانت قائمة قبل هذه ، وما زلت مديناً بدولار ونصف ثمناً لبعض أزهار الجلاد يولا البيضاء وقد ذهب صاحبها قبل أن أفيه ثمنها . وترك جار كريم عمله فى نيويورك ليدير بئراً ارتوازية. وكان من الواجب أن نرعاه ولكننا لسوء الحظ قد انتهينا من العمل قبل أن ينتهى من دفع الماء. ومنذ زمن كنت قد فاوضت «كولونل» سابقاً فى الجيش لشراء قطعة أرض وكان قد ترك عمله فى وول ستريت ليعمل سمساراً للعقارات فى المنطقة ، وحين اعترضت على ارتفاع الثمن قال

إننى جرحت كبرياءه كرجل عسكرى تخرج فى « وست بوينت » [١]
جرحاً عميقاً وفشلت الصفقة . وقد عاد الآن للعمل فى الأوراق المالية .
وقد اعتدنا أن نبيع محصولنا من الدريس لمزرعة من مزارع تربية الخيول.
وكانت مزرعة جد رابحة طوال وجودها . وكنا نحصل على أخشاب
الوقود من أناس كانوا يقومون غالباً بالمبادلة عليها وكانوا يعتقدون أن
الغابة التى يملكونها أحسن مورد للأخشاب . وهناك جار فى نيويورك
كان يمدنا بحاجتنا من البطاطس وكانت له قدرة فذة على التغيير فلم يكن
يستثمر مدخراته أو ميراثه بل كان يعمل فى شركة للاعلانات . وهكذا إلى
ما لا نهاية لتلك القائمة من العاملين الأخيار .

— ٤ —

ومما يلفت النظر تلك الفكرة الاقتصادية حيث يؤدى كل فرد عمله
الشاق ، ويدخر أمواله ثم يهجر هذا العمل للقيام بمشروع تجارى نافع
للناس . ومهما يكن فإن أهالى فيرمونت لا يشاركون بأى قسط فى هذا
العمل فإنهم يفضلون تماماً الجهد المجزى ، ومعنى ذلك أنهم نادراً ما نجدهم
يديرون نزلا ريفياً ، أو يقومون بصناعة الأثاث أو يزرعون البنفسج
والبطاطس أو يربون الخيل . وحيث يمر الطريق الخامس على طول الحدود
الشرقية للولاية مخترقاً ذلك النفق البشع المظلم تحيط به من الجانبين

---

(١) وست بوينت West Point الكلية الحربية الأمريكية وقد تخرج
فيها الرئيس أيزنهاور عام ١٩١٦ م

الفنادق الصغيرة (موتيل) وحوانيت العاديات ، ومحال بيع الأثاث التى لا تمت إلى فيرمونت وإنما تمثل مهارة أهالى « نورث كارولينا » هذا بالإضافة طبعاً إلى محطات البنزين والمطاعم حيث يعمل بعض القلائل من أهالى فيرمونت الذين رأوا أن « همبرت همبرتس » يشمل هذا السوق المزدهر برعايته ويفضله كالآخرين تقريباً على القرى المحلية المشوقة فى تلك المنطقة . ولا يعمل على هذا الطريق أحد من نيويورك فمن العبث أن تمارس تجارة شائكة فى مثل هذا الطريق الضيق المزدحم .

وإنا لشعب يدين بالكثير إلى المنح والإعانات ، فبها مدت السكك الحديدية بل والخطوط الجوية أيضاً . ولم يتردد دعاة الحماية الجمركية فى اعتقادهم بأن الإعانات المقررة والتى تختلف مثلا عن تلك التى تقوم على التنافس هى وحدها التى أقامت بناءنا الصناعى الضخم ، وهى التى جعلت تجارتنا البحرية فى الصدارة ، وهكذا كما ولا بد أن نذكر كان « ريتشارد نيكسون » فى سنى طيشه ورعونته . ولهذا من الواضح أيضاً ألا نشعر بشىء من الخجل من صغار التجار الطامحين ممن كانوا خير معوان لريفنا البهيج ، ومن أجلّ ما يكون أن تستمر المعونة فهى لا تحتاج كدعم أسعار المزارع إلى مخصصات من الحكومة الفيدرالية وليس فيها مجال للادعاء بأننا نعيش منعمين على حساب دافع الضرائب. كما أنها لا تستدعى كاستنزاف المرتبات الإضافية التى يتمتع بها رجال البترول نوعاً من الشكوى، وهى شكوى حقة من المحاباة الوهمية . وهذه المعونة التى نتقدم بها نافعة تماماً ، ففى الوقت الذى يعجز فيه هذا التاجر الصغير كما سبق أن أشرت لا يتأخر غيره عن أن يحل محله ، وقد نابت عنا الصحف الرزينة فى التنويه

بمحامد تلك التضحية ، فأقامت الدليل على قيمتها ودعمت الثقة بها .
وسيؤدى التأخر والكساد كما نعتقد إلى زيادة عدد الذين يبحثون عن
الجلال فى الريف وينشدون الأمن فى تجارتهم وأعمالهم وستكون النفقات
قاسية بالنسبة لأولئك الأفراد وإن كانت لا تؤثر كثيراً فى عمليات السحب
الكبرى المجهولة للقوى الاقتصادية .

الفصل الحادي عشر

فلاحة مزرعة بائرة

قمت لعدة سنوات بدون تكليف رسمى ومن باب الهواية الخالصة بالإشراف على بحث عن أثمان الضياع الزراعية فى « نيوإنجلند » وكان اهتمامى بهذا النوع من الضياع البائرة المهجورة أو التى لا تزرع كاهتمام غيرى من الزبائن الآخرين بأمثال هذه العقارات . فقد خطر لى أن أجعل من تلك البحوث عوناً للناس عامة دون أن يخطر على بالى أو يبدو لدى أى اهتمام بانقاذ أموال المشترين الجدد فانى أحب منهم أن يستثمروا أموالهم فى ضياع نيوإنجلند وإنى لأجد هذا نافعاً لهم ، ونافعاً لقطعة الأرض التى أملكها هناك حيث ترتفع قيمتها ، كما هو نافع للمشترى . وكيفما كان الأمر فانه فى الوقت الذى كان لدى فيه بعض الاقتراحات عن الطريقة التى تحتفظ فيها الاستثمارات بحدودها المعقولة كان من يضع الادخار فوق أى اعتبار آخر يودع أمواله فى البنوك .

— ٢ —

وفى تلك البقعة التى تقع إلى الجنوب من فيرمونت كان الناس الذين يزورون أصدقاءهم فى الريف خلال الصيف يعتزمون كل ربيع أن يكون لهم مكان خاص بهم فى العام التالى ، وكانوا يدينون بهذه الفكرة لأولادهم

ولم يكن هناك وقت لذلك أبهى من أجازات الخريف الأسبوعية حين تتجرد أشجار الأسفندان من أوراقها ، وإلى جانب تلك الرغبة الموسمية فى امتلاك ضيعة ريفية كان هناك فريقان آخران يظهران نفس الرغبة لمدة تطول أو تقصر .

فأما الفريق الأول وهو الأكثر عدداً فهم جماعة لايعتورهم مثل هذا الحنين الموسمى لأنهم ينزحون عن المدينة وخاصة من نيويورك إلى الريف . فقد كان أصحاب الضياع يحسون بأن مصيرهم متعلق بصخب المرور وازدحامه فى نيويورك وحالة الانتقال فيها ، وكانوا فى زحمة العمل يقرؤون صحف نيويورك ويتطلعون إلى المستقبل فى كثير من الثقة .

ومع هؤلاء الهاربين من زحمة الحياة يفد فجأة فريق من اللاجئين الذين ينشدون الاستجمام لشهر أو شهرين فى روابى نيوإنجلند بعد أن غشى دخان المصانع نيويورك وبوسطن وحتى براتلبرو وفيرمونت وكين ونيو هامبشير أيضاً ، وتتذبذب هذه الرغبة تبعاً لاحتدام الحرب الباردة أو خفوتها بالرغم من تحذيرات واشنطون الصارمة بألا نستسلم للاسترخاء وكيفما كان الأمر فمن المحتمل أن تكون النكسه وقتية فى دنيا كهذه .

— ٣ —

ولا تنفق مشكلة تسويق الضياع البائرة فى نيوإنجلند مع مبدأ الشراء العاجل انتظاراً لارتفاع السعر فى المستقبل وهو المبدأ الذى لايعرفه معظم الناس وهو أن مشكلة تسويق الضياع البائرة تقوم غالباً على أساس من المفهوم الخاطىء .

فهناك أولا الاعتقاد بأن الربى والوديان فى نيوإنجلند قد ازدحمت تماماً وأن الدور القديمة الأنيقة قد انتزعت جميعها عن قصد ، ومن العسير حقاً أن نجد تلك الدار القديمة المحبوبة بشذاها العبق ورثائتها ومدافئها الأربع ، ومروجها الرائعة ، وأشجار الاسفندان المهيبة التى تحيط بها والجدول الجارى والجبل الأشم الذى يشرف عليها ، من العسير أن نجد هذه الدار فى مقابل ألف وخمسمائة دولار ، وإن لم يزل هناك هذا العدد الوافر من الدور الأقل بهاء وهى وإن كانت لاتروق كثيراً إلا أنها أحسن من أى دار فى المقاطعات الشرقية حيث كانوا يمنحون فى تلك الأيام مع الأرض التى ينالها الشخص مقابل ثمن بخس كوخاً بالكاد يكفيه ، ففى فيرمونت وهامبشير لم يكن هناك مجال للاختيار بالنسبة لشخص لا يملك مثلا غير سبعمائة دولار فأقل ، فإذا كان يملك من ثمانمائة دولار إلى ألف ومائتى دولار فإن لديه فرصة أطيب وسيتاح له أن يمضى أياماً طيبة فى البحث هنا وهناك بصحبة سمسار العقارات فى المنطقة .

وما زالت السوق مشبعة أيضاً فلم تعد نيوإنجلند بالمنطقة الزراعية المتخلفة بعد أن زال كابوس التأخر الذى ألم بها لمدة خمس وعشرين سنة طويلة بدأت عام ١٨٢٥ عندما استخدمت قناة « إيرى» فى نقل الحبوب الرخيصة الثمن من «أوهيو» إلى الشرق . وبينما كان إنتاج الألبان وتربية الدجاج وزراعة الفاكهة والخضر والطباق ينمو باطراد فى الأماكن المختارة كانت هجرة القرى والمدن الجبلية مستمرة فأقفرت الدور تماماً بعد أن نزح عنها آخر مقيم إلى المدن أو مات عليها قبل أن ينزح عنها .

— ٤ —

وهناك من ناحية أخرى الاعتقاد الخاطيء بأن ابتياع ضيعة ليس إلا عملا بالغ الخسارة ، ففي القرنين أو الثلاثة قرون الأولى من تاريخنا كان من المسلم به أن سكان المدن ألمع وأذكى من سكان الريف ، وفي كل عام يروح عدد لايحصى من الفلاحين ضحية دهاء المحتالين والنصابين في المدن. وبعد خمسين عاماً على وفاة « أوهنري » أروع من صورت قصصه أعمال الاحتيال هذه ، انقلبت الآية وأصبح الحضري (ابن البلد) وخاصة إذا كان من أبناء نيويورك في نظر ذلك القروى تاجراً فدماً ، وكانت تلك هي نظرة المدنى إلى نفسه أيضاً حين رأى أنه عاجز تماماً عن أن يجاري هذا الفلاح البشوش الماكر الذى يختفي خبثه المتأصل وراء غلالة ظاهرية من السذاجة والوداعة ، وأنه ليحس كما لو كانت ستنزع عنه كل أملاكه إذا ماابتاع ضيعة من مثل هذا القروي .

ومن المتوقع دائماً أن يقع الإنسان ضحية هذا الاحتيال الريفي عند ابتياع ضيعة قديمة إلا أن الخطر ليس كبيراً ، وهناك شيء واحد يتضاءل فيه الخطر إلا وهو ابتياع ضيعة للاقامة ، فالأخشاب المتآكلة ، وعتبات النوافذ المنهارة ، والسقوف المشققة تبدو ظاهرة للعيان وكل ما فيها من عيوب يبدو واضحاً لكل ذى عينين حتى لأكثر المشترين سذاجة ، فإذا كان هناك عيب ما فأما أن يترك على حاله أو يرمم إذا ما كان سيئاً كما هو الحال في الأسقف المشققة .

وكثيراً مايوجد العيب ولكنه لايكون بالغ الضرر ، وإني لأذكر

زميلا بجامعة هارفارد اعتاد أن يستجم صيف كل عام مستمتعاً بالروابى الخضر من نافذة دار لم تمسسها يد الإصلاح طوال خمسين عاماً على الأقل وفى كل عام ينهار جزء منهـا وتبدو الدار كما لو كانت ستتهاوى تمامـاً ولـكنها لم تهو وبقيت قائمة .

والحقيقة أن سمسار العقارات الريفية يطلب أسعاراً خيالية من سكان الضواحى حتى تسنح الفرصة المنشودة لنفر ساذج يدفع الثمن المطلوب دون تردد . ولـكن الاستعلام عنها من الجيران ينتهى دائمـاً بتـكوين فـكرة مشتركة صائبة عما يساويه هذا المكان القديم ، ولن يتأخر الجيران فى بذل أية مساعدة منشودة ، ذلك أنهم لا يحبون اغتيـال أحد فى أمواله ولأنهم لا يثقون أبداً بسمسار العقـارات الذى يـكسب عيشـه دون أن يؤدى عملا لائقـاً .

— ٥ —

ولا يتأتى الخطر الذى يتهدد أموالك من جانب البائع ولا من جانب وكيله البالغ السوء ولـكنه يتأتى منك نفسك ، ويجثم الخطر حين تتم عملية البيع فحالما تغدو مالكا تنتابك دوافع الإصلاح وتتطلع إلى دورات المياه وإلى المطبخ الأنيق وإلى إزالة حاجز أو حاجزين وفرش الأرضية القديمة بالرمال ليبدو جمالهـا طبيعيـاً ومن ثم الاهتمام بالشرفة وعريشة الورد والورشة وخزان الميـاه .

ولا نستطيـع أن نقـاوم هذا الدافع للاصلاح فهو بعض مافينـا نحن الأمريكيين وهو الذى جعل منا بحق مانحن عليه الآن ، والأمل الوحيد

هو أن نحول هذا الدافع إلى الإصلاح إلى اتجاهات لاتكلفنا كثيراً ، والرسم أحسن اتجاه من هذا النوع فإنه لايكلف كثيراً وأن ساعة تقضيها فى المرسم لتخرج منها بنتائج بارزة واضحة لكل ذى عينين ، وشروخ البناء إذا ماطمرت فانها تكتسب طابعاً أثرياً .

ويقابل الرسم فى قلة النفقات هواية اقتلاع الأعشاب ، فظاهرة توالد الأعشاب من أغرب ماتمتاز به نيوانجلند ، فإن الله يحب هذا الإقليم وأنه جل جلاله كما لاحظ أحد جيرانى ليحب أن يستعيدها إليه دائماً ، فإذا رأيت مرة أية عشبة فى أى مكان هنا أو هناك وكأنها قذى فى عينيك وتناولت محشة لتنظيفها فهناك احتمال بأنك قمت بعمل لايكلفك مالا .

ولهذا فإن الحاح الإصلاح وإن كان لايقاوم إلا أن من اليسير أن نتسامى به وإلحاح الفلاحة وإن كان قليل الشيوع إلا أنه يكلف كثيراً ومن الواجب ضبطه بمنتهى الدقة .

وتبدو الأسباب التى تدعو إلى إهمال الضياع البائرة وعدم إصلاحها واضحة إلى حد ما فإنها قبل كل شىء قد هجرت وقد لايكون آخر فلاح عمل فيها من هذا الطراز من العمال الذى يحبه وكيل المقاطعة ولكن لو كانت المزرعة جيدة لكان من المحتمل أن يكون المزارع كفئاً ولكان من المحتمل أن ينقذ المزرعة ، ولكن بدلا من ذلك كان مصيره الفشل . وهكذا كانت آلاف الضياع فى نيوإنجلند مع أن مثل هذا الشعور المرير بأن مثل هذه الأرض الطيبة ستبقى مهجورة ولن تجد سوقاً رائجة ليس إلا خطوة يأتى بعدها الحصول على مزرعة قديمة يتسلح فيها المالك الجديد

بالعزم والتصميم والبطولة التى لايتوقعها من نفسه للوقوف أمام تلك القوى الاقتصادية الغامضة التى جعلت من نيو إنجلند أجمة مهملة .

فإذا رأى أن يتخذ منها مزرعة للدواجن أو لإنتاج الألبان فليس له أن يتوقع الفشل أبداً ، فإن تربية الدواجن وإنتاج الألبان فى يد قادرة خبيرة وفى بيئة مناسبة لهو عمل ناجح تماماً ، ومهما يكن نجاح هذا العمل فإن هذا النجاح أكثر ضماناً إذا لم يكن المالك طارئاً عليها وإذا كان قد اختار المزرعة لهذا الغرض منذ البداية .

ولكن إنتاج الألبان والتربية الحديثة للدواجن تتطلبان طرازاً من الزراعة الخشنة الخالية من الأناقة ، فالعمل فيهما مما لا ترتاح إليه النفس فى الغالب وعلى ذلك فإن الرجل يأخذ على عاتقه استخلاص نيوإنجلند من أحراش البتولا والاسفندان والصنوبر والتوت لأشبه برجل يتخيل قطيعاً من أيائل « أبردين » أو أغنام « شروبشير » يسرح فى مروجه ، فإذا اعتز بخياله هذا قفز بتفكيره إلى نوع من العمل الفذ حقاً .

ويمكن للانسان أن يكون متعسفاً فى هذا ، فإن أى نوع من الزراعة لم تجر تجربته فى نيوإنجلند لا لسبب إلا لأنه لم يكن مجزياً بأية صورة وأن أى عمل جديد ناجح سيجد من لايفوته أبداً أن يكتشف مغاليقه من بين الفلاحين الأذكياء المهرة فى المنطقة بالرجوع إلى وزارة الزراعة وليس عن طريق أى قادم جديد من المدينة .

— ٦ —

ولنتخذ من الأغنام مثلا فإن تكاثفها فى نيوإنجلند باستثناء بضعة مزارع فى الشمال مما يمكن إنكاره . وكان مئات الوافدين من المدن عاماً بعد الآخر يذهلون لتلك الظاهرة حيثما ساروا تطالعهم أعداد من المراعى العذراء وأنهم ليعرفون أن الأغنام لاتروعها المنحدرات الجبلية ولاالأحجار ولا جداول الماء . كما أن محصول الدريس فى تلك المراعى يفوق غيره فى المراعى الأخرى التى غذت أغنام « السناتور ماك كاران » وكانت عوناً له بنسبة تتراوح بين خمس مرات وخمسين مرة ، فالأغنام تترك المروج عارية مشذبة خالية من الحشائش .

ولنذكر كم هى جملية تلك التلال فى إقليم البحيرات حول وندرمير ؟

وكرجل من رجال الاقتصاد الزراعى لم أجد حالة يمكن أن تعدل فى مزاياها مزايا تربية الأغنام فى يد راع أديب حازم وإن كان هناك ماتذكره من بعض الخسائر التى تتعرض لها ، ففى نيوإنجلند تكون المراعى خلال الصيف غضة ريانة ولكنها فى الشتاء لا تصلح أبداً للرعى . وليس أمام نيو إنجلند إلا أن تزاحم المناطق الأخرى حيث المراعى دائمة الخضرة وإلا فعليها أن تتوقف عن هذا العمل شتاءً . ولما كانت نيوإنجلند لا تعتمد على إنتاج الحبوب فإنها تركز اهتمامها فى تربية الضأن الذى تستورده حملان صغيرة من منطقة الغرب الأوسط حيث تربى فى مزارع « أيوا » على الحبوب التى تزرع فى الحقول المجاورة .

وهناك أيضاً التسوير فإنه ضرورى للغاية فإن حائطاً من الأحجار

لايعد حاجزاً أمام نعجة متمردة وإقامة الأسوار مما يكلف كثيراً . ولن تحجز الأسوار الكلاب التي تتكاثر بشكل بارز في نيوإنجلند ويأبى أصحابها القضاء عليها . وحيث يوجد في الجبال وفي ولايات الغرب الأوسط من يستطيع جز أصواف الأغنام أو من يستطيع أن يقدم خبرته في تربية الحملان ، لايوجد في « بركشير » وفي منطقة الجبال الخضراء من يلم بتلك الحرف أو يقوم بها .

وأخيراً فإن حرفة تربية الضأن قد تأخرت بشكل بارز في كل أنحاء البلاد ، وبينما أن « نيفادا » تتفوق في تربية الضأن على « نيوهامبشير » بشكل بارز إلا أنها لاتستطيع أن تجارى استراليا في ذلك . وقد رأيت في طفولتي قطيعاً من الأغنام في كندا يحقق ربحاً طيباً بينما أن أحسن الأنواع في نيوإنجلند تسبب خسارة فادحة فإذا لم تكن هناك فائدة ملموسة من استغلال المزارع البائرة فليس أمام الملاك إلا حل واحد وهو تشجيرها وإن كان ربحها ضئيلا إلا أنه ربح مضمون ، وهنا على العكس من تربية الضأن نجد خبراء الغابات الذين يشرفون على العمل ويوجهونه . ويغدو واضحاً أيضاً أن بعض الأشياء وإن كانت لا تستهوى الزائر الا أنها تعلى في الغالب من قدر صاحبها في نظر جيرانه .

— ٧ —

وبقليل من ضبط النفس والصدق في تفضيل التشجير على الزراعة لن يتجاوز تكاليف مزرعة بائرة تكاليف السيارة والجراج في مدينة نيويورك (مع ملاحظة أن الضرائب مازالت منخفضة فإن ضريبة ضيعة من مائة فدان

بعبانها لاتزيد عن قسط تأمين السيارة) .

ومن حظ أهالى نيويورك الطيب بل وجميع الساحل الشرقى للولايات المتحدة أنهم يجاورون منطقة زراعية عريقة فى ماضيها ، فالأرض الضعيفة غنية بمناظرها وليس هناك أبهج من أن تقضى نهاية الأسبوع أو تمضى الأجازة فى ضيعة قديمة ذات دار أثرية ولا يمكن أن تعدلها فى بهجتها تلك الدور التى يبتنيها أصحابها من جذوع الأشجار ويعرشونها بالألواح الخشبية حول بحيرات منيسوتا أو فى الغابات الأهلية. وسيكون من دواعى الكبرياء والاعتزاز أن يكون للانسان دار كتلك الدار .

الفصل الثانى عشر

التأثير السليم

فى يوم بهيج من أيام صيف ١٩٥٩ جد لحسن الحظ حدث صغير تافه ، إذ انطلقت الصحف فى موجة من الفرح تعلن الحادث السعيد الذى تنتظره الأسرة المالكة البريطانية . وطلعت النيويورك تيمس بقصة خاصة عنوانها « لندن فى فرح غامر » قالت فيها «كان هناك انفعال جامع فى كل مكان ، فى الحوانيت ، وفى الحانات ، وفى الدور ، وأخذ الأصدقاء يحيون بعضهم البعض بهذا القول الساذج ، أليس هذا شيئاً جميلا ؟ أو بعبارة ، ألم أقل لك هذا ! »

ولا يدرى أحد بالطبع كم من الناس قد تبادلوا هذه التحية الساذجة . ومن المحتمل أن المراسل كانت لديه فكرة واضحة عما يفترض أن يقوله الناس فى الحوانيت وفى الحانات بل وفى الدور أيضاً فى مثل تلك المناسبة. وعلى أية حال فقد وجدت نفسى وأنا أقارن بين هذا الحماس سواء كان حقيقياً أو مزوقاً والصدى الذى أحدثته أو فشلت فى أن تحدثه أخبار مماثلة فى الدوائر التى عشت فيها صغيراً ، والحنين وحده هو الذى يحمل الناس على جناحيه إلى تلك السنين الخوالى .

وقد حدث رد الفعل العكسى هذا ضد الملكية فى مقاطعة « الجن » إلى الشمال من بحيرة إيرى فى ذلك المكان الذى مازال يدعى دون خجل

بالأمبراطورية البريطانية . والموقف العنصرى فى هذا الموضوع من الأهمية بمكان ، ففى منتصف القرن الماضى استقرت عناصر اسكتلندية فى الجزء الأكبر مما يعرف الآن بمقاطعة « أونتاريو » ومنذ مائة وثلاثين عاماً كانت بعض الأراضى فى « الجن » آهلة بالسكان ، وفى صباى لم أر فى كثير من الأماكن غير أسرة كاميرون وأسرة جراهام وأسرة روب هى وحدها التى لايتصدر أسمها لقب « ماك » . وفى أمكنة أخرى كانت هناك أكثرية واضحة تحمل لقب « ماك كولم » وينتشر فيها اسم « جون » بشكل بارز لم يكن يتميز الواحد منها عن الآخر إلا باسمه الخاص وكان فى الغالب اسماً ممجوجاً ، وفى المنطقة الشمالية من مسقط رأسى حيث ولدت كانت أسرة كامبل قداستقرت وتجمعت دون نظام حول مدينة تسمى «كامبلتون» .

— ٢ —

فإذا اتُّهم أحد هؤلاء الجيران بعدم الولاء للتاج فانه ينكّر ذلك إنكاراً باتاً فلم يكن هناك مايحمله على هذا الموقف الذى لا يهمه كثيراً ، إلا أن الإنسان قد يظل على ولائه بينما تنوشه الريب الملحة والهواجس الكامنة عن جدوى قيام الملكية ، وهذا هو بيت القصيد .

والتاريخ مصدر الكثير من هــذا الريب فقد هاجر عدد من الاسكتلنديين إلى كندا فراراً من الاضطهاد العنصرى ، ولقيت هذه الحقيقة تأييداً شاملا من جانب المهاجرين الآخرين الذين نزحوا طلباً للثروة . وفى غمار العمل الشاق فى تحويل الغابات إلى أراض زراعية تناسوا تلك الذكريات ولكن بقى هذا الشعور الغامض بأن الانجليز حكومة وشعباً

لم يكونوا كرماء مع آبائهم . فإذا أثيرت المسألة على نطاق واسع فلن نعدم مؤرخاً يذكر قصة إعدام الملـكة مارى ملـكة اسكتلندا واجتزاز رأسها .

وكان « عهد الأسرة » المشهور فى أوائل القرن التاسع عشر أعظم مايضخم هذه المواقف (بالنسبة للـكنديين) فقد كان هذا العهد رباطاً وثيقاً بين أقلية صغيرة من الأعيان سيطرت خلال سنوات النزوح على الحياة السياسية والدينية والاقتصادية فى شمال كندا لمصلحتها الخاصة دون منازع ، وعلى رأس هذه الأقلية كان يوجد ممثلو التاج من الحـكام والموظفين الإنجليز الذين يلون هذه المناصب بعد تقاعدهم بغض النظر عن كفاءتهم ، ويدخل فيها تلقائياً كل من ينحدر مباشرة من الأسر الارستقراطية أو ما يعدلها تماماً كأن يكون أثيراً لدى الملـكة والأسرة المالـكة ، وفى خارج هذه الدائرة كان الاسكتلنديون ، وكان الأولون يرون فى الملـكية سياجا لمايتمتعون به من مزايا سياسية واجتماعية واقتصادية فلم ينتقصوا من تمجيدهم لها ودفاعهم عنها ، أما الاسكتلنديون فقد كان من العسير عليهم أن يتشيعوا للملـكية ولم يكونوا حقاً من الموالين لها .

وبمرور الزمن وبعد أن اتحدت البـلاد فى حكم كونفدرالى فى نطاق الدومنيون البريطانى عام ١٨٦٧ حصل الاسكتلنديون على المساواة السياسية ونالوا بعض المزايا الاجتماعية ولـكن بقيت الحدود والعداوات القديمـة ماثلة. ولم يشارك أهالى تورنتو حتى فى وقتنا هذا فيما يحتمل فى الإمبراطورية أو الـكومنولث من تمجيد للأسرة المـالـكة بما فيها هذا الدوق الملـكى البعيد النسب. وهناك فى تورنتو مازال هذا الحصن قائماً الذى عنى ببنائه أحد الثراة الوجهاء عندما همه عدم وجود مكان مناسب لنزول « ادوارد السابع »

إذا ماخطر له أن يزور كندا . فإذا بقيت السلالات النبيلة والثراء على هذا الشعور من الولاء فأولى بغيرهم أن يظلوا على هذا الشعور من عدم الولاء . ولم يكن فى مزارع « إلجن » أحد من هؤلاء الثراة أو تلك السلالات النبيلة . وكان الكثير من إتجاهاتها السياسية بما فيها تأييد الفلاحين الواضح لحزب الأحرار يعود إلى ذلك العهد عهد الأسرة .

— ٣ —

ومن الموضوعات الحيوية الهامة العاجلة التى أثيرت حينذاك كان موضوع الإسراف وموضوع الخمور . فأما موضوع الإسراف فهو موضوع سليم تماماً فلم يكن أهالى كندا يؤدون أى نوع من الضرائب للأسرة المالكة بغض النظر عن تلك الإتاوة التافهة التى يؤدونها للحاكم العام وهو رجل إن لم يكن من أفراد الأسرة المالكة فهو ملكى إلا أن جيرانى كانوا ممن لايحبون ذلك النوع من الإسراف الذى لاضرورة له حتى وإن كان من جانب الإنجليز ، ومازلت أذكر تلك المناظرة التى دارت حول مخصصات الأسرة المالكة والقصور العديدة والعربات الفارهة والخدم والحشم واليخت الملكى . ورأى « نيل ماك البين » وكان حجة فى كثير من المسائل أن مجموع هذه النفقات قد يبلغ ألفين أو ثلاثة آلاف دولار فى اليوم أو مائة دولار فى كل ساعة من الأربع والعشرين ساعة فى اليوم ، وكان هذا مذهلاً . ولربما عد « نيل » مبتكر الحسابات الإحصائية التى تبين لنا فى الوقت الحاضر ما تنفقه حكومة الولايات المتحدة فى كل دقة من دقات الساعة . وظهرت الصحف الموالية للتاج والتى تعد بمثابة إدارة العلاقات

العامة بالنسبة له كصحيفة « تو نتوميل » و « أمبير » بشرح التوسع فى القصور الملكية من بكنهام إلى وندسور فسند رنجهام فبالمورال فكان ذلك بالنسبة لنا ضغثاً على إبالة حيث ضاعف من شعورنا بفداحة تلك النفقات .

أما موضوع الخمور فكان أكثر تعقيداً للاعتقاد بأن الأسرة المالكة من الأسر التى تقبل على الشراب وإن كنت لاأدرى على أى أساس قام هذا الاعتقاد ولربما كان مصدره شخصية إدوارد السابع المنبسطة فما زلت أذكر ما كان يقوله أبى وهو رجل متزمت من أنه لايوجد مايدل على أن جورج الخامس يشرب أكثر مما كان يشرب ادوارد السابع . أو لربما كان مصدره ما كان يبدو عليه نواب الملك من حكام كندا فقد كانوا يبدون أمام النظرة الفاحصة لبعض الأهلين كما لو كانوا غرقى إلى أذهانهم فى الشراب وكان البعض فعلا من هذا الطراز .

وكانت مقاومة الخمور بين هذه الجماعة عنيفة حادة وانبعثت هذه الكراهية من الحالة التى يؤدى إليها السكرة فى مدينة « دتون » المجاورة كان هناك فندقان أحدهما يدعى فندق الملكات (كوينز هوتيل) والآخر يدعى (ماكنتير هاوس) وكان مكاناً تطيب فيه الخفة ويحلو المرح ، وفى مساء السبت من كل أسبوع حتى قيام الحرب العالمية الأولى كان يلتقى فيه فريق صغير من المشاغبين يسمح لهم « ماكنتير » بهذا الصخب الحاد والشغب العنيف والعراك الدامى وهم يتجرعون كؤوس الويسكى الاسكتلندى الثقيل ، أو هذا ما كان يصفهم به من لم يشاركهم صخبهم . وبين حين وآخر يشجر بينهم عراك حاد تستخدم فيه زجاجات الويسكى

المحطمة ، تنجم عنه خسائر فادحة عرف عنها أنها تسبب خسائر كثيرة وتدمى منها الوجوه حتى وجه ماكفرسون نفسه .

ولذلك عرف الشراب بما كان يسببه من تلك المعارك الدامية التى تهدد أمن الجماعة والتى أسف لها كل إنسان حتى هؤلاء السكارى حين يفيقون فأقلع عنه حتى هؤلاء المدمنون ولم يكن فى البيئة من تجارب أخرى غير ذلك . ولم يتصور إنسان أن جورج الخامس فيما لو فرض وكان ممن يغشون ما كنتير هاوس مساء كل سبت قد يشهر زجاجته ويطلب منازلة كامبل ولكن هكذا عرف عنه .

وكان للقرب من الولايات المتحدة هو الآخر نوع من التأثير على اتجاهاتنا ، فالبلاد كالناس تنال التميز واعتبار الذات بانعكاسها على الأشياء على مبتى تجعلهم مختلفين عن أقرانهم ، وكان الكنديون ينعكسون دائماً على الأشياء فى كثير من الفخر والاعتزاز فالقضاء العادل والنظام البرلمانى واللغتان والموارد المعدنية الطائلة والمناخ المتقلب القاسى وكل تلك الأشياء تجعلهم مختلفين حتى عن أقرب خدن لهم وهو الولايات المتحدة . وكان رأى الكثير أن التبعية للملك أو الملكية أمر يستحق التفكير . وفى إلجن لم يكن يفصلنا عن ديترويت إلا مائة ميل ، ولم يكن منا من لا يضمر نوعاً من الإعجاب الخفى بسكان تلك المدينة الخالية من الغيرة والحسد . ففى الخريف حين يقل العمل فى المزارع يهرع المغامرون من طلاب الربح إلى وندسور [١] ويدفعون بحقائبهم إلى أحد الأصدقاء الذين يعبرون الحدود

---

(١) تقع وندسور على الحدود الكندية فى مواجهة مدينة ديترويت وبالقرب منها فى ديربورث توجد مصانع فورد للسيارات .

بانتظام وبذلك لايبقى لديهم مايخشون عليه من رجال الهجرة . وحينئذ يعبرون إلى الضفة الأخرى دون جوار سفر فإذا سئلوا توضيحاً قالوا إنهم فى طريقهم من المدينة إلى السينما أو أحد المسارح المزلية فى « وود وارد أفينيو » وبعد شتاء من العمل فى مصانع فورد يعودون بصوان فاخر من الملابس وحافظة ملأى بالنقود وعمل مضمون لفصل الصيف ، فى ذلك الهرم الذى لايتربع على قمته جورج الخامس وإنما هنرى فورد .

— ٤ —

وكل هذه الإتجاهات معروفة واضحة وإن كان أشياع الملكية لايسمحون لها أن تتعدى حدودها إلى العلنية واتخذوا من الإجراءات مايحول دون ذلك ففى ذلك الوقت كانت غيرة المحافظين من أهالى تورنتو تنعكس على الكتب المدرسية وكان على الطلاب فى مدارس المعلمين وهم تلك الناشئة الغضة من معلمى المستقبل أن يكرروا الولاء والحب للملك والوطن وأن يتميز ولاؤهم للملك عنه للوطن ، وكنا نردد فى المدارس نشيد حفظ الله الملك (فى كل مرة فيها أغنية ، شجرة الاسفندان المورقة) وفى بعض الأحيان كان يسمح لنا أن تغنى ذلك المقطع الذى لم يعد يغنى بعد عن التضرع إلى الله أن يدفع أعداء الملك بالدمار والخراب السياسى. وكان المفتش الذى عينته المنطقة التعليمية فى أونتاريو للتفتيش على مدارس الجن يقوم بتفتيش مدرستنا مرة أو مرتين فى السنة وكان أحدهم ويسمى تايلور استعمارياً متعصباً فكان يرى أن من واجبه أن يقضى على المشاعر الوطنية المبهمة عند التلاميذ وبعض المدرسين أيضاً بأن يختم زيارته فى كل

مرة بكلمة يمجد فيها فضائل الأسرة المالكة وحكمها وما تحمله من مشاعر طيبة لنا جميعاً .

ولم يكن جورج الخامس ، كما كان معروفاً فى الغالب بالشخصية التى تستهوى مشاعر تلاميذ المدارس . أما الملكة مارى فإنها على الأقل كانت تثير فزع أى فلاح كندى فقد كانت تبدو فى صورها وقد لف جيدها لفاً محكماً ستة أو ثمانية فروع من اللآلىء . وفسرت إحدى التلميذات ذلك تفسيراً لطيفاً وكانت صبية واعية تدعى « أدنا ماك كول » بقولها إن الملكة لابد وأنها تخفى وراء تلك الفروع من اللآلىء تضخماً شديداً فى الغدة الدرقية ولابد وأنها ترتديها لهذا بالليل كما ترتديها بالنهار .

فإذا كان الملك والملكة ممن يعوزهم إثارة الحنان واكتساب الحب والصداقة فقد تغير الموقف تماماً فى السنوات التى تلت الحرب العالمية الأولى على يد أمير ويلز إدوارد الثامن فيما بعد وأخيراً دون أن ينال ذلك من حيويته وجاذبيته دوق وندسور . وكان الأمير كالعهد به حياً نضراً وقد خرج بمعجزة ما سليما من معارك الميدان الغربى التى حصدت كثيراً من الكنديين (وكنا نعرف حينذاك أنهم لدواع عسكرية عليا يضعون القوات الكندية فى مقدمة الهجوم ، وإن كنا لا ندرى ما إذا كانت هذه الدواعى نفسها على العكس بالنسبة للأمير) . وكان الأمير فضلا عن ذلك شجاعاً بشوشاً طيباً ، أكثر ما كان يعنيه هو رفاهية رعايا أبيه وكان ملماً بتاريخ الأمبراطورية ومعالمها الجغرافية محباً لأبويه وأشقائه وشقيقاته ، يملأ أعطافه مرح برىء . ولم يكن هناك مايستدعى إثارة موضوع الخمور فأقل مايوصف به الأمير أنه رجل سليم مما ينفى ذكر الشراب وكل رذيلة أخرى ، وحق

هذا النقد الموجه للاسراف قد انتهى بدوره فقد ابتاع الأمير مزرعة لتربية الماشية فى « البرتا » بدأ فيها كما لو كان يرمى إلى اكتساب مايقوم ببعض نفقـاته .

— ٥ —

وسواء جاء ذلك عرضاً أو وفقاً لخطة موضوعة فقد جاء صيف عام ١٩١٩ ومن بعده الخريف وكان ذلك فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ليشهد تلك المحاولة العتيقة الصاخبة لإظهار ما للأسرة المـالـكة من تأثير فعال وبناء على حياتنا ففى منتصف أغسطس وصل الأمير إلى سان جون فى « نيو برونزويك » فى زيادة لبلاد ادومنيون وحيته العامة كما حيته الخاصة لدى وصوله وكان فى استقباله تسع من الصبايا الحسان مرتديات البياض رمزاً للطيبة والصلاح وفى كل منهن درع يمثل مقاطعة من المقاطعات الـكندية التسع . وهناك كما فى كل مكان آخر من الأسابيع التالية ألقيت الـكلمات فى تمجيد بطولة الأمير فى الحرب التى انقضت حالاً ، وكانت ردوده التى يلقيها تتناول بدقة « ذلك الدور المتواضع الذى أتيح لى أن أقوم به فى الحرب العظمى » ممـا كان يؤخذ برهاناً على تواضعه ونفوره الذى لا يمـكن تصوره من الادعاء . وكثيراً ما كان يعود إلى ترديد أن معلوماته عن « شعوب الإمبراطورية البريطانية المجيدة قد اكتسبتها ، أيها السادة ، من حياتى معهم فى الخنادق والمعسكرات ، ومن أوامر التعيينات اليومية فى الجبهة الغربية » .

وفى تلك الزيارة عاش الأمير حياة خشنة فى إقليم بحيرة بنجون ، وقاد

قطاراً واشترك تلقائياً فى تحية مهرجان العمال فى أوتاوه وزار المزارع والمصانع ولم نسمع عنه أبداً أنه انحرف فى سلوكه ولو للحظة واحدة انحرافاً لايليق بحامل شارة الصقر الكشفية . وانى لأعود بذاكرتى إلى تلك الأيام فأرى كيف هز الأمير عواطف الشيوخ ، فأبرق مراسل نيويورك تيمس إلى صحيفته من « وينيبج » بتفصيل مطول عن زيارة الأمير لسوق تجارة الغلال حيث تعرف إلى أسرار المهنة وابتاع قليلا من الشوفان . وحين تخطى الأمير أحد الحفر وعى مراسل التيمس وكان شاباً مرهف الأذن يجيد اللغة ويلم بأسرارها إجادة تامة عدداً من التعليقات منها «طفل رشيق » « معتاد الوقوع » « لن يتردد » « أنه فتى همام » « وأنه يستعرض » أما المراسل فقد وصفه بأنه « شاب يحدوه شوق عارم لمعرفة حقائق الحياة اليومية ، وإحساس عصرى بروعة هذه الأشياء » ويعنى ذلك أنه يتمتع بقدرة على الاستطلاع لا نظير لها .

ولم يكن غريباً أننا كنا طوال ذلك العام نحتفظ بصورة أمير ويلز فى ملابس ضابط بريطانى معلقة فى أبرز مكان فى المدرسة ، وإلى جوارها ثبت مقال كتبته « أدنا ماك كول » ونال استحسان تايلور عند زيارته التفتيشية عنوانه « لماذا نحب أميرنا الكريم الساحر » وقد نسيت محتويات ذلك المقال إلا ما أذكره من الدعاء العام بأن يقيه الله ويحفظ عليه الصحة والعافية ورجاء حار بأن يهجر هواية ركوب الخيل .

وكان ذلك فى المدرسة . أما فى البيت فقد كان الوضع مختلفاً ، فلم يكن الحديث عن الأمير ولا عن أبويه موضع ترحيب منا ولربما كان ذلك بعض

حصيلة التعليم الحر فإذا كان كذلك فقد حققت المدرسة بغيتها على أكمل وجه .

— ٦ —

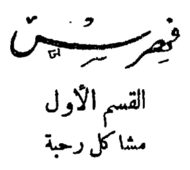
ومن حياتى التعليمية أدركت موقف أبى وكيف أن هذا النموذج الكامل للانسان كأمير ويلز لايلقى ذكره ترحيباً فى دارنا ، وذلك حين أغضى مدرس سابق وشخصية بارزة فى حياة غرب إلجن السياسية ، عما أسماه تفاهات الإسراف والخمور ولم ينكر على جورج الخامس أن يكون له دور ما فى التاريخ فهو سلالة اليصابات وشارل الأول وفيكتوريا ووريثها على العرش إلا أن من التفاهة أن يكون على رأس الدولة رجل يرجع الفضل فى كل مايتمتع به من مكانة وفيعة إلى الصدفة الطارئة لتلك الأبوة الملكية .

وما عليك إلا أن تعلن شرعية تلك الصدف حتى نجد مبرراتها أينما كانت فهى صاحبة الإذن وهى التى تحقق مطالب الناس وفى إمكانها أن تدعم أسعار السلع المتفاوتة حتى فى «دتون» نفسها ، فإذا كان الأمير حقاً بتلك الصورة التى أضفيت عليه فلن تقف دونه أية صعوبة فى اعتلاء العرش إذا مافرض وكان هذا الحق ميداناً لمنافسة حرة فإذا خسر الجولة فلن ينالها إلا من هو أفضل منه وما كان فى قدرتى حينذاك أن أتبين الخطأ فى هذا الجدل .

فى صيف ١٩٥٩ وقبيل ذلك التصريح المروع المذهل الذى أهاج أشجانى وذكرياتى كانت الملكة والأمير فيليب فى رحلة ملكية يجوبان فيها كندا ، وكان هناك الكثير منذ زيارة الأمير ، فقد تعددت الشكوى

من عدم اكتراث مواطنى السابقين بهذه الزيارة (كما تعددت الشكوى أيضاً من الكنديين الذين أقروا بهذه الحقيقة وقالوا إنه لم يكن هناك اكتراث) ورأى بعض أصدقائى منهم أن هذه الزيارة قد تكون الأخيرة . إلا أن الرحلة لم تكن فاشلة بل ومن الممكن أن تكون قد حققت نوعاً من النجاح الخالى من الصخب إذا ما أخذنا بتلك المقاييس السرية لتلك المراسم. ولكن إذا ما نفذنا إلى ماوراء تلك المظاهر السطحية فأن البعض يرى أنه كان من الممكن أن تحدث اضطرابات كأن يعرب الناس صراحة عن استيائهم من الزيارة ولكننا من ناحية أخرى نرى شيكاغو التى شهدت التهجم المشهور من عمدتها تومبسون على جورج الخامس وقد احتفت بالزائرين الملكيين .

ويبدو هذا بالنسبة لى مفهوماً ومطمئناً وإن كان معاصرىَّ من الكنديين وأبنائهم مازالوا يفكرون فى كيف أمكن لشيكاغو أن تجتاز مثل هذا الاختبار فانها وهى التى لم تتميز بهذا اللون من المجاملة قبل ذلك قد استجابت فى شجاعة إلى التأثير السليم .



القسم الأول

مشاكل رحبة

صفحة

القسم الثانى

كيف نعيد قراءة التاريخ

القسم الثالث

الفلاح الذى يعروه حنين الماضى

المطبعة العالمية ١٦ و ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة



الناشر
دار النهضة العربية
القاهرة